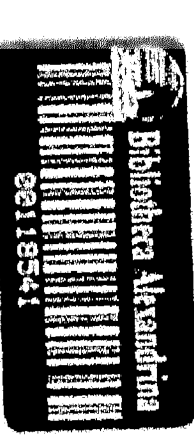


جمهورية مصر العربية
المجلس الأعلى للشئون الاسلامية
لجنة الخبراء



تأليف : وليم ف. اولبريت

ترجمة

الدكتور زكى اسكندر
مدير عام الشئون الفنية
بمصلحة الآثار

و

الدكتور محمد عبد القادر محمد
أستاذ كرسى الآثار المصرية
بجامعة القاهرة

مراجعة

الدكتورة سعاد ماهر
أستاذة كرسى الآثار الاسلامية
بجامعة القاهرة

يشرف على اصدارها
محمد توفيق عويضة

الكتاب
الحادى عشر
١٣٩١ — ١٩٧١

نبذة عن المؤلــف

ولد الدكتور وليم فوكسويل أولبرايت William Foxwell Albright فىأمريكا الجنوبية عام ١٨٩١ وتعلم فى الولايات المتحــدة الامريكية ، وحصل على درجة الدكتوراه من جامعة جونس هوبكينز Johns Hopkins بمدينة بلتيمور Baltimore, عام ١٩١٦ . ومن ١٩١٩ الى ١٩٣٦ عين عضوا فى هيئة المدرسة الأمريكية للبحوث الشرقية فى القدس ثم مديرا لها ، وقد كان فى هذه الاثناء يعمل رئيسا أو مستشارا لبعثات أثرية عديدة فى فلسطين والاقطار المجاورة .. وهو الان استاذ اللغات السامية فى جامعة جونس هوبكينز . ومنح الدكتور أولبرايت أيضا الدكتوراه الفخرية من جامعات كثيرة منها جامعات ييل Yale وسانت أندروز St Andrews وكلية الثالوث الاقدس بدبلن Trinity College, Dublin وأترخت ، واوسلو ، وأوبســالا . وهو عضــو فى الجمعية الفلســفية الامريكية ، والاكاديمية الاهلية للعلوم ، وعضو خارجى فى الاكاديمية الملكية الدانيمركية والاكاديمية الملكية الهولندية ، وعضو فخــرى فى الاكاديمية الملكية الايرلندية ، وعضو مراسل فى معهد فرنسا وأكاديمية العلوم النمسوية . وهو أيضا زميل فى المعهد الالمانى للاثار ، وعضو فخرى فى الجمعية الاسيوية والجمعية البريطانية لدراسة التوراه ، وجمعية الدراسات الشرقية بجلاسجو وهيئات علمية أخرى .

THE ARCHAEOLOGY OF PALESTINE

W. F. ALBRIGHT

by

Dr. W. F. ALBRIGHT was born in South America in 1891, and was educated in the United States, receiving his doctorate from Johns Hopkins University (Baltimore, Md.) in 1916. From 1919 to 1936 he was staff-member and director of the American School of Oriental Research in Jerusalem, directing or advising numerous archaeological expeditions in Palestine and surrounding countries. He is now W.W. Spence Professor of Semitic Languages in the Johns Hopkins University. Dr. Albright holds many honorary doctorates, including degrees from Yale, St. Andrews, Trinity College (Dublin), Utrecht, Oslo, and Upsala. He is a member of the American Philosophical Society and the National Academy of Sciences, foreign member of the Royal Danish and Flemish Academies, honorary member of the Royal Irish Academy, corresponding member of the Institut de France and the Austrian Academy of Sciences; he is also *de France and the Austrian Academy of Sciences; he is also* *fellow of the German Archaeological Institute and honorary member of Société Asiatique, the British Society for Old Testament Study, the Glasgow Osiental Society, and other learned bodies.*

مقدمـــة الناشر

كتبها م ٠ أ ٠ مـــالاوان (١)

كتاب الاستاذ أولبرايت عن آثار فلسطين القديمة هو أحد الكتب من سلسلة بليكان التى ترمى الى وصف التطور الحضارى منذ فجر التاريخ الى القرون الاولى من تقويمنا الحالى • وفى كثير من أجزاء آسيا ، بقيت لحسن الحظ آثار ومخلفات قديمة لتروى لنا أسلوب الحياة فى الازمان الغابرة التى أصبحت فى عالم النسيان منذ أمد بعيد • والهدف من هذه الكتب عن الاثار القديمة هو اعطاء صورة واضحة للانسان القديم ، مستمدة بصفة خاصة من الدلائل الاثرية التى تتميز بأنها تصويرية • وفى الحقيقة أن ميلنا للاثـــار يرجع الى كونها توجـــه أنظـــارنا الى مجموعة غنيـــة متنـــوعة من الاشـــياء التى يمـــكننا أن نراها ونلمسها ونحس بها • وقد يكون الدليل الاثرى قطعة من العملة المسكوكة بصورة لاحد القياصرة أو تمثالا لحاكم آشورى ، أو اناء بديع التلوين قام بزخرفته وتلوينه فنان من عصر ما قبل التاريخ اسمه غير معروف ، فكل قطعة من الادلة لها مكانها فى تاريخ الحضارة • وأكمل بيانات هى تلك التى استمدت من التنقيبات الاثرية التى ظهرت فيها قصور ومعابد وجبانات ومساكن وشوارع كثيرا ما تكون كاملة الى حد كبير •

ولا يمكن لكتب الاثار أن تغفل الاستشهاد بالكتابات القديمة ، أو بعادات الاحياء وتقاليدهم ، اذ هى تتضافر فى توضيح حلقات الماضى ، فدراسة الاثار ودراسة التاريخ تكمل كل منهما الاخرى وتعتمد كل منهما على الاخرى •

---

(١) م.أ. مالاوان استاذ اثار غرب اسيا بمعهد الاثار — جامعة لندن ، والمشرف العام على نشر سلسلة بليكان Pelican عن اثار الشرق الادنى وغرب اسيا .

ويدل المدى الواسع للمواضيع التى تناولها الاستاذ أولبرايت بالبحث فى هـذا الكتاب على الترابط الوثيق فيما بين الآثار والتاريخ والفنون والعلوم ، وكان علاجه لهذه المواضيع موفقا لدرجة بالغة فى اجتذاب القارىء العادى بل والقارىء المتخصص أيضا حتى أنه أعيد طبع هذا الكتاب خمس مرات حتى الان منذ صدور طبعته الاولى • وفى هذه الطبعة المنقحة الاخيرة أخذ المؤلف فى الاعتبار كثيرا من البحوث الحديثة فى ميدان ما قبل التاريخ وعلى الاخص اكتشافات الدكتورة كاثلين كينيون ذات الاهميـة القصوى فى أريحا والشواهد الاضـافية على بدايات الزراعة فى أماكن أخرى • وان الزيادات الجوهرية فى المعرفة مثل تلك الاعمال التى قام بها دى فو R. de Vaux وعلاقتها باكتشاف ملفـات البحر الميت لتشهد بالتقدم الضخم الذى حدث فى حقل الآثار خلال السنوات العشرة الاخيرة •

رأى فى القضية الفلسطينية

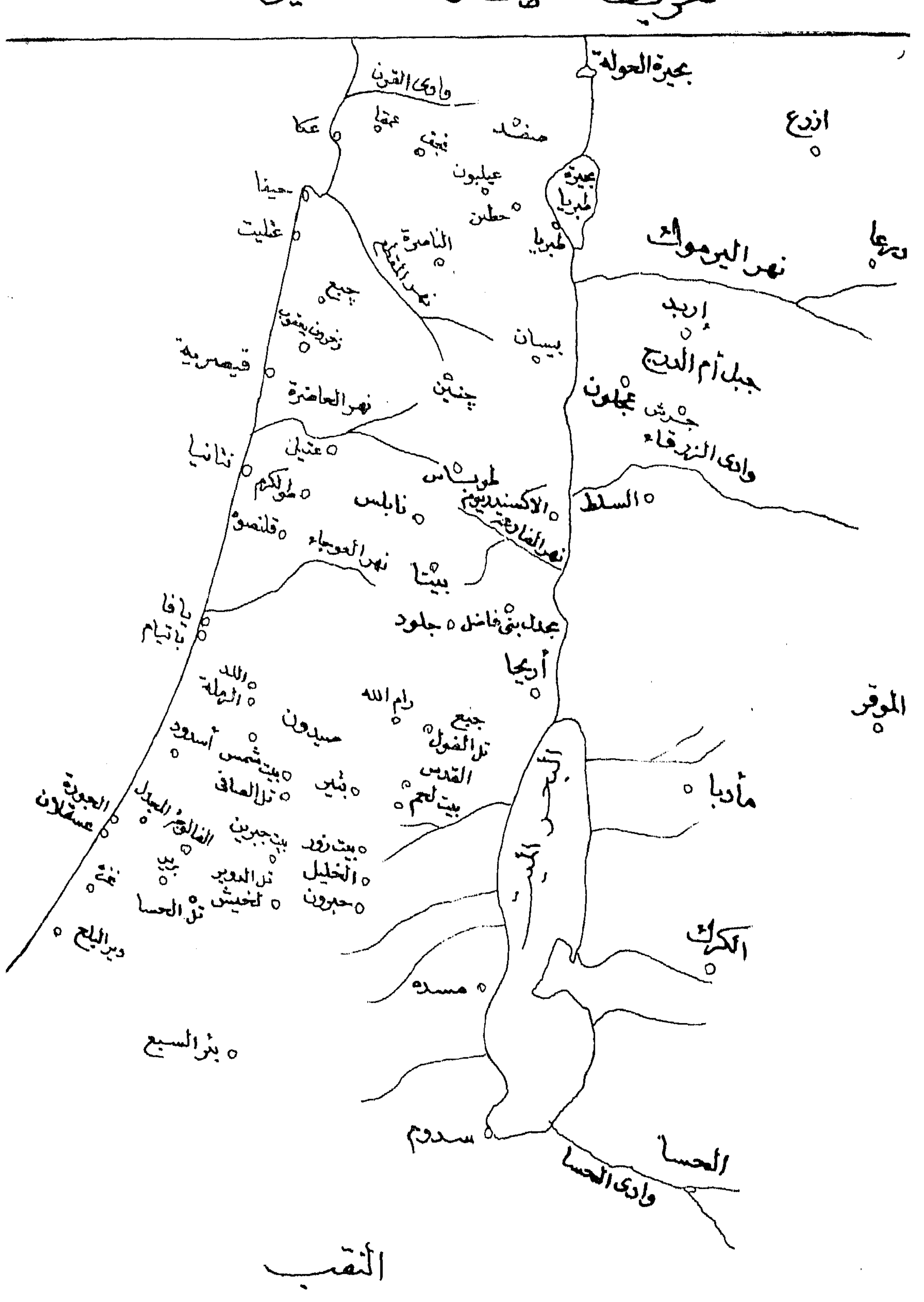
جاء فى كتاب : ((أبحاث فى العلوم الخفية)) لمؤلفه الانجليزى سيريل سكوت :
SYRIL SCOTT : An Outline of Modern Occultism. second edition. 1949 p. 210 London.

يذكر المؤلف ((واذ نستعرض مشاكل العالم ماضيه وحاضره ومستقبله ، يجب الا يغرب عن اذهاننا مشكلة اليهود ، فاليهود ليسوا أمة بأى حال من الاحوال ، ولكنهم جنس مختلط تكونت لهم صفات مميزة ، وهم ولو انهم فى الحقيقة اقلية فى العالم ، الا انهم اقوياء بثرائهم الفاحش وبقدرتهم على السيطرة على المناصب الكبرى . وأساليبهم تشبه اساليب هتلر النازية ، فانهم يبعثون الرعب ويبثون الخوف والارهاب ، كما ينشرون الرشوة ويثيرون القلاقل والاضطرابات فى العالم ويعيثون فى الارض فسادا ، ومن ثم فان اليهود قد ارتكبوا أوزارا تجلب عليهم اللعنة . وهم اليوم يرتكبون أوزارا اكثر من ذى قبل لاغتصابهم أرضا ليست ملكا لهم ، أرضا تركوها منذ اكثر من الفى سنة متناسين أن قلة من البلدان هى التى يعيش فيها سكانها الاصليون ، واننا اذا حاولنا استرجاع اراضى بلاد العالم وردها الى سكانها الاصليين لكان علينا ان نطرد الامريكان من الولايات المتحدة للهنود الحمر سكانها الاصليين وان نطرد الانجليز من استراليا ، وأن نطرد ملايين من الناس من ديارهم فى جميع أنحاء العالم . وقد ظل اليهود قرونا كثيرة رمزا للانسان الحائر الدائر ، القلق الجواب الذى يجوب الارض شرقا وغربا ، المنطوى على نفسه ، الجشع المحب لذاته . والحل لهذه المشكلة فى رأى هؤلاء الحكماء المستنيرين هو اذابة اليهود فى جميع الشعوب)) .

نستدل بهذا النص ان ادعاء اليهود فى حقهم التاريخى فى فلسطين لا يقوم على اساس ، اذ يتعارض مع تطورات الحياة .

دكتور محمد عبد القادر محمد

خريطة لآثار فلسطين



الفصل الأول

فن التنقيب فى تل فلسطينى

انه لمن السهل عادة على المرء أن يتفهم بوضوح موضوعا فى عصر ما اذا ما انتظر بضع سنوات حتى يدرسه فى ضوء تاريخه • واذا كان لنا أن نرى التاريخ فى صورة واضحة فانه من الضرورى ايضا أن ندرسه فى ضوء الاحوال المعاصرة • ففى الفصل الثانى من هذا الكتاب سنذكر باختصار تاريخ الكشف والبحث الاثرى ، فى حين أننا فى هذا الفصل الاول سنعاون القارىء باعطائه فكرة عامة عن هذا التاريخ بتوجيه نظره الى الحقائق الصحيحة للتنقيب كما يجرى الان • فالتنقيب فن وعلم ، وفن التنقيب الجيد يجب أن يرقى كلما زادت المعلومات الاثرية لدى المنقب وتحسنت طريقته ، غير أنه لا مناص من أن يفترق الفن عن العلم أحيانا وهو أمر مؤسف •

وكثيرا ما يسمع المنقبون هذا السؤال ، كيف يتم اختيار مواقع التنقيب ؟ والاجابات الممكنة عليه تبلغ فى عددها عدد المنقبين تقريبا، فهى تختار أحيانا بسبب تصادف العثور بها على أشياء ذات أهمية بالغة ، ونتيجة لذلك تدعو الحكومة أو الهيئات المرموقة الى توجيه نداء لتنظيم بعثة للتنقيب بها ، وقد حدث هذا فعلا فى حالة أعمال التنقيب السورية المثيرة فى رأس شمرا ومارى حيث عثر شيفر Schaeffer وباروت Parrot على مكتشفات ذات أهمية بالغة • وفى فلسطين حدث نفس الشيء مرارا فى التنقيبات الصغيرة ، مثل عمليات تنظيف المقابر والمعابد أو المبانى القديمة الاخرى • وكثيرا ماتجذب شهرة موقع قديم المنقب للعمل به ، ولدينا أمثلة عديدة على ذلك ، منها أعمال التنقيب التى أجريت فى القدس ، وكذلك الاعمال التى قامت بها بعثات التنقيب الالمانية والامريكية فى مجدو واريحا وشكيم والسامرة وبيت ايل • وفى بعض الاحيان يجذب تحقيق جديد أو كشف جديدانتباه شخص ما ، ومن الامثلة على ذلك المجسات التى أجراها جارستانج Garstang فى

حاصور وحفائر المؤلف (أولبرايت) فى تل بيت مرسيم • وقد يكون السبب الرئيسى لاختيار موقع ما هو سهولة الوصول اليه (وهو أمر هام جدا) مثل حفائر بادى Bade فى تل النصبه ، وحفائر المؤلف فى تل الفول (جبعة) • ومن الاسباب العامة للتنقيب ، تأثير الطابع الاثرى أولا فى تل الحسا ، ودفع جارستانج الاجراء مجساته فى تل قيسان للموقع ، بصرف النظر عن تاريخه ، فقد دفع هذا بترى Petrie للعمل وهارباج ، ودفع المؤلف للعمل فى آدر Ander

ومن البديهى أن توجد أيضا أسباب غريبة جدا لقيام بعثات التنقيب ، ولا ننسى بعض أسباب أكثر غرابة لشروع بعثات ، وقد يكفى أن نذكر هنا مثالا واحدا أو مثالين ، فعندما كنت فى اجازة بأمريكا فى أوائل صيف سنة ١٩٢٧ ، اطلعت فى بعض الصحف الاقليمية بالولايات المتحدة على بعض فقرات أخبار غريبة ومقالات عن اكتشـــاف منقب أمريكى « للفلك الذهبى » على جبل نبو ، فلما عدت الى المدرسة الامريكية فى القدس فى الخريف كان هذا المنقب الامريكى من أول من قاموا بزيارتى ، وذكر لى أن مصلحة الاثار بفلسطين قد أحالته الى المدرسة الامريكية ، واتضح لى فى الحال أنه زار نبو مرة واحدة ولكنه كان يخشى العرب جدا حتى أنه لم يجرؤ على العودة اليها ، وكان هذا هو كل العمل الذى قام به فى نبو ، ومع ذلك أرسلت أخبار اكتشافه للفلك برقيا فى كل الاقطار • وثمة قصة أقل بريقا ولو أنها مؤثرة جدا وهى قصة مزارع من ولاية الينـــوى الامريكيـــة قابلتـــه أنا وماك كاون منـــذ عـــدة ســـنوات فى فنـــدق النـــاصرة ، وكان هـــذا المزارع ناظرا لمدرســـة الاحد الريفية التى تتبع طائفة المعمدانيين ، وكان أحد جيرانه ناظرا لمدرسة أحد تتبع طائفة النظاميين Methodist • وفى أحد الايام دخلا فى مناقشة بشأن أفضلية التعميد بالتغطيس على التعميد بالرش ، وعندما اشتد النقاش قدم النظامى برهانا أعتقد أنه برهان قاطع ضد التعميد بالتغطيس وهو : أنه لم يكن يوجد فى أورشليم أى مكان كان يمـــكن تعميد كل الجموع الغفيرة به بالتغطيس فى عيد الخمسين ، فما كان من المعمدانى المفحوم الا أن اقترح على جاره النـــظامى أن يشرف على مزرعته بينما ذهب هو الى القدس ليبحث هذا الامر • وسافر على ظهر باخرة وجاب فلسطين سيرا على الاقدام توفيرا للمصاريف ، وقد اعتدى عليه بعض اللصوص ونهبوا ما معه بالقرب من نابلس ، كما أنه أشرف

على الموت بسبب أصـابته بالدوسـنتاريا نتيجة اقامته فى نزل يهودى رخيص فى طبريا ، لكن ذلك لم يهمه ، فقد أبرقت عيناه فرحا بينما كان يصف نجاح بعثته ويحكى أنه قاس أبعاد بركة ماميلا Mamilla فى القدس وقدر أنها كانت تتسع لكل الجموع فى عيد الخمسين ، وطبعا لم يكن هناك فائدة من افادته بأن البركة المشار اليها من القرون الوسطى ، اذ يوجد فىالقدس عدد من الخزانات الكبيرة يرجع تاريخها دون شك الى ذلك الوقت . وكانت كلماته الاخيرة لنا قبل أن نفترق « وبنـاء على ذلك فاننى عائد لكى أهدى أخى النظامى » .

وثمة مشكلة أمام المنقب أهم بكثير من اختيار مكان التنقيب ، ألا وهى كيفية تدبير المال اللازم . فعلم الآثار نوع من البحث الذى يتطلب تكاليف كبيرة نسبيا ، ولو أنه أقل فى تكاليفه بكثير من علم الفلك ومن علم الطبيعة النووية ، كما أنه ليس مكلفا بالدرجة التى تتسم بها بعض الامثلة الصارخة « للصرف للتظاهر » فالمنظم الحكيم لاعمال التنقيب هو الذى يبحث عن الموقع الذى يمكن دراسته دراسة وافية أو عمل مجسات بطبقاته المختلفة فى حدود الاعتمادات المتاحة له . ولقد انقضى الزمن الذى كان يمكن لعالم أثرى واحد أن يقوم فيه باجراء أعمال تنقيب كبيرة وحده ، كما حدث فى جازر ومجدو قبل الحرب العالمية الاولى .

فأعمال التنقيب فى الوقت الحاضر عملية بالغة التعقيد جدا كما سنرى ، ومع ذلك فمن البديهى أنه قد يؤدى شخص واحد عملا يدعو الى الاعجاب فى تنظيف المقابر أو فى التنقيب فى مواقع صغيرة جدا . وقد أصبح وضع ميزانية سليمة والتدقيق فى صرف الاعتمادات عاملين هامين لا يقـلان فى أهميتهما لنجاح بعثة أثرية عن التنقيـب العلمى والتسجيل .

ومعظم أعمال التنقيب تتولاها المعاهد والجمعيات الاثرية وصندوق تمويل التنقيب عن آثار فلسطين الذى كان له نصيب الاسد فى كل العمل الاثرى بفلسطين ، وقد جمع كل أمواله من اشتراكاتالاعضاء وأحيانامن هبات سـخية . أما البعثات الالمانية والفرنسية فهى تعتمد عادة على الاعتمادات الحكومية لتغطى جزءا من مصاريفها على الاقل . كما أن كثيرا من الاثرياء قد أظهروا كرما كبيرا ، ومن أهم هؤلاء جون روكفلر الاب ، وجون روكفلر الابن وجاكوب شيف ، وسير شارلز مارستون ،

والسير هنرى ويلكوم ، والبارون أدموند دى روتشيلد • وكثيرا ما كان يتولى المنقب جمع المال اللازم بنفسه ، وكان فى بعض الاحيان ينفق من ماله الخاص أو يحصل على المال نظير القاء محاضرات أو نظير الكتابة فى الصحف • وقد تأتى منح من المعاهد والمؤسسات التى تعتمد على الهبات ، مثال ذلك مؤسسة روكفلر أو جمعية كارنيجى Garnegie Corporation • وتوجد الان كثير من هذه الجمعيات فى أنحاء مختلفة من العالم الناطق باللغة الانجليزية ، غير أنه ليس من السهل الحصول على اعتمادات من معظمهم لاغراض البحث الاثرى • وأنه لمن الصعب اقناع الرجل العادى أن علم الآثار يستحق التعضيد على قدم المساواة مع المشروعات العلمية الاخرى • وعندما يصبح لدى بعض الافراد أو الجمعيات اهتمام بالموضوع ، فان اهتمامهم يكون عادة لفترة قصيرة ، ويكون مركزا على الموضوع الاثرى الذى أثاره فى نفوسهم التحمس الشخصى لاحد الاصدقاء أو الاعضاء حسبما يتفق •

وتدبير الاموال لاجراء التنقيب عملية غير محببة للنفس بالمرة ، اذ يتطلب هذا ان يصبح الانسان شحاذا ، يمر على ممثلى الجمعيات الخيرية والمنظمات ، محاولا اقناع ذوى اليسار بان المشروع الذى سيقوم به يستحق التعضيد أو انه مثير • وكثيرا ما يظن البسطاء ان جمع الاموال لاجراء تنقيب فى فلسطين أسهل من جمعها لاعمال مماثلة فى أى مكان آخر • لكن العكس هو الصحيح ، فمديرو المتاحف وأعضاء مجالسها يوضحون ، وهم على حق ، ان فلسطين قلما تجود بقطع اثار متحفية • والجماعات الدينية المحافظة لا تظهر فى الغالب رغبة فى اجراء أى عمل اثرى هناك ، اذ يقولون انه لما كان الكتاب المقدس لا يحتاج الى تاييد ببراهين ، فليس ثمة داع للبحث عن اى شىء اكثر مما لدينا بالفعل • والاكثر معرفة من ذوى العقول المتدينة كثيرا ما يسخرون من فكرة الحصول على « قيم انسانية من علم الشقف » • اما المتحررون دينيا فكثيرا ما يقولون : « ولكن لماذا ينقبون فى فلسطين — انكم ستعرفون اكثر عن تاريخ الديانة بالتنقيب فى الهند أو الصين • وكثير من كبار الممولين لهم هوايات خاصة مما يجعلهم يصممون على التدخل فى التنقيب ، فواحد يبحث عن ادلة تربط الشرق الادنى بوسط امريكا عن طريق يوكاتان Yucatan ، وآخر يطلب استخدام الطرق الجيوفيزيائية او عصا القنقن (الخبير بالماء تحت الارض) لتحديد

مواقع الجدران او الرواسب التى فى باطن الارض ، فى حين ان كلا من جهاز المغناطيس الكهربائى واغصان الصفصاف ليست له فائدة تذكر فى معظم المشروعات الاثرية ، ولذلك فان مثل هذه الطلبات قد تكون عقبات خطيرة تحول دون اتباع الطرق السليمة •

وهناك ايضا من يفضلون ان ترشدهم كرة بللورية (مثل ما حدث فى بعثة باركر قبل الحرب العالمية الاولى) أو أن يكون مرشدهم وسيط روحانى • وقد يصر احد هؤلاء السادة على ان ينشر الكشوفات المثيرة بنفسه ، مصحوبة بتفسيراته غير السليمة •

وقد يتجول ممول آخر مكتشفا نقوشا ومذابح جديدة لمولوك Molock مما يؤدى الى ارتباك العالم الاثرى المتحير الذى أصبح عمله اشق بفضل الحماس الذى كان هو نفسه قد شجعه •

وبعد تذليل العقبة الاساسية وهى التأكد من حصوله على الاعتمادات اللازمة فان الخطوة التالية امام المنقب هى أن يحصل على تصريح بالتنقيب • وقد كانت الفترة بين الحربين العالميتين هى الوقت الذهبى للعمل الاثرى فى الشرق الادنى • اذ تاسست فى معظم اقطار الشرق الادنى والشرق الاوسط مصالح اثار سنت لها قوانين ووضعت لوائح لتنظيمها طبقا لاشتراطات مندوبى عصبة الامم ، اما فى مصر فقد كان بها من قبل نظام حديث للعمل الاثرى منذ الوقت الذى قام فيه جاستون ماسبيرو Gaston Maspero باعادة تنظيم مصلحة الاثار بعد وفاة ماربيت باشا •

ففى كل هذه البلاد اصبح من السهل على اى عالم اثار ذى سمعة طيبة تعضده هيئة مسئولة ، ان يحصل على تصريح بالتنقيب ، وان يضمن قسمة عادلة للقطع الاثرية عند انتهاء عمل البعثة • غير أنه منذ الحرب العالمية الثانية اصبح من الصعوبة بمكان الحصول على تصريح بالتنقيب من حكومات الدول التى نالت استقلالها ، وعلى احسن الفروض ، فانه لابد ان نتوقع فى المستقبل ان الاثار يجب ان تبقى فى متاحف او مخازن آثار الدول أو الاقاليم التى أجريت فيها أعمال التنقيب ، كما هو متبع طبقا للقانون منذ عشرات السنين فى ايطاليا واليونان وتركيا • وعلى اسوأ الفروض فانه يجب ان نتوقع ان دولة أو أكثر من دول الشرق

ستحرم على الاجانب التنقيب تحريما تاما ، الا اذا كان ذلك على الارجح بالاشتراك مع المعاهد الاهلية او مع علماء اثار هذه الدول • فاذا كان علماء الاثار الوطنيون متقدمين ، كما هو الحال فى تركيا والعراق ومصر ، فان هذا الرأى يجب الا يعتبر رايا خاطئا بالمرة — بل على العكس يجب اعتباره عين الصواب • ولو أن المستقبل السياسى فى فلسطين غامض ، الا أنه ليس هناك من سبب يحول دون استمرار علماء الآثار الوطنيين والاجانب فى اجراء اكتشافات هامة بها لمدة طويلة فى المستقبل •

وبينما تكون المفاوضات جارية مع الممولين والحكومات ، فانه يجب على المنقب أن يجمع مساعديه ، وليس من الضرورى أن يكون لدى هؤلاء المساعدين خبرة اثرية كبيرة فى بدء العمل ، اذ أن الخبرة الضرورية الخاصة يمكن الى حد كبير اكتسابها اثناء اجراء التنقيب • وقد اعتاد احد مديرى المتاحف ان يصر على ان يكون اعضاء بعثاته الاثرية من الرجال المدربين تاركا لغيره مهمة تدريبهم ، ومثل هذه الانانية ترتد عادة على راس فاعلها بعد وقت قصير • فمنظم الحفائر الحكيم يجب عليه أولا أن يبحث عن مدير كفء وقادر فى نفس الوقت على التعامل مع الناس • والذى يقوم بالتنقيب فى تل عليه ان يحاول ان يضم معاونوه كفاءات مختلفة ، وأن امكن يكون من بينهم مهندس معمارى أو مهندس مساحة قدير ، أو مهندسون معماريون ومهندسون مساحيون حسبما تقضى به طبيعة الموقع • كما يجب أن يكون من بينهم مصور فوتوغرافى متفرغ ، ولا بأس أن يكون من الهواة ، اذ أن الهواة الموهوبين كثيرا ما يحصلون على نتائج افضل بكثير من تلك التى يحصل عليها المصورون المحترفون غير المعتادين على هذا الطراز الخاص من العمل ، كما يجب أن يكون هناك رسام أو اكثر ، ومسجل أو اكثر • واخصائى فى الفخار الفلسطينى الزم كثيرا للعمل من خبير فى النقوش • ويمكن اسناد عدد من هذه الاعمال الى طلبة من الجامعات أو من معاهد الاثار • ويمكن استخدام مساحين ورسامين وطنيين بنجاح ، اذ انه يمكن فى الوقت الحاضر وجود متخصص فى مجال من الخبرة التى قد تدعو الحاجة اليها فى فلسطين • وعلى سبيل المثال لم يعد هناك ادنى عذر لاجراء اى تنقيب دون الاستعانة بخبير فى الفخار ضمن اعضاء البعثة ، ففى اى اعمال تنقيب ثبت ان كل انواع المواهب

والتخصصات ، حتى البسيطة منها ، لها قيمتها ، فالمصارع مثلا قد يبهج « المختار » المحلى ويساعد ذلك على الاحتفاظ بصداقته ، وبعض المعرفة بوسائل الاسعاف والتمريض له نفع عظيم ، كما ان وجود طبيب متمرن فى معسكر البعثة قد يكون له قيمة لا تقدر فى المحافظة على صحة العاملين فيها ، وتوثيق اواصر الود مع المجتمع الوطنى • ومجموعة متواضعة جدا من الالحان الموسيقية والاغانى تساعد على بقاء الصغار والكبار من اعضاء البعثة مسرورين • وهلم جرا •

وكثيرا ما يمكن للمرأة ان تصل الى اكبر مستوى فى علم الاثار ، كما يشهد بذلك العدد المتزايد من علماء الاثار من النساء ، ومع ذلك فمن الحكمة غالبا فصل الجنسين فى بعثات التنقيب ، اذ ان وجود مجموعة مشتركة من الجنسين فى معسكر بعيد عن المدينة يتسبب فى زيادة كبيرة فى نفقات الاقامة • اما فى البعثات الصغيرة فمن المتعذر اختلاط الجنسين الا اذا كانت مدة عمل البعثة وجيزة جدا وكانت البعثة مزودة باعتمادات وافرة ، ولقد حدث ان كان كل أعضاء بعض من أنجح البعثات الاثرية فى الشرق الادنى والشرق الاوسط من النساء ، ومن الامثلة الممتازة على ذلك الاعمال الكبيرة التى قامت بها دوروثى جارود وجرترود كاتون تومسون Gertrude Caton Thompson وهيتى جولد مان

وعندما تكون البعثات مشتركة ، فانه من المستحسن جدا ان تكون زوجة مدير البعثة موجودة ، حتى يكون هناك ضابط اجتماعى نسائى ولتحول دون وقوع فضائح — اذ وقعت بالفعل فضائح تسببت فى كآبة وخيبة بعثات غير قليلة ، ولقد كانت ليدى بترى ومسز جارستانج عضوتين هامتين فى بعثات زوجيهما •

وفى اثناء تجميع افراد البعثة ، فانه يجب الا ينسى المنقب تدبير المعدات اللازمة لها ، وكثير من هذه المعدات يمكن استئجارها أو اقتراضها من بعثات اخرى ، خصوصا اذا كانت الحفائر المقترحة ذات علاقة متبادلة مع بعثات اخرى يمولها او يشرف عليها معهد كبير واحد او نفس المنظمة • ومن البديهى ان الاجهزة والعدد المساحية تقع فى المكان الاول من الاهمية ، ويجب أن تشمل تيودوليت من نوع جيد ، وميزان تقدير المناسيب ، وقصبة ، ولوحة رسم ، ومنظار فلكى ، علاوة على كمية من ادوات الرسم • ويجب ان تكون جميع الادوات المساحية وادوات

الرسم من النوع الممتاز ، اذ ان الادوات القليلة الجودة ستكون ابهظ ثمنا بما تسببه من مضايقة وتقليل فى دقة النتائج • ومن الضرورى ايضا وجود الات تصوير جيدة وكمية من مواد التصوير ، ومعظم معدات التصوير والرسم يمكن شراؤها الان فى فلسطين ولو انها تكون اغلى ثمنا ، ومن جهة اخرى فانه من المتعذر تحديد احتياجات بعثة من هذه المواد مقدما • وتحتاج البعثة الى عربة وربما تحتاج الى جرار خفيف ايضا ، وقد عرفتنا الخبرة بالحرب بالقيمة التى لا تقدر لعربة الجيب فى العمل الاثرى ، والخيام ومعدات المعسكرات ، مثل السراير • والكراسى النقالى ضرورية هى الاخرى ، الا اذا كانت البعثة تعتزم بناء مساكن دائمة • ونذكر فى هذا المقام ان المساكن النصف دائمة الخاصة ببعثات لخيش وغزة وايسبيتا قد دمرت أثناء الاضطرابات التى حدثت فيما بين سنة ١٩٣٦ الى ١٩٣٩ ، ويبدو ان بناء مساكن دائمة فى المستقبل اقل صوابا مما كان عليه الامر فيما مضى •

غير ان متاعب المنقب لا تنتهى ابدا ، اذ عليه ايضا ان يتفق مع مالكى الموقع الوطنيين على نوع من الايجار ، واذا كانت الارض ملكا مشتركا ، فقد يدخل فى مفاوضات ومشاكل لا نهاية لها ، ولا يمكن الا لبعثة رتبت نفسها لكى تعمل لعدة سنوات وممولة تمويلا كبيرا ، ان تامل ان تتغلب على هذه المتاعب بقيام الحكومة بنزع ملكية هذه الاراضى على نفقة المنقب • وقد اجرى نزع الملكية هكذا فى حالة بعثة مجدو التى قامت بها بعثة جامعة شيكاجو ، غير ان هذه العملية قد استغرقت وقتا طويلا • واستغلال ما لكى الارض للبعثات ، خصوصا اذا كان يؤيدهم الموظفون المحليون ، قد يكون مهلكا كما حدث مرة فى حالة حفائر الاكمة (اوفيل) التى قامت بها بعثة حفائر فلسطين وكما حدث أكثر من مرة للبعثة الالمانية فى شكيم • وقد جر بعض ملاك تل الفول المؤلف فى المحاكم ، ولست فى حاجة للقول اننى برئت ، ولكن هذه المشكلة تسببت فى ضياع بعض الوقت• أما المكائد المحيرة التى دبرها ملاك تل بيت ميرسيم الابتزاز مال أكثر من المنقبين فهى مضحكة علاوة على أنها بعيدة عن الروح الاشتراكية، اذ ان كل شريك من الملاك اراد أن يحصل لنفسه على أكبر قدر ممكن من المال على حساب الاخرين •

واخيرا ياتى اليوم الذى يمكن فيه أن يبدأ العمل فى التل • ومن الوجهة النظرية كان يجب أن يكون التل قد مسح تماما ، وتم اعداد ميزانية شبكية له ، وعليها شبكة ابعاد احداثية موقعة على شبكة مثلثات مساحية ، فشبكة المثلثات الاولى لازمة لمراعاة الدقة ، والشبكة الاحداثية لازمة لتحديد مواقع الجدران و « الحجرات » التى تظهر اثناء التنقيب • غير أن الذى يحدث فعلا ، ان التنقيب يبدأ عادة بينما تجرى العمليات المساحية فى نفس الوقت • وفى المواقع الصغيرة أو فى العمليات المؤقتة يمكن الاكتفاء بمسح المكان باستخدام البلنشيطة بدقة ، دون حاجة الى عمل ميزانية شبكية أو شبكة مثلثات مساحية دقيقة •

والتل الفلسطينى — وكلمة تل التى يستخدمها العرب كلمة سامية بالغة القدم — يبدو عادة كمخروط ناقص قليل الارتفاع ، ذى قمة مسطحة وجوانب منحدرة • وهذا الشكل الخاص ، الذى يتميز به التل أو الهويوك أو التيب فى الشرق الادنى والشرق الاوسط ، يتكون نتيجة لمراحل العمران المتوالية به فى الازمان الغابرة • ففى احد الاوقات فى الماضى ، سكن بعض الناس فوق قمة تل بالقرب من نبع ماء أو أى مصدر آخر للمياه العذبة • وربما كان التل مهيأ بطبيعته لسهولة الدفاع عنه ، كما يرجح انه كانت له قمة منبسطة السطح مما تجعله ملائما للسكنى • واقيم حوله نوع من الاسوار الدفاعية من الحجارة او اللبن • وبمرور الوقت ، بعد فترة ربما تتراوح بين سنوات قليلة وعدة قرون تتهدم المدينة أو الحصن ، ويظل التل غير مسكون لمدة لا يمكن التكهن بها • وفى المدة التى بقى خلالها مهجورا ، جرفت مياه الامطار — المحملة بها الرياح الغربية السائدة — انقاض جدران المنازل وسقوفها عن الموقع ، حتى حجزتها اساسات الاسوار الخارجية التى بقيت قائمة تحت انقاض اجزائها العلوية التى تهدمت • ثم حدث بعد ذلك ان جذبت المزايا الطبيعية للموقع سكانا جددا بعد فترة طويلة من النسيان • وبينما انطوت القرون ، سكن التل مرات متعاقبة ، وتتميز كل مرة يسكن فيها التل بطبقة خاصة ، مثل طبقات الفطيرة

وفى كل مرة يسكن فيها التل من جديد ، كانت تنقص على الارجح المساحة المتاحة للبناء (ولو ان العكس حدث احيانا) مما ادى الى ان يأخذ الموقع تدريجيا الشكل المميز للتل • وقد تصل أنقاض التل الى ارتفاع (أو عمق) كبير ، فقد بلغ ٢١ر٥ مترا فى بيسان[1] وحوالى هذا القدر فى مجدو ، ويبدو ان عمق الانقاض فى اريحا كان حوالى عشرين مترا ، وفى تل الحسا ذكر أن عمق الانقاض بلغ ستين قدما (١٨ر٣ مترا) غير انه من المؤكد ان عمقه كان اقل من ذلك فى وسط الموقع • ومثل هذه الاعماق لاتقارن بأعماق بعض مواقع مابين الرافدين ، مثل سوسه، اذ ان استمرار السكنى بهامددا اطول بكثير ، ودوام استخدام الطوب اللبن المجفف فى الشمس ، جعل سمك كل طبقة بها اكبر فى المتوسط • وقد يتراوح عدد الطبقات فى التل بين طبقة أو طبقتين واثنتى عشرة طبقة فى الحالات القصوى • وعلاوة على ذلك ، فان طبقات كثيرة قد تحتوى على عدة اطوار ظاهرة • وقد يحتوى كل طور منها على اعداد متفاوتة من مستويات لارضيات المبانى المختلفة • ولعلنا نذكر القارىء بان التلال الفلسطينية تختلف فى بعض الوجوه عن تلال ما بين الرافدين بالرغم من ان اسمها نفسه مستمد من الكلمة البابلية « تيللو » ومعناها « كوم انقاض » ، فتلال بلاد ما بين الرافدين هى فى العادة تكومات غير طبيعية ، اذ اقيمت المساكن الاصلية بها على الارض السهلة، لا على تل كما هو الحال بالنسبة للتلال الفلسطينية • .

ومعظم التلال صغيرة، وهى تشبه فى شكلها مواقع حصون أكثر مما تشبه مواقع مدن ، فمساحة « مدينة » تل الحسى (عجلون) ذات الاسوار كانت أقل من هكتار (٢ر٥ فدان) ، ومساحة تل بيت مرسيم — ولعله من فئة تلال المدن القديمة التى تزيد مساحتها عن المتوسط — كانت حوالى ثلاثة هكتارات (٧ر٥ فدان) داخل الاسوار •

ومجدو التى تؤخذ عادة كنموذج أساسى للمقارنة ، كانت مساحتها داخل الاسوار أكثر قليلا من خمسة هكتارات (حوالى ١٣ فدانا) ولو أنها كانت أكبر من ذلك فى العصر البرونزى • ومن جهة أخرى بلغت مساحة جازر حوالى تسعة هكتارات ، بينما بلغت مساحة المدينة العظيمة

---

(١) بيسان هى الاسم العربى لبيت شان ، وسيستعمل اللفظان للدلالة على هذا الموقع (المعربان) .

حاصور فى العصر البرونزى الاوسط حوالى أربعين هكتارا داخل أسوار من الارض المدكوكة • ومدينة تل العجول التى ترجع الى العصر البرونزى الاوسط ، بلغت مساحتها حوالى ١٢ هكتارا •

ويجب أن تحفر التلال بمعرفة العمال اليدويين ، اذ أن استخدام أى آلات ميكانيكية مثل البلدوزر أو الجاروف البخارى سيتلف الشواهد الاثرية • ويمكن التنقيب فى المواقع الصغيرة باقتصاد أكبر فى النفقات اذا لم تستخدم الوسائل الميكانيكية اطلاقا ، أما المواقع الكبيرة المساحة، فتحتاج الى قضبان سكك حديدية وطرق منحدرة لنقل الاتربة • ويوجد عدد كاف من العمال الوطنيين فى فلسطين وأجورهم تكون عادة زهيدة بالنسبة لاجور العمال فى أوروبا وخاصة فى أمريكا ، فالفلاحون الوطنيون فقراء ويسرون جدا بأن تسنح لهم فرصة للحصول على أجور طيبة فى الفصول غير الزراعية • ومن الاهمية بمكان أن يكون رئيس العمال من الوطنيين الممتازين ، فلسطينى أو مصرى ، اذ أن رؤساء العمال المصريين من قفط الذين تدربوا مع الدكتور ريزنر Reisner عن طريق مباشر أو غير مباشر ، هم أحسن مجموعة من العمال • وليس هناك أهم من الامانة المطلقة والعدل (الذى يصحبه الكرم) فى معاملة العمال العرب ، الذين يستجيبون بسرعة للسياسة الحازمة المشفوعة بالعطف أكثر مما يستجيب لها عمال كثير من أجزاء العالم الاخرى • وقد وجد أنه من الحكمة مكافأة العمال بانتظام عند عثورهم على قطع أثرية ، أو لمحافظتهم على الفخار ، ومعاقبتهم كلما كسروا القوانين أو أهملوا فى استخراج الفخار أثناء التنقيب • وعندما يحاول العامل أن يبالغ فى طلب مكافأة نظير عثوره على شىء أثناء الحفر ، أو أن يحصل على بقشيش عن أشياء وجدت فى مكان آخر ، فانه يبدو أن الفصل فورا من العمل هو أحسن طريقة بالنسبة الى البالغين ، بينما يكتفى بالنسبة للاطفال بالانذار أو بفرض غرامة صغيرة •

وعندما تتم ازالة الطبقة العلوية من التل ، تظهر بعض الجدران والحجرات ، ويجب أن ترفع هندسيا الجدران والمنشآت الدائمة وتصور بدقة وعناية • وترقم الحجرات بأرقام مسلسلة بالاشارة الى شبكة الابعاد الاحداثية التى تتكون من مربعات أو مستطيلات مساحتها ١٠ أو

٢٠ أو ٢٥ مترا مربعا • وكل شيء يعثر عليه في حجرة معينة يسجل بنفس الطريقة • ويحدث عادة أن ترد قطع الشقفيوميا في مقاطف كاملة، قد يصل عددها أحيانا الى خمسين أو مائة مقطف في يوم واحد، فيجب أن يبين على كل منها مكان العثور على محتوياته وكذلك منسوبها بالطبقة اذا أريد ذلك • ثم يفرز هذا الشقف ، وحيثما كان ممكنا ، ترمم بعض القطع الى أواني كاملة أو غير كاملة • ولما كان الفخار هو الاساس الذي يبنى عليه التسلسل التاريخي للتل ، فانه من الاهمية بمكان تسجيله تسجيلا دقيقا وترميمه ، ووصفه مع الاستعانة برسومات وصور جانبية له • وعندما تظهر قطع صغيرة ذات قيمة ، يؤتى بالمناخل ، وتنخل بهـا كل الاتربة التي في الحجرة • وفي بعض الاحيان تتطلب حالة قطع العاج المكسورة أو أشياء رقيقة أخرى ، استعمال شمع البارافين أو جبس باريسى لصيانتها • واذا كانت الحفائر في فلسطين لا تجود بقطع متحفية كثيرة ، فانها تمتاز بأنها ليست على نسق واحد ، اذ أنها بعيدة عن أن تكون لها صفة التماثل التي تتميز بها الحفائر العادية في كل من مصر وبلاد بابل • وكان المرحوم كلارنس ستانلى فيشر ، الذي قام بالتنقيب في الثلاثة أقطار ، يبدى دائمـا تفضيله للتنقيب في فلسطين بعبارات لايشوبها الشك ، مثل قوله: قد يجد المنقب يوما أنواعا جديدة من الفخار الفلسطيني ذات قيمة خاصة في التاريخ ، وفي يوم آخر قد يجد تمائم أو جعـلان مصرية أو لوح منقـوش بنقـوش هيروغليفيـة ، وفي اليوم التالى قد يجود التل بختم اسطواني أو لويحة بالخط المسمارى • وبدلا من أن يعثر المنقب على جدران من اللبن أو الحجر ، فانه من المحتمل جدا أن يعثر عليهما معا في فلسطين ، وما أن يناله الملل من ترسـم الاساسات الحجرية ، وهي عملية بسيطة نسبيا ، حتى يجد نفسه قـد وصل الى طبقة من اللبن ، حيث يكاد لا يفي كل صبره ومهارته في تخليص اللبنات الثمينة المجففة في الشمس من أن تطرح خارجا مع الانقاض التي كانت مطمورة بها • ويوجد أكثر من مثـال لقيـام المنقب بازالة ماظن أنه غرفة صـغيرة ، ثم تبين له أنه انمـا قد أزال الجدار ، تاركا كتلا مستطيلة من قوالب اللبن التي سقطت في الفراغ الذي كانت تشغله الغرف من قبل ، بل هناك أيضا مثال آخر حيث قام عالم آثار مرموق من المدرسة القديمة ، باجراء حفـائر وجد فيها ألواحا منقوشة

وقطعا متحفية ، ومع ذلك فقد كان في احدى المناسبات يزور ساحة عمل منقب آخر من المدرسة الحديثة، كان قد أزال ما حول الجـدران اللبن وتركها قائمة ، وما أن تفرس فيها هذا العالم الاثرى المرموق حتى هتف باندهاش « يا الهى ! عندك جدران ! » •

وأخيرا ينتهى الاثرى من عملية ازالة كل طبقة معينة ، أو جزء منها ، ثم يصدر وهو آسف ، أمرا بازالة الجـدران • وأثناء ازالة الجدران ، تظهر عادة بعض ترميمات ، ويعثـر على أشـياء داخل الجدران وتحت الارضيات • ولذلك فان أهمية عملية الهدم هذه فى معرفة التسلسل التاريخى للتل ، ليست بأقل من المرحلة السابقة التى أزيلت فيها الاتربة من بين الجدران • وعندما تتم هذه العملية ، توقع على المنسوب الجديد شبكة أبعاد احداثية مع الاستعانة بالنقط والخطوط الثابتة التى سبق تعيينها ، وتتكرر عملية ازالة طبقة أخرى • وقد تتكرر دورة حفر الطبقات وتسجيلها كثيرا حتى أن الحفار نفسه ليتسـاءل متعجبا أين سيتوقف ومتى • وفى بعض الاحيان يستمر التنقيب الى أسفل حتى يصل الى رواسب أقدم من أى بقايا استراتيجرافية سبق تسجيلها ، وهذا ما حدث بالفعل للمؤلف أثناء الموسم الثالث للحفائر فى تل بيت مرسيم عام ١٩٣٠ ، وحدث نفس الشىء فيما بعد لفيتز جرالد Fitz Gerald فى بيسان سنة ١٩٣٣ ، ولجارستانج فى أريحا سنة ١٩٣٥ • ومثل هذا الحدث لا يقدره ولا تهتز مشاعره له الا من كانت له خبرة به •

وفى السـنوات ١٩٥٢ — ١٩٥٨ طبقـت مس كاثليـن كينيون Miss Kathleen Kenyon طريقة الحفر بعمل أخاديد (وهى الطريقة التى ابتـكرها السيرمورتيمر هويلر Sir Mortimer Wheeler) وذلك فى حفائرها بأريحا ، وحصلت على نتائج باهرة جدا ، حتى أن هذه الطريقة أخذت تحل بسرعة محـل طريقـة ريزنر — فيشر Reisner-Fisher التى وصفناها فى هذا الباب • وفى الواقع ، أضيفت بعض التحسـينات على طريقة ريزنر — فيشر ، ولم تسـتبدل بغيرها ، غير أن تحسـينات هويلر — كينيون سيستمر اتباعها وهى تتضمن فى جوهرها اسـتخدام أخاديد الجس لتعيين ترتيب الطبقات بدقة قبل حفر أى منطقة ، ثم

يعقب ذلك حفر أخاديد جس اضافية متعامدة مع الجدران عند ظهورها وتسوى جوانب هذه الاخاديد (التى يبلغ عمقها أقل من متر عادة) • بمسطرين ، وتسجل كل علامات الارضيات ، ومناسيب الرماد ، والرواسب الترابية ، والحشرات ، الخ • وقد أصبح من الضرورى استخدام هذه الطريقة فى المواقع الاثرية التى تتكون من مبانى اللبن •

وبعد ما تنتهى الحفائر وتتم القسمة ، تبدأ عملية شاقة أخرى هى اعداد المادة العلمية للنشر ، ويجب أن يهتم المنقب بأن تكون كل الاشياء قد رسمت أو صورت تصويرا جيدا ، وأن تكون هذه الاشياء قد درست دراسة دقيقة لاستنباط أكبر قدر ممكن من المعلومات منها ، بالاستعانة ، اذا لزم الامر ، بالكيميائيين والجيولوجيين والخبراء فى الاخشاب الخ ••

ويجب أن تنسخ رسومات المساقط ، وأن تجمع الصور والرسومات ويختار أصلحها، كما يجب أن تعد النصوص النهائية للنشر • ومن المؤسف حقا أن كثيرا من علماء الاثار ومنهم المؤلف قد أذنبوا بتسويفهم الخطير للنشر • والواقع أنه تحت ضغط المشغوليات اليومية ، والواجبات الوظيفية ، يصعب على المنقب غالبا ، أن يجد متسعا من الوقت لعمل الجداول المفصلة والفهارس ، التى تكوّن جزءا كبيرا من أى تقرير لبعثات الحفر • ومع ذلك ، فان هذا الامر فى غاية الاهمية ، اذ بدونه تكون نتائج التنقيب عديمة الفائدة للباحثين ، وتقل كثيرا مساهمة المنقب فى تقدم علم الاثار • وبالرغم من العجلة التى نشر بها السير فليندرز بترى نتائجه ، وافتقار تقاريره مرارا الى الدقة ، فان نشاطه فى النشر كان دائما ذا نفع عظيم ، وكما يقول المثل اللاتينى *Bis dat qui cito dat* أى « من يعطى سريعا فقد ضاعف العطاء » •

تذييـــــل

نشر أول تقرير عن نجاح استخدام طريقة التأريخ بالكربون المشع فى الاغراض الاثرية ، بعد المراجعة النهائية لبروفات الطبعة الاولى لهذا الكتاب بالانجليزية سنة ١٩٤٩ • وقد أضاف المؤلف تذييلا عنها عند اعادة طبعه سنة ١٩٥١ ثم نقحه فيما بعد وهو كالآتى :

اعتمدت الطريقة الاصلية التى ابتكرها الاستاذ ليبى W.F. Libby على تقدير القوة الاشعاعية للكربون الصلب المستخلص من العينات غير أن هذه الطريقة قد استبدلت الى حد كبير بتقدير القوة الاشعاعية للعينات بعـد تحويلها الى غازات وخصـوصا غاز لاسـتلين التى أبتـكرها سوس • ومنذ سنة ١٩٥٨ استخدمت طريقة « تركيز » العينات التى ابتكرها دى فريز H. de Vries وزملاؤه • وفترة نصـف عمـر الكربـون المشع (وهو نظير الكربون ذو الوزن الذرى ١٤) قدرت بحوالى ٥٦٠٠ سنة * ، ويبدو أن سرعة انحلاله ثابتة الى حد كبير جدا • ولو أنه توجد بلا شك عوامل لعدم التأكد من النتائج — وترجع معظم هذه العوامل الى الاخطاء العملية ، كما قـد ترجع أيضا الى أسباب كيمائية — فانه من جهة اخرى يمكن تقليل التشكك فى النتائج الى حد كبير باطالة مدة عد الاشعاعات الصادرة من العينة • وقد أمكن تدريجيا اطالة مدة صلاحية تطبيق هذه الطريقة من ١٥٠٠٠ — ٢٠٠٠٠ سنة الى ما يزيد عن ٧٠٠٠٠ سـنة • وقد ابتكرت طرق جديدة أخرى لتقدير العمر ، مثل طريقة تحول البوتاسـيوم الى أرجون ، والعلاقة بين نسب نظـائر الاكسجين لتأريخ عينات النويات من قيعان البحار القديمة ، وهذه الطرق توسع بانتظام معلوماتنا عن صورة التسلسل التاريخى وتوضحها •

---

* دلت البحوث الاخيرة على ان فترة نصف العمر لنظير الكربون ١٤ هو ٥٧٣٠ سـنة (المعربان) .

الفصل الثانى

تاريخ الكشف عن فلسطين القديمة

لفلسطين مركز فريد بين الاراضى ذات القيمة الاثرية ، فهى بلد الديانة (١) اليهودية والارض المقدسة المسيحية وثانى الاقطـــار المقدسة عند المسلمين •

ولم تكن فلسطين مهد الديانتين اليهـــودية والمسيحية فحسب ، بل أصبحت أيضا ، بتأثير ما ورد عنها فى الكتب السماوية المركز الجغرافى الاساسى للاسلام

فالمتدينون من المسيحيين واليهود ، يسرهم القاء ضوء على شخصيات الكتاب المقدس والاماكن التى ذكرت به ، والمؤرخون يرحبون بمعلومات جديدة عن الاصل الذى بزغ منه الكتاب المقدس •

ويلجأ مؤرخو الحضارة الغربية الى فلسطين لاحراز معلومات عن جذورها الاصــلية ، وعلماء الاجنــاس البشرية (الانثروبولوجيـــا) وعلماء الاثار يتجهون اليها لاهميتها كمركز اتصال جغرافى بين القارات والمناطق الحضارية •

والحديث الدينى والسياسى ، والثقافى ، الذى نسميه « بالحروب الصليبية » ترك فى أوربا اهتماما متزايدا بالارض المقدسة • وما أن انتهت هذه الحروب حتى بدأ سيل الحجاج اليها من جديد ، اذ أن الحج كان مصدرا طيبا جدا للدخل الإسلامى يجب الابقاء عليه ، وزاد الاقبال عليه حتى عصرنا الحالى • ومعظم روايات الحجاج عنها فى تلك العصور ظلت تحمل طابع العصور الوسطى ، غير أن روح البحث والاستقصاء

---

(١) أنظر هامش ص ٢١٩ تعليق المعربين •

ظهــرت فى وصف الراهــب الســويسرى فيليكس شميد (فابرى) لرحلته الى فلسطين فى عام ١٤٨٠ و عام ١٤٨٣ ، ولو أن هذا الوصف لم ينشر الا بعد ذلك بحوالى ٧٥ سنة ٠

ثم بدت نسمات جو جديد على صفحات ما كتبه الطبيب الالمانى ليونارد راخولــف (راولــف) الذى زودتنــا زيارته لفلســـطين سنة ١٥٧٥ بأول استقصاء منسق فى التاريخ الطبيعى ، وخصوصا النبات ٠

وبدأ بالفعل ظهور الاهتمام بعلوم العمارة والاثار فى رسومات العالم البلجيكى جوهان زوالارت عام ١٥٨٦ ، وفى الوصف الدقيق الذى كتبه العالم الالمانى جوهان فان كوتفيك (كوتوفيكوس) فى السنوات الاخيرة من القرن السادس عشر ٠

وفى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، نما بانتظام الاهتمام بدراسة فلسطين ، تغذيه بين آونة وأخرى مؤلفات هامة ٠ فظهر فى سنة ١٦٣٩ الوصف المدروس للخوارزمى للاماكن المقدسة ٠ وهو يعتمد على دراسة مستفيضة دقيقة ، ولو أنها غير تحليلية ، لهذه الاماكن ٠ وفى سنة ١٦٥٠ ظهر الوصف الطيب لاسفار الرحالة الايطالى بيتـــرو ديللا فال الذى حـــوى بيـــانات أثرية روائية أكثـــر من أى بحـــث سابق ٠ وفى سنة ١٦٧٩ نشر الاب اليسوعى الفرنسى ، ميشيل نـــو تقريرا قيما ، ولو أنه لا يعتمد على دراسة تحليلية ، عن اختباراته فى فلســـطين ٠ وفى ســـنة ١٧٠٣ كتب القس البروتســـتانتى الانجليزى هنرى موندرل تقـــريرا بديعا عن أســـفاره يحتوى على معلـــومات أثرية جديدة ٠ أما وصف المطران بوكوك فى سنة ١٧٣٨ عن رحلته ، فقد كان بدوره أكثر اهمية مما سبق نشره ، اذ انه فى معظم أجزائه، قد ترك الاسلوب الدارج فى الكتابة وقتئذاك، وزود وصفه بمساقط أفقية ورأسية ، ورسومات ونسخ من النقـــوش ٠ وليس ثمة شك أن كتـــاب ادريان ريــــلاند Adrian Reland الهـــولندى وعنـــوانه « فلســـطين موضـــحة بآثارها القـــديمة » قـــد أحدث ثـــورة فى دراسة فلسطين القديمة ، اذ أن ريلاند كان أول من جمع كل المعلومات الصحيحة من المصادر القديمة التى كانت لم تزل باقية ، وكذلك من

المصادر الحديثة بعد تفهمها ودراستها دراسة تحليلية ، غير أن عمله هذا لم ينل التقدير الكامل الذى كان يستحقه — ولم يلتفت اليه كثيرا — الا فى القرن التاسع عشر •

ولما كثر توافد السياح وكثرت التقارير عن رحلاتهم • فانه كان من الطبيعى أن تقل نسبة المعلومات الجديدة ذات الاهمية بالقياس الى التقارير السابقة ، لكن ما أن حل الربع الاول من القرن التاسع عشر حتى رحل الى فلسطين عـــدد من المســتكشفين نذكر منهم على الاخص المستكشف الألمانى أولريتش جاسبر سيتزن (١٨٠٥—١٨٠٧) والمستكشف السويسرى جوان لودفيج بوركهارت Burkhardt (١٨٠١—١٨١٢) والمسكشفين الانجليزيين ايربى C.L. Irby ومانجلس J. Mangles (١٨١٧—١٨١٨)• وكان سيتزن أول من جاب منطقة شرق الاردن بطريقة علمية وكشف فيها عن قيصرية فيليب وخصوصا عمان وجرش •وكشف بوركهات عن بترا ، وكان أول من دون الاسماء العربية للاماكن تدوينا صحيحا فى كل فلسطين، وقد بلغ حماسه للـــكشف عن العربية مبلغا عظيما ، حتى أنه صار مسلما ، وتسمى فى أسفاره بالشيخ ابراهيم ، وبذلك أمكنه أن يزور بعض مواقع مثل مقبرة هارون ، وأن ينقل نصوصا ويرسم مقاطع هندسية فى أمان نسبى ، ودفن هذا العالم الكبير فى جبانة المسلمين بالقاهرة • أما ايربى ومانجلس فقد اكتشفا عرق الامير ، وقـــدما معلومـــات أثرية قيمة • وكثير مما كشف عنه علماء آخرون نشره عام ١٨٢١ رحالة محب الى حد كبير للشهرة، هو جون سيلك بكينجهام John Sillk Buckingham لكنه يستحق التقدير لنشره أول مساقط هندسية للخرائب الهامة فى جرش وفى أماكن أخرى •

وشاهد عام ١٨٣٨ تغييرا ثوريا كاملا فى ارتياد سطح فلسطين ، ففى ذلك العام ، قضى العـــالم الـــلاهوتى الامـــريكى ، ادورد روبنصون Robinson حوالى ثلاثة شهور فى الارض المقدسة ، قاطعـــا اياهـــا عدة مـــرات فى اتجاهات مختلفة مع تلميذه وصديقـــه سميث Smith • وكان روبنصـــون قد درس اللغـــات الســـامية فى المانيا على يد جسينيوس Gesinius وروديجر Rödiger، ودرس الجغرافيا على يد العالم الالمعى ريتر Ritter ، كما كان سميث يتقن العربية كأهلها، اذ

قضى سنوات بين العرب كأرسالى فى بيروت • وقد ترك الرفيقان طرق العمل الاثرى الدارجة وقاما بتسجيل الاسماء ، والتواريخ ، ومواقعها الجغرافية كما تحددها البوصلة ، وغير ذلك ، فتعرفا أثناء جوبهما للبلاد على عشرات من الاماكن المذكورة فى الكتاب المقدس لاول مرة • ففى ٤ مايو مثلا ، اكتشف روبنصون عدة مدن قديمة لها تقريبا نفس الاسم العربى على مسيرة ساعات قليلة ركوبا شمال شرق وشمال مدينة القدس نفسها • وفى ١٠ مايو تعرف تعرفا صحيحا على ثمان مدن على الاقل فى جنوب اليهودية ، واستمر الحال على هذا المنوال فى كل فلسطين • والمنافس الرئيسى لروبنصون تيطس روبلر Titus Toblet السويسرى،الذى بدأ أبحاثه الطوبوغرافية القيمة فى فلسطين قبل روبنصون وسميث بثلاث سنوات ، كتب عنها فى ١٨٦٧ فيقول « لقد بذت بيانات روبنصون وسميث بمفردها ، مجموع كل البيانات التى سبقتها عن جغرافية فلسطين ، ابتداء من يوسيبيوس Eusebcius وجيروم حتى أوائل القرن التاسع عشر » • وبعد قرن ، فى الاحتفال بالذكرى المئوية لرحلة روبينصون الاولى ، صرح العالمان الكبيران الاب آبل Abel وألبرخت آلت Albrecht Alt بنفس الرأى •

ولما لم يكن روبينصون مهندسا أثريا أو مختصا فى النقوش القديمة ، فان اضافاته لعلم الاثار ، بمفهومه الضيق ، كانت أقل أهمية بكثير من اضافاته لعلم الجغرافية ، ومع ذلك فانه فى هذا الحقل أيضا ، قام باكتشافات هامة ، مثل تحديد موقع السور الثالث لاورشليم أو سور أغريباس ، وقد أيدت الحفائر الحديثة هذا التحديد •

وبالرغم من ازدياد الاهتمام بالاستكشاف والنشر فى الجيل الذى أعقب رحلة روبينصون الاولى لفلسطين ، فانه لم يكن من بين ما تم كشفه ما له قيمة حقيقية الا القليل، حتى تلك الكشوف التى قام بها بعض الرواد الذين لم يعرفوا الكلل مثل فيكتور جيرين Victor Guérin • ويظهر أن العمل الذى قام به الرائد الاول العظيم قد بلغ درجة كبيرة من الكمال حتى أنه لم يترك شيئا لخلفائه لكى يؤدوه الا ما ندر •

وفى ١٨٥٠—١٨٥١ و١٨٦٣ جاب دى سولسى F. de Saulcy أماكن متعددة وقام بالتنقيب فيها ، ولكن حيث أن المشروع كان أكبر من معرفته ، وغروره كان أكبر من كليهما ، فان عمله لم يتمخض الا عن

العثور على قليل من القطع الاثرية الهامة (التى توجد حاليا فى متحف اللوفر) وتنظيف المقابر المعروفة بمقابر الملوك بالقرب من القدس • وفى ذلك الوقت ، لم يكن يعرف عن تاريخ الزخارف والنقوش المنحوتة فى العمارة الا القليل حتى أنه أرخ الضريح ومحتوياته بنهاية عهد مملكة يهوذا ، فى حين أنه يرجع الى العشرين سنة الاخيرة السابقة لانتهاء بناء المعبد الثانى — أى قبل تاريخه الصحيح بحوالى ٦٥٠ سنة • ومع ذلك فان دى سولسى سيظل دائما معتبرا أول من قام بالحفر فى العصر الحديث فى موقع فلسطينى •

وفى ١٨٦٥ تأسست هيئة صندوق تمويل التنقيب عن آثار فلسطين The Palestine Exploraton Fund • وبعد ذلك بسنتين بعثت الهيئة شارلز وارن Charles Warren ، وهو ضابط مدفعية بريطانى صغير ، مزودا باعتمادات واسعة للحفر فى القدس ، وقد ثبت أن العمل كان أكبر بكثير مما تصوره أى شخص ، كما أن عدم وجود معايير يوثق بها لتاريخ المبانى والفخار جعل النتائج غير مرضية من وجهة النظر التاريخية • فقد أرخ وارن المبانى الهيرودسية للجدار الساند لسور المعبد خطأ بعصر سليمان بدلا من عصر هيرودس الاكبر • ومن جهة أخرى اعتبر حصن المكابيين فى تل الفول (جبعة) من عمل الصليبيين • وكان وارن — مثل روبينصون وجيرين — ميالا لاعتبار التلال الاثرية الحقيقية ، تكوينات طبيعية بحتة • ومع ذلك فقد أجرى وارن كمية كبيرة من التنقيبات القيمة ، كما أنه وضع أسس كل الاعمال اللاحقة عن طوبوغرافية أورشليم وتاريخها بمعاونة ادارة المساحة التفصيلية التى أتم تنظيمها بعده بوقت قصير الكابتن شارلز ويلسون •

وبينما كانت هيئة صندوق تمويل التنقيب عن آثار فلسطين تقوم بتنظيم هذه العمليات الدقيقة ، قام رجل فرنسى فى مقتبل العمر ، هو شارل كليرمونت — جانو Charles Clermont - Ganneau باستكشافات عديدة لامعة ، بالاضافة الى عدد كبير جدا من الكشوفات الصغيرة ، على حسابه الخاص • ويدل عمله العظيم هذا ، مثله فى ذلك مثل روبينصون ، على أنه قد يقدم شخص نابه واحد قدرا كبيرا من العلم والمعرفة فى حقل معين يفوق جيلا كاملا من الباحثين القليلى الشأن ، أو أكثر من خزانة مملوءة بالمال للصرف منها على عدة مشروعات باهظة التكاليف • فقد جاء كليرمونت — جانو الى القنصلية الفرنسية

فى فلسطين وهو فى الحادية والعشرين من عمره ، ولم تكد تمضى ثلاث سنوات حتى اكتشف حجر ميشع المشهور ، وأرسله الى متحف اللوفر سنة ١٨٧٠ • وفى السنة التالية ، اكتشف النقش المشهور الذى يمنع الاميين من الدخول الى فناء المعبد • ويطول بنا المقام جدا اذا ما أوردنا هنا بيانا كاملا بمكتشفاته ومشاهداته• وليس لدينا فى هذا الكتاب متسع لوصف عرضه البديع ، عن الآثار المؤابية المزيفة بدرجة بالغة الاتقان حتى أنها خدعت بعضا من كبار الاخصائيين من العلماء الأوربيين •

وفى تلك الاثناء لم تكن هيئة صندوق تمويل التنقيب عن آثار فلسطين دون عمل ، اذ عينت بعثة انجليزية من ١٨٧٢ الى ١٨٧٨ للعمل فى الحقل الاثرى ، لعمل خرائط مساحية دقيقة لغرب فلسطين ، تحت القيادة البارعة لكوندر C.R. Conder وكيتشنر H. H. Kitchener (لورد كيتشنر فيما بعد) • وبالرغم من أن الخرائط التى أعدتها الحكومة الفلسطينية قد حلت محل الخرائط التى أعدتها هذه البعثة ، الا أنها لا تزال ضرورية بالنسبة للاثرى والطوبوغرافى • ومن الغريب أن مهندسى البعثة المساحيين لم يتنبهوا الى بعض الخرائب القليلة الاهمية • وبدون شك فانه ثبت خطأ كثير من التعرفات التى ظن كوندر على الاخص ، أنه بها قد حسم نهائيا طوبوغرافية فلسطين الكتابية (كما جاءت فى التوراة) ، غير أن الاخطاء والحذوفات قليلة جدا ، اذا ما قيست بسعة دائرة العمل وسرعته •

وفى سنة ١٨٧٠ تأسست الجمعية الامريكية للتنقيب بفلسطين ، على نمط المنظمة البريطانية• وبعد بعض المفاوضات ، تقرر أن تتولى الجمعية الامريكية مسح منطقة شرق الاردن ، حتى تستكمل التخطيط المساحى الذى أجرته البعثة البريطانية • وفعلا أرسلت بعثتان لمسح الاراضى الفلسطينية ، غير أنهما قابلتا مصاعب كثيرة جدا وكابدتا تلك المشكلة المزمنة ، مشكلة قلة الاعتمادات ، حتى أنه عدل نهائيا عن الاستمرار فى المشروع ، ولم يترك وراءه الا القليل جدا ليدل عليه • وقام سلاه ميريل Selah Merrill بالاضطلاع بعدة بعثات تحت نفس الرعاية ، لدراسة آثار شرق الاردن ، لكنه لم يكن روبينصون ، ولا

كليرمونت ـــ جانو ، كما أن نتـــائج عمله كانت قليلة الاهميـــة • وفى سنة ١٨٨٤ بدأ شوماخر G. Schumacher مسح حوران وشمال شرق الاردن جغرافيا وأثريا، وقد استمر عمله هذا سنوات عديدة وحصل على نتائج عظيمة • وكان شوماخر عضوا فى جمعية المعبـــد Tempelgesellscaft وكان يعـــرف البلاد منـــذ طفولته • وعرف كيـــف يتعامل مع مواطنى فلسطين العرب والموظفين الاتراك ، ولذلك كان أسهل عليه كثيرا أن يحصل على نتائج تستحق التقدير ، عن أى فريق من الخارج •

وكل هذه البعثات ، بما فيها حفائر جوثى Guthe (سنة ١٨٨١) ومودسلى Maudsley (١٨٨٤) فى القدس ، كانت تفتقر الى شواهد لتأريخ كشوفاتها ، فيما عدا بعض الكتابات القليلة جدا ، فلم يكن هناك معيار حقيقى لتأريخ المبانى ، كما كانت الكتابات عرضة لاختلافات ف الرأى ، حتى أنه ليبدو أنه لا يمكن تصديق أى تأريخ تم تحديده فى ذلك الحين • والى أن وجد علم الاستراتيجرافية ـــ أى حفر الارض طبقة طبقة ـــ لم يكن هناك أمل فى علم آثار ذى أسس علمية • بل أن كشوفات شليمان Schliemann نفسها فى طروادة ابتداء من سنة ١٨٧٠ فشلت فى أن تنبه علماء الاثار الفلسطينية لفحص تلالهم ، ولم تنجح حفائر طروادة الا فى شىء واحد هو أن شليمان ودورفلد Dörpfeld قد أدركا فعلا أن التل يمثل تراكم طبقات متتابعة من العمران ، غير أنهما لم يفطنا الى امكان استخدام الفخار كوسيلة للتأريخ • بل وثمة شك فى أن أى رجل كان يعمل فى فلسطين فى ذلك الوقت قد علم عن الاكتشافات التى تمت فى طروادة فى ذلك الوقت أكثر من بعض ما كانت تتناقله الالسن من الاقوال الغير واضحة • ولذلك كان على فلسطين أن تنتظر رجلا عبقريا ثالثا من نفس مستوى روبينصون وكليرمونت ـــ جانو •

وفى سنة ١٨٩٠ ظهر العبقرى الذى كان العمل الاثرى يفتقر اليه ، على مسرح فلسطين فى شخص فليندوز بترى Flinders Petrie وهو رجل انجليزى لامع ، كان يبلغ من العمر حينئذاك ٣٧ عاما • وبالرغم من صغر سنه نسبيا، فقد كان قد أمضى عشر سنوات فى العمل الاثرى فى مصر، حيث بدأ فى استحداث نظام منسق فى تسجيل كل مكتشفاته مهما كانت صغيرة، كما استحدث أيضا استخدام الفخار فى أغراض التاريخ •

وبعد ذلك بعشر سنوات ، اكتشف بترى المبادىء الاساسية لنظام التأريخ التتابعى Sequence Dating الذى بفضله يمكن مد التسلسل التاريخى النسبى الى عصور لا توجد منها بقايا فى صورة طبقات تسمح بتأريخها مباشرة عن طريق المقارنة • وقد عمل بترى لمدة ستة أسابيع فى تل الحسا فى جنوب غرب فلسطين فحفر مقاطع رأسية ، وسجل المنسوب الصحيح الذى وجدت به كل شقفة ذات خصائص معينة • وبناء على ذلك تمكن من أن يقرر بصفة ايجابية ، أن كل عصر كان يتميز بنوع خاص من الفخار يمكن للعين المتدربة أن تفرق بينه وبين فخار مقابل له فى عصر متقدم أو عصر متأخر عنه • وقد نجح بترى على الاخص فى اعطاء تواريخ مطلقة تقريبية لعدة عصور من عصوره الفخارية ، بالتعرف على أنواع معينة من الاوانى الفخارية تماثل ما وجد فعلا فى دفنات مصرية تاريخها معروف • ومع أن كوندر Conder وآخرين هزأوا بهذا المقياس الجديد للتأريخ بالفخار الا أن بليس F. J. Bliss ، الباحث الامريكى الذى عمل مع بترى لمدة ثلاث سنوات فى تل الحسا ، أثبت أن بترى كان على حق تماما • وقد تمكن بترى بواسطة الجعلان والنقوش ، من تأريخ الطبقات تأريخا قريبا جدا من الصحة • وفى الواقع فان التتابع التاريخى الذى أصدره بترى وبليس Petrie - Bliss فى سنة ١٨٩٤ يتفق مع التواريخ الصحيحة — فى حدود القرن — الى ١٥٠٠ ق • م • ، أما التواريخ التى أعطوها لما قبل ذلك فكانت أقل من التواريخ الصحيحة بكثير • ولو أن بليس كان قد تنبه الى أهمية أخذ أشكال أكثر أنواع الفخار تمثيلا للطبقة ، فى الاعتبار ، لكان قد وصل الى التتابع التاريخى الصحيح للفخار الفلسطينى بصفة نهائية • غير أن الذى حدث هو أنه لم ينجح فى ايجاد علاقة تربط دراسة بترى التفصيلية للفخار ، بنتائج دراسته الاستراتيجرافية ، وكان البحث الذى نشره مقتضبا جدا ، حتى أن الموضوع لم يتقدم تقدما محسوسا • وقد حملت السنوات العشرون التالية معها بعثات كثيرة وكشوفات هامة عديدة ، غير أن صافى الكسب منها فى تجويد الكشف كان أكبر من الكسب فى التأريخ التتابعى والايضاح التاريخى • وفى الواقع كان التأريخ التتابعى الاثرى لفلسطين أقل وضوحا فى سنة ١٩١٤ مما كان عليه قبل ذلك بعشرين سنة •

وفى تلك السنوات العشرين ، استمرت هيئة صندوق تمويل التنقيب فمن ١٨٩٤ الى ١٨٩٧ عمل بليس ومهندسه المعمارى ديكى A.C. Dickie فى القدس ، وكانا يشتغلان كعــاملين ، وعالجا فى عملهما هذين الجانبين الاثرى والمعمارى بكل عناية • وتلا ذلك بعثتان استمرتا فى العمل وقتا طويلا فيما لا يقل عن أربعة تلال فى السهل الفلسطينى (شفا الله) أى فى التلال المنخفضة بأرض يهوذا • وقد ساعد بليس فى هاتين البعثتين شاب أيرلندى ، هو الاثرى اللامع ماكاليستر R.A.S. Macalister ويمثل الكتاب الذى نشراه عن نتائج حفائرهما عام ١٩٠٢ ، أعلى مستوى فى الدقة والــكفاية وصلت اليه البحوث الاثرية قبل الــكتاب الذى نشر عن حفائر أريحا عام ١٩١٣ ، وحفائر السامره عام ١٩٢٤ • ومع أن هذه الحفائر لم تبح الا بالقليل من المعلومات التاريخية المثيرة الا أنها بينت بوجــه التقريب ، استراتيجرافية التــلال الاربعة ، وأعطت التواريخ الصحيحة لعدد كبير من قطع الفخار • وقد قسم كل الفخار القديم الذى نتج من هذه الحفائر ، الى أربعة أقسام تغطى الفترة الزمنية التى تؤرخ حاليا بما بين ٣٠٠٠ ق • م • الى القرن الاول قبل الميلاد على وجه التقريب • ولايضاح مدى صحة التأريخ التتابعى فى بحث عام ١٩٠٢ ، نورد الجدول الاتى :

العصر	تاريخ بليس — ماكاليستر	التأريخ الحالى
العصر المبكر السامى	؟ — ١٥٠٠ ق٠م٠	٣٠٠٠ —١٨٠٠ ق٠م٠
العصر الوسيط السامى	١٥٠٠ — ٨٠٠ ق٠م٠	١٨٠٠ —١٠٠٠ ق٠م٠
العصر اليهودى	٨٠٠ — ٣٠٠ ق٠م٠	١٠٠٠ — ٥٨٧ ق٠م٠
العصر السلوقى	٣٠٠ — ؟	القرن الرابع — القرن الاول ق٠ م٠

ومعظم الفخار الذى يرجع الى العصور الثلاثة الاخــيرة فى بحث ١٩٠٢ مؤرخ تأريخا صحيحا ، والاخطاء الرئيسية فى هذا التأريخ ترجع الى أن الفخار من القرن الثامن عشر الى القرن الخامس عشر ومن القرن السادس الى القرن الرابع يكاد يكون غير ممثل اطلاقا ضــمن الانواع الموضحة فى اللوحات التى نشراها •

ومن جراء الاحتكاك المتزايد بين رئيسى البعثة ولقلة دخل هيئة صندوق تمويل التنقيب فى فلسطين ، أجـــريت حفـــائر جازر (١٩٠٢ ـــ ١٩٠٩) تحت قيادة ماكاليستر بمفرده • وقد عمل وحده دون معاونة أحد فيما عدا رئيس عماله الكفؤ يوسف كنعـــان • وكانت حفائر جازر نموذجا للاقتصاد ، غير أنها أثبتت أنه من غير الممكن أن يقوم شخص واحد ـــ حتى ولو كان ماكليستر المجد ـــ بكل شىء • فقد أهملت الاستراتيجرافية وكذلك أهمل التصوير الشمسى ، وكان التخطيط المساحى وايجاد المناسيب غاية فى عدم الدقة ، ولم توضح المعالم المعمارية الا برسومات كروكية • وبعد عدة مواسم للحفر ، شعر ماكليستر بنفسه مضطرا لان يغير التأريخ التتابعى بليس ـــ ماكاليستر تغييرا شديدا،بارجاع نهاية (العصر الوسيط). (الذى يعادل العصرين الثالث والرابع الساميين فى تقسيمه) الى ٥٠٠ ق•م ، أى أنه يصبح متأخرا بأكثر من أربعة قرون عن تاريخه الصحيح • وتبعا لذلك أرخ الفخار وبقايا أخرى من عصر ملوك يهوذا المتأخر بما يقابل العصر الفارسى اليونانى • وكان الداعى لهذا التغيير المنكود بسيطا ، فقد حدث أن مرت فترة فى تاريخ جازر دون عمران، وتقع هذه الفترة بين القرن العاشر والقرن الخامس ق•م•، ولكن ماكاليستر لم يفترض الا عمرانا مستمرا، فأراد أن يملأ هذه الفجوة الزمنية بفخار من الطور السابق لهـــا مباشرة • وعنـــدما ظهرت نتائج أبحاثه سنة ١٩١٢ فى ثلاثة مجلدات ضخمة هلل الجميع لها بحق على أنها عمل أثرى عظيم • فكتب المنقب الالمانى فى أريحا أنها « بناء أثرى متكامل كعش النحل » • غير أنه كان لابد من تصحيح تاريخ كل شىء فيها تقريبا ، واعادة شرح مفهومها التاريخى • فعلى سبيل المثال أرخت قطعة من لوح عليه كتابات بالخط المسمارى بحوالى القـــرن السادس فى حين أن تاريخها الصحيـــح يرجع الى حـــوالى ١٤٠٠ ق• م• ، بينما أرخ تقويم جازر المشهور ، بتاريخ بعد تاريخه الحقيقى بسبعة قرون ، بسبب التأريخ التتابعى الخاطىء للفخار • ومن جهة أخرى تضمنت بحوثه كثيرا من نواحى الارتقاء بالآراء الاقدم • فالفخار المميز لاواخر العصر البرونزى المتوسط، فصل عن فخار العصر البرونزى المتأخر ، ووضع تحت اسم « العصر السامى الثانى » وأرخه بحوالى ١٨٠٠ ـــ ١٤٠٠ ق • م ، وهو تأريخ صحيح تقريبا • كما تضمن البحث تصنيف كمية من الاشياء ووصفها ، وبذلك أمدت الطلاب بمادة قيمة المقارنة •

وفى عام ١٩٠٩ عين ماكالستر أستاذا للاثار الكلتية فى دبلن ، ودعت هيئة صندوق تمويل التنقيب عن آثار فلسطين دونكان ماكنزى Dunkan Mackehzie ليرأس مشروع حفائرها فى بيت شمس (تل رام الله) • ولما كان لدى ماكنزى معلومات ممتازة عن الفخار الايجى ، فانه كان أهلا لان يقدر القيمة التاريخية الكاملة للفخار الفلسطينى (وقد سماه كذلك هيرمان تيرش Hermann Thiersch عام ١٩٠٨) الذى وجد بكميات وافرة فى هذا الموقع • ولذلك فليس بمستغرب أن تكون التواريخ التى أعطاها لفخار عصر الحديد صحيحة بوجه عام — ولو أن بعضها كان مغالى فيه — وأنه قلب اتجاه ماكاليستر فى اعطائه للفخار « اليهودى » تواريخ متأخرة جدا عن تواريخها الصحيحة • وبعد ثلاثة مواسم للحفر ، توقف العمل فى هذا الموقع لقلة الاعتمادات ، ثم قامت الحرب العالمية الاولى مما أدى الى الاضطرار الى الغاء المشروعات الجديدة •

ولقد كان العلماء الالمانيون والنمسويون يتوقون للعمل فى فلسطين منذ سنوات كثيرة • وفى نهاية القرن التاسع عشر وبدء القرن العشرين ، تحسنت العلاقات بين ألمانيا والنمسا من جانب وبين تركيا من الجانب الاخر ، الى درجة رؤى معها أنها ملائمة سياسيا لارسال بعثات للحفر فى فلسطين • وفى سنة ١٨٩٨ تأسس المعهد الالمانى للدراسات الشرقية تحت رعاية الامبراطور الالمانى • وفى سنة ١٩٠١ قام العالم الالمانى ارنست سللين Ernst Sellin المتخصص فى دراسة التوراة والذى كان يقوم فى ذلك الوقت بالتدريس فى فينا ، بتنظيم بعثة للحفر فى التل البديع فى تعنك التى تبعد عن مجدو بخمسة أميال (ثمانية كيلو مترات) جنوبا ، وأجرى بها حفائر على نطاق واسع من ١٩٠١ الى ١٩٠٤ واكتشف أشياء هامة عديدة ، منها اثنا عشر لوحا بالخط المسمارى وأجزاء ألواح من القرن السابق لعصر العمارنة • غير أن المشروع لسوء الحظ لم يكن مزودا بعدد كاف من المساعدين كما أهملت استراتيجرافية الموقع • وفى هذه البعثة كان شوماخر ، الذى عمل من قبل فترات طويلة فى تسجيل الاثار الظاهرة ، قد حصل على خبرته الاولى فى اجراء تنقيبات فعلية ، ثم أسندت اليه رئاسة بعثة ألمانية للحفر فى الموقع الكبير فى مجدو من ١٩٠٣ الى ١٩٠٥ ، غير أنه عمل وحيدا مثل ماحدث مع ماكاليستر فى جازر تماما • ولما كان شوماخر رساما متدربا فانه أنتج خرائط ورسومات أفضل من تلك التى أنتجها ماكاليستر ، ومع ذلك ثبت

أنها غير دقيقة لدرجة أن المهندسين المساحيين بالمعهد الشرقى وجدوا أنه من المستحيل ان يضموها الى الخرائط والمساقط المساحية التى أعدوها بأنفسهم • وفى الواقع لم يمكن التعرف اطلاقا على بعض الخنادق المبينة فى رسومات شوماخر بين الخنادق التى قام بحفرها فعلا • وقد أفسد جهـل شوماخر بالفهرسـت الفخـارى للتـأريخ عمله الاستراتيجرافى الى درجة انه لم يمكن الاستفادة به الا فى حـدود ضيقة • ومع ذلك فان عمله كان ذا قيمة كبيرة فى حد ذاته ، ولاشك انه لعب دورا هاما فى تطوير علم الاثار الفلسطينية الى نظام قـوى التماسك •

وفى سنة ١٩٠٧ بدأت بعثة ألمانية ـ نمسوية مشتركة بالعمل فى أريحا ، فى جنوب وادى نهر الاردن ، واستمرت فى العمل حتى ١٩٠٩ تحت قيادة سيلين وكارل وانتزينجر Carl Watzinger يعاونهما عدد من المهندسين المعماريين • ولأول مرة فى تاريخ الحفر فى فلسطين نقابل بعثة كبيرة مزودة بالكفايات كما يجب ، وعندما نشر تقرير هذه الحفائر فى سنة ١٩١٣ تحقق ماكان متوقعا منها ، اذ كـانت المسـاقط الهندسية والصور الفوتوغرافية ممتازة ، ووصف الفخار وصفا دقيقا برسومات وصور فوتوغرافية توضح تفاصيل الوصف ، كما وصف تركيب السور البديع الذى يرجع تاريخه الى العصر البرونزى المتوسط وصفا كاملا دقيقا ، وعولجت استراتيجرافية الموقع علاجا جيدا ولو أن الحفر لم يخترق طبقات الالف سنة الثالثة قبل الميلاد الا قليلا • ومع ذلك فمن جهة أخرى كان التأريخ بعيدا عن الصواب ، اذ أهمل المنقبان الاطلاع على نتائج البعثات البريطانية واعتمـدا على نظام تأريخى تتابعى من صنعهما ، وقد اعتمد هذا النظام الجديد أساسيا على فرض سيلين الذى يزعم ان السور المذكور قد سقط قبل دخول بنى اسرائيل ، وأن سورا آخر ـ كما استنتج من التوراة ـ قـد بناه حيئيل البيتئيلى فى القرن التاسع قبل الميلاد • لكن الحقيقة أن السور الذى ظن سيللين أنه انهار فى الحصار الاسرائيلى قد تهـدم فى أوائل العصر البرونزى المتوسط ، فى حين أن السور الذى زعم أن حيئيل بناه لا يمكن أن يكون تاريخ بنائه متأخرا عن القرن السابع عشر ق • م • أى قبل عهد حيئيل بثمانية قرون كاملة •

ويمكن أن يقال ان عام ١٩٠٨ كان عاما فاصلا فى تقدم الجانب الفنى لعلم الاثار الفلسطينية ، اذ بدأ فى ذلك العام العمل الحقيقى فى

التنقيب (لا مجسات أولية) في كل من أريحا والسامره • ولاول مرة منذ بدأ تنقيب علمي في فلسطين ، كان بالبعثة نفسها مساعدون متدربون في متناول اليد ، للعناية بكل المراحل الهامة للعمل ، ولم تعد أعمال الحفر والتسجيل الشاقة تترك كلها لرجل واحد أو لرجلين • اذ قامت بعثة جامعة هارفارد بالتنقيب في السامرة لمدة ثلاث سنوات برئاسة جورج اندرو ريزنر George Andrew Reisner ، ومعاونة آخرين خصوصا فيشر C.S. Fisher • وبفضل كرم الثرى الامريكي السخى ، جاكوب شيف Jacob Schiff الذى رصد للمشروع مبلغا ضخما يبلغ ستين ألف دولار ، لم تعان البعثة من الافتقار للاعتمادات المالية كما كان يحدث عادة مع البعثات السابقة • وعلاوة على ذلك فان ريزنر نفسه كان عالما أثريا نابغا خليقا بأن يقف في نفس مرتبة روبينصون ، وكليرمونت ـ جانو ، وبترى • وكان ريزنر قد أمضى قبل ذلك عشر سنوات في العمل الاثرى في مصر ، حيث ابتكر أساليب فنية جديدة في البحث الاثرى ، أصبحت منذ ذلك الحين مثالا يحتذى به وتجمع بين الطرق التى ابتكرها بترى والطرق التى ابتكرها دورفلد Dörpfeld وكولدوى Koldewey في المانيا، والطرق الممارسة في موطنه الاصلى في أمريكا الغربية الوسطى والبراعة في تنظيم الاعمال الكبيرة • ومن حسن الحظ كان ريزنر أيضا هو صاحب الامر في صرف الاعتمادات اللازمة للعمل ، وقد توخى دائما عدم الاسراف في الصرف بل كان يصرف كل شيء في موضعه الصحيح • واستغل ريزنر كل الامكانيات لعمل تخطيط مساحى دقيق ، وتحليل معمارى ممتاز ، وتسجيل فوتوغرافى كامل ، وتنظيم دقيق للسجلات ، فلم يترك شيئا للصدفة ، ولم يعتبر شيئا غير ذى بال الى درجة لا يستحق معها الاهتمام الجدى • وحيث ان المجلدين الضخمين عن أبحاثه في السامره لم يظهرا الا سنة ١٩٢٤ ، فان الطرق الجديدة لريزنر لم تؤثر تأثيرها الكامل في علم الاثار الفلسطينية الا عن طريق أعمال تلميذه فيشر الذى كان هو نفسه أيضا أثريا نابها لا يقل في نبوغه عن ريزنر •

واذا تغاضينا عن ذكر المشروعات الصغيرة العديدة وعمليات الكشف السطحية التى جرت قبيل الحرب العالمية الاولى ، فاننا نصل الى عام ١٩٢٠ حينما أنشئت مصلحة للاثار الفلسطينية على نظام حديث ، تحت رئاسة العالم الاثرى المحنك جون جارستانج John Garstang

من جامعة ليفربول • وفى ظل سـياسة المصلحة الجديدة ازاء المنقبين الاجانب أزدهرت البحوث الاثرية فى فلسطين ازدهارا لم يسبق له مثيل •

وفى خلال سنوات السلم الخمسة عشر ١٩٢١ -١٩٣٦ ، لم تمر سنة واحدة الا وجرت فيها عدة حفائر ، وقد زاد عدد المشروعات خلال هذه المدة زيادة مطردة حتى بلغ ذروته فى الثلاثينيات الاولى ، ويعد المؤلف نفسه محظوظا لعمله فى فلسطين من ١٩٢٠ الى ١٩٣٥ ، وقد قام خلالها بدور فعال فى كل من مجالى التنقيب والدراسة • ولقد كانت هذه السنوات سنوات مثيرة حقا ، اذ تحقق فيها كل شهر تقدم ملحوظ نحو هدفنا البعيد لكتابة تاريخ فلسطين الكامل كما تحكيه آثارها •

وبمجموعة من الاثريين ، تكاد تكون كلها جديدة على العمل الاثرى فى فلسطين ، كان علينا أن نبدأ من أول الطريق منشئين نظاما استقرائيا لم نقبل فيه أيا من النتائج السابقة كما هى الا اذا أيدتها أبحاثنا الخاصة • وبدلا من عدم وجود أتصال بالمرة تقريبا بين البعثات الالمانية والبعثات البريطانية ، وهى السياسة التى كانت سائدة فى ذلك الوقت ، وكذلك بدلا من الانقطاعات المتكررة فى مواصلة العمل التى كانت تحدث كلما وصل أثرى جديد الى فلسطين ، ساد جو بديع من التعاون • وكان الراهب الفرنسى فينسنت L. H. Vincent المرجع السريع الاول لنا، اذ أنه كان قد درس كل التنقيبات التى جرت منذ أواخر القرن التاسع عشر ونشر فى ١٩٠٧ عرضا بديعا لنتائجها ، وفى الواقع كان الاب فينسنت معلما ومرشدا للجميع ولم يدخر وسعا فى أن يعرّف كل مبتدىء بأسرار نظامه فى البحث • وكانت معلوماته عن الفخار لا تبارى ولو انه شارك فى كثير من أخطاء المنقبين الاوائل ولم يوفق فى جهوده لوضع نظام تأريخى موحد من النتائج المتضاربة جدا لبحوث ماكاليستر وواتزينجر • وقد صار السفر أسهل نسبيا مما كان عليه من قبل بفضل انشاء طرق حربية جديدة واستخدام عربات فورد للنقل • وزار الاثريون بعضهم بعضا وتقابلوا فى متحف فلسطين أو فى الاجتماعات التى كانت تعقدها جمعية فلسطين للدراسات الشرقية لتبادل الآراء والنتائج ، ولذلك فلا غرابة فى أن أصبح التقدم أكثر أطرادا •

وطبعا ، لا يعنى هذا أنه لم تكن هناك نكسات ، فقد وصل من الخارج أحيانا رجال من ذوى السمعة الوطيدة وأظهروا أنفسهم غير

مستعدين لقبول أسس تأريخ الفخار الفلسطيني أو غير قادرين على تفهمها ٠ كذلك كشف أحد المنقبين على سفوح جبل جرزيم عن مبنى ظنه هيكلا وأرخه بعصر جدعون حوالى ١١٠٠ ق ٠ م ، فى حين كان هذا المبنى فى واقع الامر منزلا (فيللا) وتحقق أخصائيو الفخار فيما بعد أن الفخار الذى وجد به انما هو فخار نموذجى للعصر البرونزى الاوسط ، ومعنى هذا أن المنقب كان مخطئا فى تأريخه بحوالى خمسة قرون ، وذلك لمجرد أنه حسبه أمرا لا يتفق مع كرامته ان يستطلع آراء علماء آخرين ٠ واكتشفت قرية من عصر النحاس يرجع تاريخها الى أوائل الالف الرابعة قبل الميلاد ٠ وكشف عنها كشفا جزئيا ، لكن مدير العمل ، وكان رجلا مرموقا ، دخل فى سلسلة من الاخطاء الغريبة ، حتى أنه أرجعه الى تاريخ متأخر عن تاريخه الحقيقى بألف وخمسمائة سنة ، وما أن نسبه الى هذا التاريخ المتأخر حتى تمسك به حتى وفاته فى عمر مبكر ٠ وأرخ احد المنقبين الآخرين مقبرة من عصر الحديد بتاريخ أحدث من تاريخها الصحيح بخمسمائة سنة بسبب أخطاء مماثلة ٠

ولن نجهد القارىء بذكر كل التنقيبات الاثرية فى فلسطين وشرق الاردن منذ سنة ١٩٢٠ ، بل سنقصر نفوسنا على ايراد وصف موجز عام للتقدم فى هذا الميدان ، مستشهدين بصورة فوتوغرافية لكل من التنقيبات الاكثر أهمية أو لكل مجموعة من المشاريع وسنكون مضطرين مرارا لعدم ذكر الحقائق كاملة ، وذلك اما لكون المنقب لايزال يعمل ، أو لان نتائج تنقيباته لم تنشر حتى الان بأكملها ، اذ أن الكاتب لا يكون حقيقة فى مأمن من الخطأ عند محاولته الكتابة باستفاضة عن القيمة الحقيقية للتنقيبات الاثرية الا بعد أن ينتهى العمل منها ويتم نشر كل التفاصيل الهامة عنها ٠

ولا شك أن أكبر طفرة حدثت فى دراسة الاثار الفلسطينية كانت فى مجال ماقبل التاريخ ، اذ كان هذا الفرع من العلم حتى سنة ١٩٢٠ قاصرا تماما ، ومع أن بعض التنقيبات السطحية والمجسات القليلة فى الكهوف كانت قد كشفت عن بعض آلات ظرانية تشبه تماما الالات الظرانية الشيلية والموستيرية والاوريانسية من العصر الحجرى القديم فى غرب أوربا ، الا أنه لم تكن ثمة استراتيجرافية ، كما لم تكن ثمة أدلة ثابتة عن أنواع الحيوانات والنباتات أو نوع الجنس البشرى المرتبط بأى نوع من هذه الآلات الظرانية ولا عن جيولوجيتها أو تاريخها الجيولوجى ٠ وفى سنة

١٩٢٥ قام شاب انجليزى هو تورفيل بيتر F. Turville-Petre بالتنقيب فى كهفين أعلى بحر الجليل ، وكشف عن أول ترسيبات على شكل طبقات فى فلسطين ، وفى أحدهما عثر على أول بقايا لانسان ما قبل التاريخ وكان الاكتشاف الرئيسى هو جزء من جمجمة الانسان نياندرثال فى وسط يتميز بمعالم موستيرية أيضا ، مما يثبت بدليل مادى صحة وجود العلاقة التى سبق تقرير قيامهـا بين العصر الموستيرى فى فرنسـا العصر الموستيرى فى فلسطين • وفى سنة ١٩٢٨ بدأت دوروثى جـارود Miss Dorothy Garrod العالمية البارزة فى دراسات ما قبل التاريخ بجامعة كمبرديج ، سلسلة طويلة من البعثات فى الكهوف الفلسطينية استمرت حتى سنة ١٩٣٤ تحت الرعاية المشتركة لـكل من المدرسـة البريطانية للاثار British School of Archaelogy بالقدس والمدرسة الامريكية لبحوث ماقبل التاريخ The American School of Prehistoric Research. وكان ضمن الاكتشافـات البارزة التى قامت بهـا بعثتها الكشف عن الحضارة النطوفية الجديدة وبعض هيـاكل عظيمة كاملة أو أجزاء هياكل لمستحجرات بشرية • وكان الفرنسيون يقومون فى نفس الوقت بنشاط فى فلسطين ، اذ أجرى موظف كبير بالقنصلية الفرنسية هو رينيـه نيفى René Neuville سلسلة من التنقيبات فى بعـض الكهوف الاخرى بفلسطين •

وكانت القيادة فى دراسته الاثار الفلسطينية بين الحربين العالميتين للجمعيات البريطانية بالتعاون فى معظم الاحيان مع مجموعات أمريكية أو أفراد من الامريكيين ، اذ قامت هيئة صندوق تمويل التنقيب عن آثار فلسطين والمدرسة البريطانية للاثار باجراء سلسلة كاملة من التنقيبات الصغيرة والمجسات مبتدئين ببعض العمل فى عسقلون برئاسة جارستانج وفيثيـان أدمز W. J. Phythian-Adams • وفيما بين ١٩٢٣ و١٩٢٨ قامت سلسلة من البعثات بالتنقيب فى تل الاكمة (أوفيل) فى القدس تحت اشراف مـاكاليستر وجارو دنـكان J. Garrow Dunkan وكروفوت J. W. Crowfoot على التوالى ، ووجدت بهذا التل كمية كافيـة من المبـانى والفخـار تثبت بصفة قاطعـة أنه كان النـواة الاصلية « لمدينة داود » •

وحفائر أريحا التى كان الالمان قد بدأوها فى سنة ١٩٠٧ ــ ١٩٠٩ ، استأنف العمل فيها جارستانج ف ١٩٢٩ ــ ١٩٣٦ وكاثلين كينيون Kathleen Kenyon فى ١٩٥٢ ــ١٩٥٨ • وقد فشل جارستانج فى تحديد تاريخ سقوط هذه المدينة التى كانت آخر معقل للكنعانيين ، لكنه اكتشف بها حضارة ما قبل الفخار ف العصر الحجرى الحديث وهى أقدم حضارة مدنية • وكان فشله فى الحصول على دليل واضــح على قيــام حضــارة مدنية فى العصر البرونزى المتأخر فى أريحــا ، راجعــا الى حــدوث تآكل شــديد جــدا لبقايا الطوب اللبن بالموقع خــلال الاربعة قرون (أو نحو ذلك) التى تقع بين آخر عمــران لهــا قبل دخول بنى اسرائيل الى فلسطين واعادة بنــاء المدينة الاسرائيلية فى أوائل القرن التاسع قبل الميلاد ، اذ كان تأثير الرياح والمطر على مثل هذه المواقع شديدا لدرجة تدعو الى عدم الانتباه اليها ، ومع ذلك فقد وجد فيها جارستانج بقايا من حصن من العصر البرونزى المتأخر ، أمكن تأريخه بواسطة الفخار الذى وجد به ، وكذلك بواسطة الدفنات المجاورة له ، بالقرنين الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد • ولم تتمكن مس كينيون من اضافة دليل جديد هام لشواهد جارستانج عن العمران الاخير للمدينة قبل دخول بنى اسرائيل ، لكن بحوثها قد وضحت التسلسل التاريخى للموقع على ممر العصور ، وأمدتنا بمعلومات مثيرة عن حضارة ما قبل الفخار فى العصر الحجرى الحديث •

وقد عاد عميد الاثريين العظيم ، فليندرز بترى الى فلسطين فى ســنة ١٩٢٧ بعد مرور سبع وثلاثين سنة ، وقرر بترى طبقا لمبدئه الاستقلالى ف البحث طوال حياته الا يعير أى انتباه لنتائج الباحثين الاخرين ، بل دأب على ان يؤرخ مكتشفاته طبقا لاستنتاجاته كلما تقدم العمل • ومن الوجهة النظرية اعتمدت استنتاجاته هذه على مقارنة أشكال مكتشفاته فى فلسطين بمثيلاتها التى وجدت فى مصر ، غير أنه ثبت عمليا أن الاشياء التى عثر عليها فى فلسطين كانت شحيحة لدرجة لا يمكن معها اعطاء استنتاجات يعول عليها ، اذ انه رفض ان يعير اهتماما بالنتائج المتراكمة للباحثين الآخرين ف هذا الحقل • ولذلك فعندما قدم تأريخه عن تل العجول (غزة القديمة) نسب أقدم مخلفات بها الى حــوالى ٣٥٠٠ ــ ٣٢٠٠ ق• م• بدلا من حوالى ٢٠٠٠ ق • م • رابطا اياها بالاسرة المصرية الخامسة بدلا من الاسرة الحادية عشرة ، كما أنه أرخ

آهم مدينة فى الموقع بحوالى ٢٦٠٠ — ٢٤٠٠ ق • م • بدلامن حوالى ١٥٠٠ ق• م• رابطا اياها بالاسرة الثانية عشرة بدلا من الاسرة الثامنة عشرة • ولا يعتمد تصحيح تأريخات بترى على مجرد الرأى الشخصى للمؤلف ، بل يعتمد على تحقيق ذاتية أشكال الفخار بصفة قاطعة يمكن اثباتها بمعرفة اى زائر نابه لمتحف فلسطين أو أى طالب آثار له جلد على الاطلاع والبحث فى أحد المطبوعات • وبالاضافة الى أعمال التنقيب التى جرت فى تل العجول (١٩٣٠ — ١٩٤٣) فقد أجرى بترى حفائر لمدد قصيرة فى موقعين آخرين فى النقب (هما تل جمه فى جنوب غزه وتل فرعه الذى يحتمل أن يكون شاروهين القديمة) • وتكوّن هذه التنقيبات وتنقيبات صغيرة أخرى أجريت فى أنثيدون وبترا (البتراء) فى ١٩٣٥ — ١٩٣٧ كل الدور الذى تم فى فلسطين للعمليات التى قامت بها المدرسة البريطانية للاثار فى مصر التى كان بترى قد أسسها قبل ذلك بأربعين سنة •

ولا يزال أمامنا أن نتناول بالذكر بعثتين بريطانيتين للتنقيب بالغتى الاهمية أولاهما البعثة الجامعية المشتركة التى عملت بالسامره (١٩٣١ — ١٩٣٥) ، والثانية بعثة ويلكوم — مارستون Wellcome - Marston التى عملت فى لخيش(تل الدوير) من ١٩٣٢ الى ١٩٣٨ • وقد بدأت تنقيبات السامره تحت أشراف كروفوت J. W. Crowfoot من حيث تركها ريزنر ، وأوضحت نقطا عديدة فى التأريخ كانت دائما موضعا للشك • وبفضل التقدم الهائل فى تأريخ شقف الفخار خلال هذه السنوات العشرين (التى مرت بين عمل بعثة ريزنر وبعثة كروفوت) ، أمكن تصحيح كثير من الاخطاء التى كان لا مناص من ان يقع فيها ريزنر : فالابراج المستديرة التى توجد بالقلعة ثبت أنها من العصر الهلنستى[1] بدلا من العصر الاسرائيلى أى أحدث من تاريخها السابق بحوالى خمسة قرون ، وشارع الاعمدة « الهيروديسى » ثبت أنه من القرن الثالث أو الرابع الميلادى • وأهم اكتشاف لريزنر بالمنطقة ،

(١) الحضارة الهلينية Hellenic هى الحضارة اليونانية فى بلاد اليونان نفسها •
والحضارة الهلنستية Hellenistic هى الحضارة اليونانية خارج بلاد اليونان •

وهو حــوالى سبعين قطعة من الشقف المكتــوب (لخاف أو استراكا)، يرجع تاريخها الى القرن الثامن قبل الميلاد (لا الى القرن التاسع كما ظن ريزنر) وجدت بعثة كروفوت ما يعادلها من اللخاف بالاضافة الى مجموعة جميلة من العاج المنحوت المطعم من القرن التاسع أو الثامن قبل الميــلاد • أما حفــائر لخيــش فكان يديرها بكفــاءة بالغــــة ســـتاركى J. L. Starkey (لوحة٣) الذى تعــلم فن التنقيب على يدى بترى، ولو لم يكن قد قتل غدرا فى يناير سنة ١٩٣٨ لكان قد وصل الآن الى مرتبة جهابذة العلماء الاثريين البارزين • وكان ستاركى يملك روحا تقــدمية وثابة بالاضــافة الى ســليقته الحــادة فى التحليل الاثرى ، كما أظهر مقدرة نادرة فى العمليات الهندسية وفى تنظيم العمل الاثرى • وبمعاونة نفر من أعضاء البعثة الممتازين أعطى لكل نواحى تنقيباته حقها الكامل من الدراسة ، بمــا فى ذلك الرسم المســاحى والتصوير الفوتوغرافى ودراسة الفخار والنقوش• وكشفه المثير فى ١٩٣٥ و١٩٣٨ لما يزيد عن عشرين قطعة من الاستراكا المكتوبة باللغة العبرية ثلثها مقروء تماما ، قد جعل كل الكشوفات الاخرى بالموقع قليلة الاهمية بجوار كشفه هذا • وكانت لخيش قلعة بالغة الاهمية فى العصور المختلفة ، وقد سهل العمل التحضيرى المنظم الذى قام به ستاركى عمل المنقبين التالين له فى هذا الموقع ، وليس هناك أدنى شك فى أن تنقيب الطبقات الكنعانية الاخيرة سيمدنا بكثير من القطع المنقوشة بالخط المسمارى والخطوط الاخرى ، وسيذهب الى مدى بعيد نحو اقرار تحديد تاريخ هزيمة بنى اسرائيل لكنعان ، وهى المسألة التى لاتزال الاراء فيها متضاربة

وأول بعثة أمريكية نظمت للعمل فى فلسطين فى المدة الواقعة بين الحربين العالميتين كانت بعثة تنقيب القلعة الكبرى فى بيسان (بيت شان) (لوحة ٦) تحت رعاية متحف جامعة بنسلفانيا وبرئاســـــة فيشر C. S. Fisher وألان رو Alan Rowe وفيتز جيرالد G.M. Fitz Gerald على التعاقب • وبلغ عدد مواسم عمل البعثة فى هذا الموقع عشرة مواسم فيمــا بين ١٩٢١ و ١٩٣٣ • وكان فيشر مهنســا معماريــا متدربــا وأثريــا من مدرســة ريزنــر ولذلك فقــد حظى مشروع بيســـــان (بيت شــان) ، بتخطيط وتنفيـــذ جميلين • ولمــا كــان ألان رو وفيتز جيرالد قد تدربا على يدى فيشر ، فلم يكن ثمة انقطاع فعلى فى

سلسلة العمل بسبب تغير رئيس البعثة المتعاقب، ولعل أبرز ما تميزت به هذه الحفائر هو اماطة اللثام عن عدة حصون مصرية فى طبقات بعضها فوق بعض من القرن الرابع عشر الى القرن الثانى عشر ، وقد عثر فيها على عدة لوحات مصرية وعدد من الهياكل بالغة الاهمية فى تاريخ الديانة الكنعانية ، كما أعطت المجسات التى أجراها فيتز جيرالد حتى وصل الى الارض الصخرية معلومات قيمة عن التعاقب الاستراتيجرافى للموقع الى مايرجع الى منتصف الالف الرابعة قبل الميلاد .

وفى عام ١٩٢٥ ترك فيشر العمل فى جامعة بنسلفانيا وعمل مع بعثة معهد الاثار الشرقية بجامعة شيكاجو كرئيس لبعثة التنقيب فى مجدو . وكانت بعثة ألمانية قد قامت بالحفر فى هذه المدينة المشهورة فى ١٩٠٣ — ١٩٠٥ كما سبق الذكر ، ووجدت قليلا من الاثار غير العادية، غير أن البعثة الامريكية الجديدة تميزت بتنظيم أبدع كثيرا عن سابقتها الالمانية وبموارد مالية فاقت بكثير جدا كل البعثات الاثرية السابقة لها ، اذ بلغت تكاليفها من سنة ١٩٢٥ الى ١٩٣٩ حوالى مليون دولار (بما فى ذلك تكاليف النشر) ، وللاسف اعتلت صحة فيشر مما دعاه الى الانسحاب من العمل وأعقبه جاى P.L.O. Guy وجوردون لاود Gordon Louu على التوالى ، لكن أحدا منهما لم يملك خبرة فيشر ولا معرفته الممتازة فى الفخار . ومن حسن الحظ أن عدلت البعثة عن برنامجها الاصلى لحفر هذا الموقع العظيم بنظام طبقة طبقة بسبب تكاليفه الباهظة . وقد يبدو تعبيرنا هنا لحسن الحظ غريبا ، لكن يجب أن نعلم أن ما يعتبر حاليا أحسن الطرق ربما يبدو بعد قرن من الزمان طريقة بدائية ، ومن الخطأ المؤسف أن نستنفد فى وقت واحد امكانيات موقع هام مثل موقع مجدو . وفى الواقع لم يرفع الا جزء من التل الكبير ولا يزال ثمة مجال متسع لتصحيح التأريخ وللقيام بكشوفات هامة . وأهم ما كشفت عنه هذه البعثة هو الاصطبلات الفسيحة الخاصة بملوك اسرائيل التى بدأ بناؤها فى عصر الملك سليمان ، وكنز مدهش من قطع العاج المنحوت من القرن الثانى عشر قبل الميلاد . ومن الاهمية بمكان أيضا تلك المجسات التى أجرتها البعثة فى الخمسة عشرة طبقة أو أكثر التى سبقت الفتح الاسرائيلى وترجع الى أوائل الالف الرابعة أو ماقبل ذلك .

وبالرغم من تأسيس المدرسة الامريكية للبحوث الشرقية فى القدس سنة ١٩٠٠ الا أنه لم يكن لديها من الاعتمادات مايسمح لها بأن تقوم الا بتنقيبات صغيرة جدا • وفى ١٩٢٦ دخلت فى سلسلة من الحفائر المشتركة ، كلها تقريبا تنسب اليها • وعين فيشر فيها فى وظيفة مستشار وثبت أن معونته لها كانت قيمة جدا • وأولى البعثات التى دخلت بها ميدان الحفر كانت تنقيبات تل النصبة على الطريق المرتفع شمالى القدس • وقد تم تنقيب الموقع كله تقريبا فى خمسة مواسم (١٩٢٦ — ١٩٣٥) وهو عمل بارع ساعد على انجازه أن الجزء الاوسط من التل كان معرى تماما ولم توجد به الا طبقات قليلة ، وقد اتبع بادى W.F.Badé منظم المشروع ومديره ، نفس طرق فيشر بكل دقة ، بل وأنه قام بتسجيل أصغر الاشياء بكل عناية • والمجلدان الضخمان اللذان أصدرهما ماك كاون C.C. McCown عام ١٩٤٧ عن هذه التنقيبات يعتبران نموذجا لما يجب عليه نشر مثل هذه البحوث • وفى نفس الشهر قامت المدرسة الامريكية للبحوث الشرقية بمعاونة كايل M. G. Kyle والمؤلف W. F. Albright الذى كان رئيسا للبعثة ، بمشروع ثان هو حفائر تل بيت مرسيم فى الجنوب الغربى لحبرون التى تعتبر عادة قرية سفر أو دبير المذكورة فى التوراة (يشوع ١٥ : ١٥) • وثبت من تنقيب هذا الموقع تنقيبا جزئيا فى اربعة مواسم (١٩٢٦ — ١٩٣٢) أن فترات العمران فى هذا الموقع بلغت عشر فترات أو احدى عشرة فترة ، من أواخر الالف الثالثة الى حوالى ٥٨٩ ق• م• ، على أن الاهمية الاساسية لهذا العمل تنحصر فى العناية التى وجهت الى التتابع التأريخى للفخار الذى نشرت نتائجه على الفور وأصبحت هى المقياس الاساسى الذى يستخدمه علماء الاثار الفلسطينية لمقارنة الفخار • وقد ظهر فى الطبقة التى تمثل عصر الملكية فى هذا التل مدينة يهوذا وهى المدينة الوحيدة المحفوظة حفظا جيدا التى أظهرتها التنقيبات حتى الان ، وقد نشرت المساقط الافقية لعشرات المنازل ومحتوياتها ، وهى تعطى لاول مرة صورة واضحة للكيفية التى عاش بها شعب يهوذا فى أيام أشعياء وأرميا النبيين •

وبعد سنتين قامت المدرسة الامريكية للبحوث الشرقية بمساعدة وقيادة اليهو جرانت Elihu Grant بمشروع ثالث فى بيت شمس بمعاونة فيشر أيضا ، وفى خمسة مواسم (١٩٢٨ — ١٩٣٣) أزيل

جزء كبير جدا من التل وعثر على العديد من الاثار الهامة ، وترجع الاهمية الرئيسية لهذا العمل الى الضوء الذى ألقاه على العمران الاسرائيلى المبكر فيما بين القرن الثانى عشر والقرن التاسع قبل الميلاد ٠ وبمعاونة الرجل القدير رايت G. E. Wright أمكن ايضاح التتابع الزمنى للموقع ايضاحا تاما قبل الانتهاء من النشر ٠ ومما يجدر بالذكر أن أعمال هذه البعثات الثلاثة قد تم نشرها نشرا كاملا فى اثنى عشر مجلدا بالاضافة الى عدد كبير من النشرات القصيرة ٠ ومن المؤسف انه لا يمكن أن يقال نفس الشىء بالنسبة للمشروعات الاثرية الاخرى الباهظة التكاليف التى تمت فى نفس الفترة ٠

وبالاضافة الى هذه التنقيبات الطويلة الثلاثة فان المدرسة الامريكية للبحوث الشرقية فى القدس قامت بمشروعات قصيرة عديدة ، واذا كنا نقتصر هنا على ذكر أهمها فاننا نذكر حفائر بيت زور (١٩٣١) برئاسة سلرز ومعاونة المؤلف ، وحفائر بيت ايل (١٩٣٤) برئاسة المؤلف وكلصو J. L. Kelso ، وكانت هاتان البعثتان منتجتين ، وقد استأنف كلصو العمل فى حفائر بيت ايل سنة ١٩٥٤ ٠ على أن أهم هذه المشروعات لم يقم الا سنة ١٩٣٣ ، عندما بدأ نلسون جلويك Nelson Glueck مسح منطقة شرق الاردن مسحا أثريا منظما واستمر هذا العمل سنة بعد سنة حتى ١٩٤٦ ٠ فقد تم سبر كل الاراضى بعناية من العقبة الى حدود سوريا ، وسجلت البعثة مئات عديدة من المواقع القديمة التى لم تكن معروفة من قبل وأرختها بالاستعانة بقطع الشقف التى كانت منتشرة على سطوحها ٠ وحيث أنه لا توجد تقريبا بهذه المنطقة أى تلال بالمعنى الصحيح ، فان النتائج التى أعطتها البعثة قاطعة بوجه عام فيما يختص بالخطوط العريضة لتاريخ عمرانها ٠ وقد نجح جلويك فى تقرير حقيقة هامة هى أن معظم منطقة شرق الاردن (فيما عدا وادى الاردن وأقصى الشمال) لم يستعمر الا لمدد قصيرة نسبيا تفصلها فترات طويلة كانت فيها محطا للقبائل البدوية ٠ وأهم فترتين للحياة البدوية بهذه المنطقة لم يستقر البدو خلالهما فى مكان واحد أو استقروا استقرارا ضئيلا ، استمرتا من القرن العشرين الى القرن الثالث عشر ، ومن القرن السادس الى القرن الاول قبل الميلاد ٠ وبالاضافة الى أعمال المسح الاثرى القيمة التى قام بها جلويك فانه رأس أيضا بعثات تنقيب صغيرة ، لكنها كانت مثمرة جدا ، وذلك فى معبد للانباط من القرنين الاول والثانى الميلاديين ، وفى تل الخليفة وهو

عصيون جابر القديمة على خليج العقبة (١٩٣٧ — ١٩٤٠) • وفى ثلاثة مواسم للتنقيب فى تل الخليفة كشفت البعثة عن بقايا استراتيجرافية لاستخلاص النحاس من خاماته وتنقيته يرجع تاريخها الى القرن العاشر قبل الميلاد والى عهد الملك سليمان •

وخلال السنوات ١٩٣٣ — ١٩٣٨ ، أخذت بعثة كولت ، برئاسة دونسكومب كولت Dunscombe Colt ومعاونة كولين بالى T. J. Colin Baly على عاتقها تنقيب أربع مدن كبيرة فى النقب جنوبى اليهودية هى سبيته (سوبيتا القديمة) وعوجا الغفير (نيسانا) وخلاصه (الوسا)وعبده (عبودا) • ومع ان نتائج عمل هذه البعثة خارجة فى تفاصيلها عن نطاق هذا الكتاب ، الا انها بالغة الاهمية ، كما سيتضح بعد نشرها نشرا كاملا • ومن أهم ما وصلت اليه هذه البعثة هو أن هذه المدن الاربعة قد تبادلت الاهمية ولم تزدهر كلها فى وقت واحد وهو ما كان يسلم به المنقبون السابقون دون الاعتماد على دليل ثابت • وأهم ما عثرت عليه البعثة هو كمية من البردى اليونانى والعربى من القرنين السادس والسابع بعد الميلاد كشف عنها فى نيسانا ، اذ بالاضافة الى أهميتها التاريخية الخارقة ، فان حالتها الطيبة جدا من الحفظ لتفتح أمامنا باب الامل فى العثور على وثائق أخرى من عصور أقدم فى نفس الموقع •

وبالرغم من أن الاثريين البريطانيين والامريكيين هم الذين قاموا بمعظم أعمال التنقيب فى فلسطين بعد الحرب العالمية الأولى ، الا أن هناك مشروعات عديدة بارعة نظمها أثريون أوروبيون وفلسطينيون • ومعظم أعمال التنقيب التى قامت بها المنظمات الكاثوليكية تتعلق بالمسح المعمارى للعمارة البيزنطية وعمارة العصور الوسطى ، ولذلك فهى متأخرة جدا بالنسبة للنطاق التاريخى الذى يتناوله هذا الكتاب ولا مناص اذن من عدم ذكرها هنا • أما حفائر طليلات الغسول فى وادى الاردن جنوب شرقى أريحا ، فقد استمر العمل فيها بمعرفة الاباء اليسوعيين ثمانية مواسم من ١٩٢٩ الى ١٩٣٨ حيث نقب الاب أليكسيس ماللون Alexis Mallor وآخرون جزءا من الطبقتين العلويتين لموقع من العصر النحاسى من النصف الاول للالف الرابعة قبل الميلاد • وكان المنقبون الاول قد أعطوا للحضارة الغسولية الحديثة تاريخا متأخرا جدا ، غير أن المنقبين التاليين لهم وهم الاب كوبيل Koeppel والأب

ماهان Mahan والاب ميرفى Murphy قد صححوا هذا التاريخ على الفور .
وقد أدت العناية بتنقيب هذا الموقع والعثور على صور مرسومة على
الجدران ذات ألوان متعددة الى زيادة تقديرنا واجلالنا للمستوى
الحضارى الذى ساد فى فلسطين منذ ستة آلاف عام .

وفى عام ١٩٣٤ أنهى ستكوى A. Steckeweh عمل البعثة الالمانية فى
شكيم (بلاطه) بصفة مؤقتة وذلك بعد تاريخ متقطع جدا لاعمال
التنقيب بهذا الموقع ، فقد بدأ سللين عمل البعثة هنا فى ١٩١٣ ثم
استأنف سللين العمل فيه مرة ثانية فى ١٩٢٦ . ومن المؤسف أن كل
الاثريين الذين أرسلوا للعمل قبل البعثة الاخيرة لم يكونوا راغبين فى
دراسة الفخار الفلسطينى مقدما ، بل ولم يطلبوا مشورة الخبراء الذين
كانوا يعملون فى فلسطين فى نفس الوقت . وعلاوة على ذلك فان
شجارا قد نشب بين سللين وفيلتر G. Welter أثرى البعثة الذى تمكن من
ابعاد سللين عن الحفائر وقام بنفسه بادارة العمل بطريقة سيئة للغاية
مما دعا الى سحبه من العمل . وان هذا لمن دواعى الاسف الشديد حقا ،
اذ أن لهذا الموقع أهمية خاصة ، كما أنه كان محميا بنوع من أهم أنواع
الحصون فى العصر البرونزى التى وجدت حتى الان فى فلسطين . ولم
توجه هذه البعثة أى عناية للتأريخ بالفخار أو لترتيب الطبقات فى
الموقع الا فى الموسم الاخير حينما رفع ستكوى فى أسابيع قليلة
وبتكاليف زهيدة طبقات أكثر مما رفعته البعثة فى كل أعمالها الباهظة
التكاليف التى قامت بها فى السنوات السابقة . ففى علم الاثار كما فى
أشياء أخرى لا يحل أى قدر من المظهر محل العلم والمعرفة .

وفى ١٩٣٣ — ١٩٣٤ قامت مدام جوديت ماركيه
كراوس Mme Judith Marque-Krause بتنقيبات غاية فى الاهمية فى
عاى شرقى بيت ايل مباشرة ، وقد ظهرت هنا بقايا هامة جدا من الالف
الثالثة قبل الميلاد . غير أن عمل البعثة توقف بعد موسمين للحفر فقط
بسبب وفاة مدام ماركيه المفاجئة ، ويأمل الفرنسيون استئناف التنقيب
فى هذا الموقع فى أقرب فرصة تتاح لهم . وثمة حفائر فرنسية أخرى
أجريت سنة ١٩٤٦ برئاسة الراهب الربانى الشاب اللامع رولاند دى
Roland de Vaux فى تل الفرعة ، وهو تل كبير يقع شمال شرقى

نابلس . ونظرا للارتفاع الكبير فى الاسعار منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية فان تكاليف التنقيب قد زادت بما يعادل ثلاثة أو أربعة أضعاف تكاليفها قبل الحرب ، ولذلك فان الاب دى فو كان مضطرا لان يقصر التنقيب على مساحات قليلة اذا ما قورنت بحجم كثير من التنقيبات التى أجريت فى فترة ما بين الحربين ، ومع ذلك فكثيرا ما يحظى التحليل الاستراتيجرافى بعناية أكبر عندما لا يكون الاثرى مغمورا بشئون جمع كبير من عمال الحفائر وبسيل لا ينقطع من الاثار التى يجب عليه وصفها وتسجيلها . ولما كانت معظم الطبقات فى تل الفرعه من العصر الكالكوليثى ، فان هذا الموقع سيمدنا بمعلومات قيمة جدا فى تحديد المراحل المتتابعة للحضارة فى الالف الرابعة قبل الميلاد .

ومن المشروعات الهامة الاخرى حفائر المدرسة الامريكية بالقدس (منذ ١٩٥٠) فى ديبون التى تقع فى مؤاب ، والتنقيب فى أريحا الرومانية الذى أجراه كلسو وبريتشارد J. B. Pritchard فى ١٩٥٠ و ١٩٥١ ، وكذلك سلسلة مواسم التنقيب المستمرة فى دوثان برئاسة فرى J. P. Free منذ ١٩٥٣ . ومنذ ١٩٤٩ كشفت بعثات عديدة برئاسة دى فوعن مراكز اقامة العصيين فى خربة قمران وعين فشخة .

الفصل الثالث

عصر ما قبل التاريخ فى فلسطين

نظرا للزيادة الكبيرة فى عمليات التنقيب السطحى فى فلسطين فى منتصف القرن التاسع عشر ، فانه لم يمض الا وقت قصير حتى كشف لويس لارتيه Louis Lartet ثم الابريشار Abbé Richard عن أول أدوات مصنوعة من الظران (١٨٦٤) • ولقد أدرك لارتيه ماهية هذه الادوات اذ كان قد مر عشرون عاما على نشر بوشى دى برت Boucher de Perthes لكتابه المثير ، ومرت أربع سنوات منذ أن بدأ ادورد لارتيه Edouard Lartet تنقيبه فى رواسب كهوف ما قبل التاريخ • لكن الاب الطيب ريشارد ظن أن آلاته الظرانية من عهد يشوع الذى استخدمها لختن بنى اسرائيل • ويرجع الفضل بصفة خاصة الى الحفائر الشاسعة التى أجراها الاباء اليسوعيون زوموفن Zumoffen وبوفييه لابيير Bovier-Lapierre فى كهوف فينيقيا ، والى التنقيبات السطحية التى قام بها الاب جيرميه - ديران Germer Durand فى فلسطين ، فى أن تمكن بول كارج Paul Karge (وهو قس علمانى كاثوليكى) من تجميع كل المعلومات التى عرفت قبل الحرب العالمية الاولى فى مؤلف بعنوان Rephaim ظهر سنة ١٩١٧ • وبالرغم من عدم وجود أية بحوث استراتيجرافية فان التتابع التاريخى الذى أعطاه كارج للالات الظرانية التى وجدت ، كان صحيحا بوجه عام ، اذ أنه اعتمد على طريقة مقارنة طرز الالات الظرانية التى وجدت بفلسطين وسوريا بطرز الالات المقابلة لها مما وجد فى فرنسا وأمكن تأريخها بالدراسة الاستراتيجرافية •

وقد ذكرنا فى الباب الاول بايجاز الحفائر المنظمة التى قام بها تورف" بيتر ودوروثى جارود وريينيه نيفى" ابتداء من عام ١٩٢٥ وقد انضم آخرون الى هذه المجموعة الصغيرة ، وتفوق معلوماتنا حاليا المستوى الذى وصل اليه كارج ، اذ أن علمنا بهذا العصر يعتمد على أسس استراتيجرافية الى جانب الدراسة الطرازية (typology).

وأشترك فى هذه الدراسة جيولوجيون وأثريون وانتروبولوجيون يعاونهم اخصائيون فى ميادين كثيرة أخرى • وظلت فلسطين لعدة سنوات فى المرتبة الثانية بعد فرنسا بالنسبة الى أهميتها لعلماء ما قبل التاريخ ، غير أنه من الانصاف أن نضيف هنا أن جنوب أفريقيا قد اجتذب الاضواء فى هذا الحقل من كل من هذين القطرين •

وفى العصر الطباشيرى الذى يتبع حقب الحياة الوسطى (الميزوزوى)* كانت فلسطين مغمورة بالمياه المتقدمة لبحر طثيس • ومع أن فلسطين بقيت كجرف للقارة تحت المياه بعد الشاطىء مباشرة ، الا أن الرواسب البحرية للعصر الطباشيرى تصل الى سمك يبلغ حده الاقصى حوالى ميل فى أواسط فلسطين ومرت ملايين السنين ورواسب الجرف ترتفع

(*) الأحقاب الجيولوجية خمسة هى الآتية مبتدئين باقدمها :

١ ـــ حقب الحياة العتيقة (الأركيوزوى) ومداه حوالى ٥٠٠ مليون سنة وهو اقدم قسمى دهر الحياة الخفية (Cryptozoic Eon) •

٢ ـــ حقب طلائع الاحياء البروتيروزوى ومداه حوالى ٥٠٠ مليون سنة وهو أحدث قسمى الحياة الخفية •

٣ ـــ حقب الحياة القديمة (الياليوزوى) ومداه نحو ٣٠٠ سنة وهو أقدم الأقسام لدهر الحياة الظاهرة (Phanerozoic Eon) ويشمل ستة عصور هى مبتدئين باقدمها :

(ا) العصر الكمبرى	Cambrian Epoch
(ب) العصر الاردوفيس	Ordovician Epoch
(جـ) العصر السيلورى	Silurian Epoch
(د) العصر الديفونى	Devonian Epoch
(هـ) العصر الكربونى	Carboniferous Epoch
(و) العصر البرمى	Permian Epoch

٤ ـــ حقب الحياة الوسطى (الميزوزوى) ومداه نحو ١٣٠ مليون سنة وهو أوسط الأقسام الثلاثة لدهر الحيـــاة الظاهرة ويشمل ثلاثة عصور هى :

(ا) العصر الثلاثى	Triassic Epoch
(ب) العصر الجوراوى	Jurassic Epoch
(جـ) العصر الطباشيرى	Cretaceous Epoch

ببطء فى قاع البحر ٠ ثم ، منذ أكثر من خمسين مليون سنة ، بدأ حقب الحياة الحديثة، وقبل أن تنقضى ملايين كثيرة من السنين ارتفعت أرض فلسطين عن مستوى البحر ، وبعد تأرجح كثير ، وصلت الى حدودها الحالية على وجه التقريب ٠ وفى ذلك الوقت لم يوجد وادى أردن أو بحر ميت وكانت مستويات الارض مختلفة جدا عما هى عليه الآن ٠ ولم تبلغ الحركات التكتونية فى القشرة الارضية نهايتها القصوى الا منذ أقل من مليونى سنة فى الشق الارضى الكبير الذى يعرف فى شكله المتحور الحالى باسم وادى الاردن ٠ وظهور هذا الشق الشمالى كان مصحوبا بارتفاعات فى الرواسب الصخرية التى كونت تلال فلسطين الغربية ٠

وطبقا للمنحنيات البيانية التى أوردها ميلانكوفيتش — كوبن — زوينر والتى تبين العلاقة بين اشعاع الشمس ومراحل عصر البلستوسين ، بدأ هذا العصر الجيولوجى ، وهو الذى تنتمى اليه كل الاثار التى امكن التعرف عليها حتى الان من مستحجرات الانسان وآلاته ، منذ أقل من مليون سنة ٠ وقد تميز عصر البلستوسين بأربع مراحل بارده رطبة تفصلها ثلاث مراحل دافئة جافة ٠ وتسمى المراحل الباردة بالعصور الجليدية « فى خطوط العرض الشمالية » ، وتسمى « بالعصور المطيرة » فى خط عرض فلسطين حيث لم يتكون الجليد بل كان هناك بدلا من ذلك هطول امطار غزيرة متزايدة ٠ وتبعا للمصطلحات الجيولوجية لمنطقة جبال الالب تسمى العصور الجليدية جينتز ، ميندل ، ريس ، فيرم، بنفس ترتيبها الابجدى فى الابجدية الالمانية وترتيبها التاريخى ،

---

٥ — حقب الحياة الحديثة (الكاينوزوى) ومداه نحو ٧٠ مليون سنة وهو احدث الأقسام الثلاثة لدهر الحياة الظاهرة . وينقسم الى سبعة عصور هى :

(أ) الباليوسين	Palaeocene Epoch
(ب) الايوسين	Eocene Epoch
(جـ) الاوليجوسين	Oligocene Epoch
(د) عصر الميوسين	Miocene Epoch
(هـ) عصر البليوسين	Pliocene Epoch
(و) عصر البلستوسين	Pleistocene Epoch
(ز) عصر الهولوسين	Holocene Epoch

(المترجمان)

بينما تسمى العصور بين الجليدية بأسماء جينتز — ميندل ، وميندل — ريس ، ريس — فيرم ، ولم توجد حتى الان مصلحات مناسبة للمراحل المطيرة والمراحل بين المطيرة لمناطق خطوط العرض الجنوبية • والموضوع كله معقد جدا بسبب حدوث كثير من التقلبات فى العصر الجليدى• ففى أوربا ، اذ كانت ثمة مراحل متعاقبة فى كل عصر جليدى ، بمعنى أن يتحدث الجيولوجيون عن مرحلتين فى عصر جينتز وثلاث مراحل فى عصر فيرم ، وهكذا • أما فى العصور المطيرة فى فلسطين حيث لم يكن هناك جليد ، فربما كانت الدورات الجوية وتغيراتها أكثر تعقيدا وطبقا لنظرية زوبنز فى التاريخ الجيولوجى انتهى عصر جينتز الجليدى منذ أقل من ٥٥٠٠٠٠ سنة بقليل ، ولذلك فأنه حتى اذا افترضنا أنه كان اقصر من ذلك بكثير فان نهايته لا يمكن أن تكون منذ أقل من نصف مليون سنة بكثير • وفى خلال العصور المطيرة كانت هناك بحيرة كبيرة أو خليج ممتد من البحر المتوسط فى وادى الاردن ، وفى العصور بين المطيرة انقطع الاتصال البحرى وانكمشت البحيرة الى حجم صغير مثل حجم البحر الميت فى الوقت الحاضر • ويوما ما ، عندما تدرس المدرجات المرلية فى وادى الاردن دراسة تفصيلية ، فانه سيمكن اثبات أو تصحيح نتائج التأريخ بالاشعاع الشمسى ، وذلك بتقدير العدد الصحيح للرقائق السنوية فى هذه المدرجات • وفى أحد التقديرات ، حسبت المدة اللازمة لترسيب أسمك هذه المدرجات ، وهو مدرج ليزان بأربعين ألف سنة •

غير أن التقدم فى التاريخ بالكربون المشع (ص ٢٦ قد أثبت فى نفس الوقت أن العصر الجليدى الاخير (فيرم — وسكونسين) قد انتهى منذ حوالى ١١٠٠٠ سنة وأنه بدأ منذ حوالى ستين ألف سنة (أو حتى أقل) وبذلك يخفض نتائج التأريخ الشمسى الى النصف • وقد تأرجحت الاراء بخصوص تأريخ أقدم آلات محددة تحديدا جيدا (من العصر الابفيلى) بما بين العصر البين جليدى الثالث والعصر البين جليدى الأول•ويميل الرأى السائد الى ترجيح تأريخه بالعصر البين جليدى الثانى• والى أن يحدث تقدم محسوس فى ايجاد علاقة بين مدرجات الانهار ومراقد الجداول (الحصباء) فى غرب أوربا ، وبين صخور الأنهار الجليدية فى الالب، فانه من غير المحتمل أن يستقر التأريخ الجيولوجى على رأى • والى أن يتم ذلك فاننا قد نقبل مؤقتا تأريخ هذه الالات بعصر

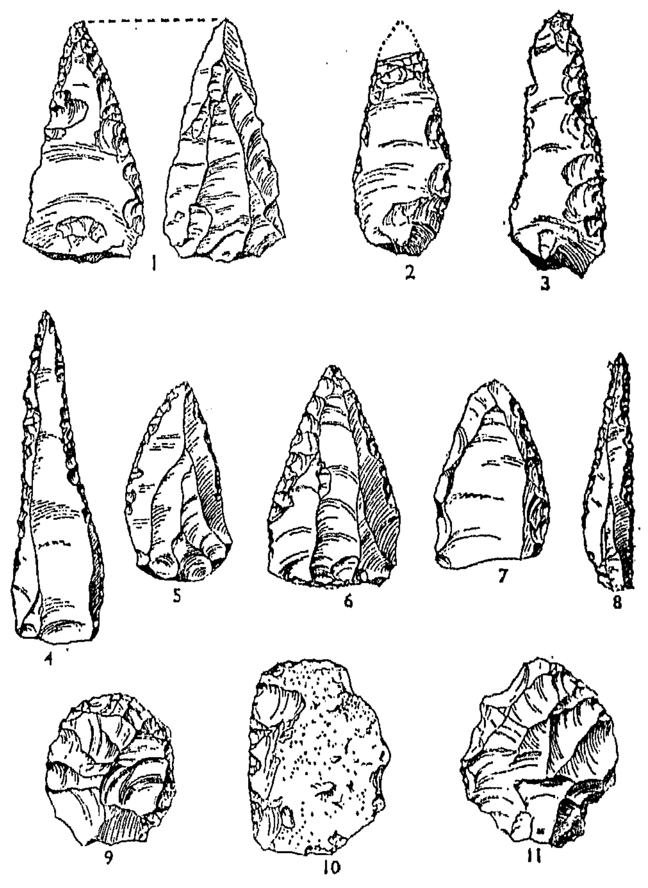
جينتنز ــ ميندل ، الذى تنتمى اليه العصور الفرنسية الابفيلى والشيلى وأقدم مراحل الاشولى التى وجدت كلها تقريبا فى مدرجات الانهــار وفى مراكز مكشوفة ، ولم توجد أول مخلفات كهفية الا فى العصر الاشولى المتأخر ، ويعنى هذا أن الظروف الجوية قد أصبحت فى ذلك الوقتغير ملائمة لدرجة ان احتمى الناس فى الكهوف ، وسرعان ما بدأوا يعيشون فيها بصفة منتظمة ، خصوصا خلال الفترة القاسية البرودة من السنة • وفى فلسطين نجد نفس الحال تماما ففى مراكز الاقامة المكشوفة نجــد فؤوسا يدوية ذات اشكال خاصة بالعصر الشيلى أو الاشولى القديم ولم توجد المخلفــات الكهفية الا فى المراحل الاخيرة للعصر الاشولى •

واقدم صناعة للصوان فى الكهوف التى كشف عنها كل من مس جارود ونيــفى تمــاثل تمــــاما تلك التى وجــدت فى تايا الفرنســــية • واعقبت هذه الصناعة فى الكهوف الفلسطينية عدة مراحل للحضـــارة الاشولية ، وكان أقدمها مختلطا بحيوانات مميزة للجو الاســـــتوائى الرطب • وهذه الفترة تقابل على وجه التقريب عصر ريس الجليدى الذى ارخه زوينر بمنذ حوالى ٢٣٠٠٠٠ ــ ١٨٠٠٠٠ سنة ، ولكنه قــد يكون أحدث من هذا التأريخ بكثير • وبعد هذه المرحلة الاشولية الرطبة جاءت عدة مراحل أخرى من نفس الحضارة كان الجو يميل اثنــاءها الى التحول الى ظروف أكثر جفافا فى العصر البين مطير الذى يقابل تقريبا عصر ريس ــ فيرم البين جليدى ، وبانتهاء هذه المرحلة وصــل العصر الحجرى القديم الاسفل الىنهايته • ولسنا نعلم حتى الان ماهية الجنس الفرعى للانسان الذى قام بصنع هذه الالات والاسلحة ، وهى التى أمكنه بواسطتها الابقاء على حياته ووجوده فى صراعه ضــــد الوحوش المهولة من خراتيت وجواميس النهر والفيلة وثيران الكهوف التى وجدت عظامها فى نفس المنسوب الارضى •

وتنتمى الى العصر الحجرى القديم الاوسط مجموعة من الحضارات الصوانية التى وجدت فى عدد من الكهوف التى كشف عنها فى جهات

مختلفة من فلسطين ، ويشبه بعضها بعضا تشابها كبيرا (شكل ٧) • وتتشابه هذه الحضارات مع الحضارتين الموستيرية واللفلوازية الفرنسيتين ولكنها لا تطابق أيا منهما تماما ، ولذلك فقد أطلق عليها المكتشفون اسم لفلوازى — موستيرى (شكل ١) • وفى هذا العصر حلت الادوات المصنوعة من الشظايا محل الفؤوس اليدوية ، وحدث تقدم غير عادى فى المهارة الفنية فى التشظية • وكان الجو فى العصر اللفلوازى — الموستيرى المبكر جافا دافئا ، وكانت ثمة مستنقعات واسعة (لا أنهار) حيث ترعرعت التماسيح ، وفى رواسب متأخرة عن هذا الوقت بقليل (أرخت أولا بما بين ١٥٠٠٠٠ و ١٢٠٠٠٠ سنة ، ولكنها مؤرخة حاليا بما بين ٥٠٠٠٠ و ٤٠٠٠٠ سنة تقريبا) ، وجدت الانسة جارود وماك كاون عددا من مستحجرات الهياكل البشرية ، ثم وجد نيفى بعد ذلك بعضا آخر منها فى الجليل • ولدهشة العلماء ، ثبت أن انسان الكرمل يمثل سلالة مختلطة وسطا بين الانسان القديم (انسان نياندرثال) Homo neanderthalensis والانسان العاقل Homo sapiens ويوضح عدة مراحل للتطور بين هاتين السلالتين •

ونظرا للصفات النياندرثالية الصرفة للعديد من الهياكل الموستيرية التى وجدت حتى الان فى أوربا يمكن تفسير هذا الخليط من الاجناس فقط بأن فلسطين كانت قنطرة بين القارات ، حيث نتوقع بداهة وجود خليط من السلالات • ويظهر ان الانسان العاقل (هومو سابينز) قد رحل من الجنوب الشرقى الى أوربا دافعا أمامه انسان نياندرثال ، ومتزاوجا فى نفس الوقت مع هذا العدو المقهور • وكان من نتائج هذا الكشف تأييد علماء الوراثة الذين يصرون على أنه من الخطأ اعتبار الانواع المختلفة لانسان ما قبل التاريخ أجناسا مختلفة • ولما كان من الواضح الان أن هذه الانواع قد تزاوجت فيما بينها ، فانها كانت على أكثر تقدير فروعا لجنس واحد هو جنس الانسان • وليس ثمة مكان فى العلم لتفاخر جنس أو سلالة على جنس آخر • ومع ذلك ، فعندما قال فرانز فيدنرايخ على سبيل المزاح ، فى مؤتمر العلماء الانثروبولوجيا الطبيعية (علم الاجناس البشرية) فى كوبنهاجن قبل الحرب العالمية الثانية مباشرة ، أنه يبدو أن الانسان العاقل قد جاء من فلسطين الى شمال أوربا ، ثار مندوب النازى وخرج من غرفة الاجتماع •



شكل (١) أدوات مصنوعة من الصوان
من العصر اللفلوازى ــ الموستيرى الاسفل
(نقلا عن دورثى جارود)

وقد استمرت الحضارة اللفلوازية ــ الموســتيرية حتى فتــرة باردة رطبة ، من المؤكد أنها تتفق مع آخر عصر جليدى فى أوربا هو عصر الفيرم • وفى خلال هذه الفترة حلت محل هذه الحضارة ، الحضارة الاوريانيسية ، وهى احدى حضارات العصر الحجرى القديم الاعلى • وفى هذه الاثناء مرت فلسطين بتغيرات جوية عنيفة خلال ثلاث مراحل متعاقبة من مراحل عصر الفيرم ، تؤرخ حاليــا بمــا بين ٦٠٠٠٠ و ١١٠٠٠ سنة • وكانت الحضارة الاوريانيسية أغنى كثيرا فى أشكال آلاتها الصوانية من الحضارة الموستيرية • ومن الجزء الاخير للحضارة الاوريانيسية الاوربية وجدت فى الكهوف صور ملونة مدهشة لوحوش ما قبل التاريخ التى استمرت حتى فترة الحضارة المادلينية فى نهاية

العصر الحجرى القــديم الاوربى • ولم يــكشف فى فلسطين أو فى الاراضى المجاورة لها عنأى شىء مشابهلصور الكهوف هذه ، ولهذا فانهلا يمكن الحكم عما اذا كان عدم ظهورها هو عن طريق الصدفة أم هناك تفسير آخر • وكان من المعتقــد الى حين أنه كان يوجــد افريز من حيوانات ما قبل التــاريخ فى أم القطافة ، غير أنه اتضح أن ذلك كان خداع بصر ، ارضاء لاعتقاد الجيولوجيين الذين كانوا مهتمين بدراسة توزيع الوحوش من مختلف العصور والاجواء •

ولم تستطل فترة الحضارة الاوريانيسية فى فلسطين مثلما استطالت هذه الفترة فى أوربا • وربما قبل أن تحل الحضارة السوليتيرية محــل الحضارة الاوريانيسية فى أوربا بوقت طويل ، حلت محل حضارة العصر الاريانيسى الاوسط بفلسطين حضارة صوانية أقل تطورا منها وهى التى سمتها مس جارود « اتلينيه » ، ولها صفات كثيرة مشتركة مع حضارة العصر الأوريانيسى الاعلى فى أوربا • وكان معظم علماء ما قبل التاريخ يعتقدون من قبل أنه كانت توجد فجوة متسعة من الوقت بين العصر الاوريانيسى فى فلسطين وبين المراحل العلوية للعصر الحجرى المتوسط (التى عرفت من المكتشفات السطحية التى عثر عليها الاب جيرمر — ديران وآخرون) ، وهى الحضارات التى كانوا يتوقعون أن يجدوا منها آثارا تشبه آثار الحضارة السوليتيرية والمادلينية الاوربيتين • غير أن هذه الفجوة قد ملئت بسرعة فى السنوات السابقة للحرب العــالمية الثانية ، ومع ذلك لم يعثر حتى الان على آثار تشبه آثار هاتين الحضارتين الاوربيتين ، وتفسير ذلك ببساطة ، أن الحضارة المادلينية فى فلسطين كانت مختلفة عما كانت عليه فى أوربا خلال هذين العصرين ، ولم تتلاق الحضارة فى كلا المكانين مرة أخرى الا بعد هذين العصرين بكثير • ويمدنــا الان التــأريخ بالكربون المشــع بتسلسل أدق كثيرا لتواريــخ هــذا العصر (الاوريانيسى) تؤيد الادلة المســتمدة من التتابع السنوى لطبقات التربة وهى الطــريقة الاسكنديناويه للتأريخ Scandinavian Varves التى كانت معروفة من قبل طريقة التــأريخ بالكربون المشع ولكن لم يعرها أحد اهتماما كبيرا • وبناء على ذلك لابد وأن يؤرخ العصر الاوريانيسى فى فلسطين بما يقابل الجزء الاخير من عصر الفيرم الجليدى بأوربا أى منذ ٣٥٠٠٠ الى ١٥٠٠٠ سنة • ويرجح كثيرا أن الحضارة كانت فيه أكثر تقدما عمــا كانت عليــه فى العصر

الاوريانيسى الاوربى ، اذ ربما كانت فلسطين أقرب الى مركز الاشعاع الحضارى .

وقد استكملت تدريجيا حلقات التطور فى فترات ما بعد العصر الحجرى القديم Epi Palaeolithic أو أوائل العصر الحجـرى المتوسط (الميزوليثى) فى فلسطين ، ولو أن عـدم نشر دراسات مفصـلة عن المكتشفات يجعل من الصعب علينا أن نكون متأكدين من الاسس التى نرتكز عليها . ويذكر نيفى أنه عثر فى مغارة الخيام G. - F. على صناعة يبدو أنها كانت وسطا بين الحضارة الاتليتية والحضارة القفصية المعاصرة لها فى شمال افريقية ، وهو يبوبها بصفة قاطعة مع الحضارة القفصية ، ويعتبر أنها لم تعد بعد تابعة للعصر الحجرى القديم . ثم تأتى بعد ذلك حضارة كباران التى كشف عنها تورفى — بيتر واستمرت هذه الحضـارة فى صـناعة الالات الصوانيـة الدقيقـة الحجـم (ميكروليثية) التى تتميز بهـا الحضـارة القفصية Capsian ، بل واستمرت فى تحسينها وتطويرها . ويمكن تأريخ هذه الصناعات بما بين ١٢٠٠٠ و ٩٠٠٠ ق.م. تقريبـا ، ومن المحتمل أنها كانت تعـاصر الحضارتين المادلينية والازيلية الاوربيتين . ويبدو أنه حدث بعد ذوبان آخر جليد فى أوربا بوقت قصير ، أن ظهرت الحضارة التى يتميز بها العصر الحجرى المتوسط فى فلسطين وهى التى أطلقت عليها مس جارود اسم الحضارة النطوفية . ولما كانت الالات الهلالية المميزة للحضـارة النطوفية قد ظهرت أيضا فى حضارة العصر الحجرى المتوسط فى أوربا (التارد نوازية) ، بل وظهرت أيضـا على وجـه أخص فى العصر الحجرى المتوسط بجنوب افريقيا ، فانه لا يزال من المتعذر جدا معرفة مصدرها الاصلى . ووجدت حضارة تطابقها تماما فى حلوان جنوبى القاهره ، كما وجدت بعثة جامعة كاليفورنيا سنة ١٩٤٧ مركزا حضاريا مماثلا لها فى شبه جزيرة سينا على بعد سبعين ميلا شرقى الاسماعيلية. وكانت الحضارة النطوفية الفلسطينية حضـارة ميـكروليثية بالمعنى الصحيح تتكون من نصال صوانية وآلات مدببة وأخصها مـا يسمى بالنصل القمرى Lunar ، وهو نصل هلالى أو على شـكل قوس ربما استخـدام كراس لسـهام من البـوص ، وبالاضـافة الـى ذلك توجد بها أيضا كثير من مناقيش ذات أطراف مدببة . ومن أهم الالات الصوانية الكبيرة الحجم فى هذه الحضارة ، نصال المناجل والمعـاول Picks مما يدل على الحياة الزراعية فى الحضارة النطوفية ، وعلى

أنها كانت حينئذاك على علم بحصد الحبوب مما استلزم استخدام مناجل بصفة منتظمة • فقد كشفت مس جارود وكذلك كشف تورفى — بيتر عن مناجل كاملة أو مكسورة من العظم ، تزين مقابض المناجل الكبيرة منها رؤوس حيوانات منحوتة ، بينما ثبتت بنصالها أسنان صغيرة من الصوان تمتد من طرف النصل الى طرفه الاخر • وبمرور الوقت حدثت تعديلات فى شكل المنجل ، غير أن نفس التكوين ظل ساريا فى فلسطين حتى بدء العصر الحديدى • وبعض الالات التى سمتها مس جارود معاول Picks هى أقرب الى الفؤوس hoes التى استخدمت لعزق الارض قبل بذر الحبوب ، ومن هذا يتضح أن أقدم النطوفيين الذين أمكن العثور على آثار لهم كانوا بلا شك فى أول مرحلة بدائية لحضارة الفأس hoe-culture ، ولذلك فانهم كانوا منتجى طعام كما كانوا فى نفس الوقت جامعى طعام ، الا أنه من جهة أخرى ليس ثمة دليل على استئناسهم لاى حيوانات فيما عدا الكلب الذى عثر على جمجمة بديعة له ، وهذا الحيوان الكاسر كان ذا حجم متوسط ويبدو أنه نشأ عن استئناس حديث نسبيا لنوع منقرض من ابن آوى •

وكان النطوفيون أنفسهم من شعوب البحر المتوسط القديمة ، التى تتميز بهياكل عظمية نحيلة ، ورؤوس مستطيلة dolichocephalis ، وتقاطيع دقيقة ، ومتوسط طول الرجال يزيد قليلا عن خمسة أقدام • وحيث أنه وجدت هياكل بشرية مشابهة جدا لهذه الهياكل فى حضارة البدارى فى مصر ، وكذلك من العصر النحاسى المتأخر فى جازر وجبيل (بيبلوس) ، فانه يبدو أن هذه الشعوب انتمت الى أسلاف السلالة السامية — الحامية التى لم تكن قد أصبحت بعد منقسمة الى مجموعات متباينة بعضها عن بعض تباينا واضحا لغويا وقوميا كما حدث فيما بعد • ولعل التغير الوحيد الملحوظ فى الصفات الجسمانية حدث فى الطول غير أنه من المعروف تماما الان أن التحسن فى التغذية لبضعة أجيال قليلة جدا تنتج عنه زيادة محسوسة فى الطول • ولما كان النطوفيون لا يزالون أساسيا جامعى طعام بالرغم من اكتشافهم للزراعة ، فاننا لن نعدو الحقيقة اذا ما فرضنا أن معظم طعامهم كان من صيد البحر وصيد البر ، لكن صيد السمك بالحراب وقنص الغزلان بالاستعانة بكلاب الصيد لم يكونا لينتجا طعاما بصفة منتظمة تماما يكفى لشعب يتزايد بسرعة • وكان النطوفيون فى ذلك الحين على دراية تامة بالاغراض الرئيسية التى استخدم فيها

العظم فى العصور القديمة التالية لهم ، اذ كانت لديهم منه دبابيس ومخارز ودلايات وخرز وغير ذلك ، وقد أشرنا فيما سبق الى مناجلهم الشهيرة ذات المقابض المنحوتة من العظم ، ويمثل أحد هذه المقابض حيوانا صغيرا • ووجدت من هذه الحضارة أيضا ، أهوان وأيادى أهوان من الحجر ، ومن الواضح أنها استخدمت ولو جزئيا على الاقل ، فى تجهيز الحبوب •

وقد أظهرت التنقيبات التى أجراها جان برو فى عينان بالقرب من بحيرة الحولة سنة ١٩٥٦ ، أن رجال العصر النطوفى المبكر كانوا فى ذلك الحين يشيدون منازل أساساتها وأرضياتها من الحجر ، وأصبحت لهم تقاليد محكمة فى الدفن وتزويد المقبرة بالاثاث الجنائزى ، وكشفت كاثلين كينيون عن بقايا مماثلة أيضا تحت مناسيب العصر الحجرى الحديث فى أريحا ، وقد أرخت هذه البقايا بطريقة الكربون المشع بحوالى ٧٨٠٠ ق • م • وحيث أن أقدم تاريخ لفترة ما قبل الفخار تقع بعد ذلك بحوالى ألف سنة ، فانه يمكن تأريخ مناسيب العصر النطوفى الاعلى التى ذكرها نيفى بناء على دراسته للكهوف ، بالالف السابعة قبل الميلاد • وفى هذا التاريخ يأتى أيضا عصر ما قبيل الحجرى الحديث Proto Neolithic الذى ذكرته مس كينيون والذى يتشابه مع حضارة العصر النطوفى المبكر أكثر مما يتشابه مع الحضارة الطاحونية •

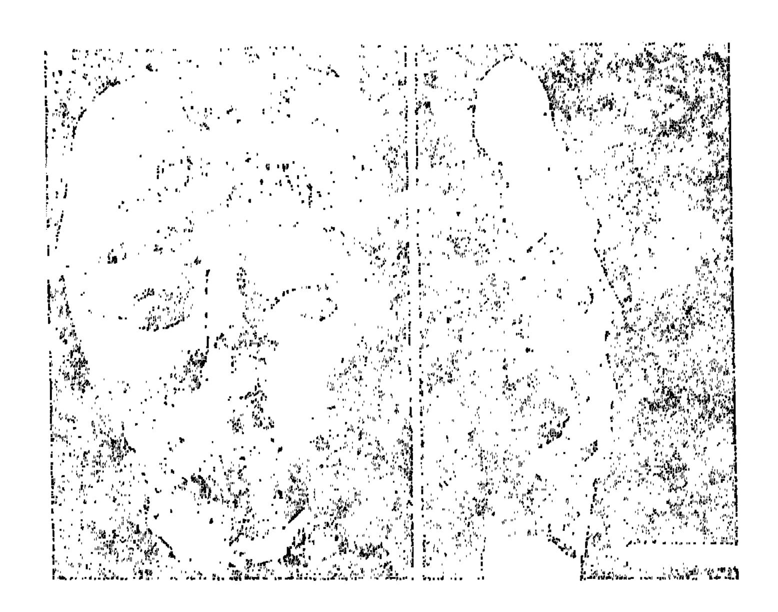
وقد تلا هذا العصر ، عصر ما قبل الفخار فى العصر الحجرى الحديث الذى يمثل مرحلة جديدة تماما من الحضارة لم تكن معروفة قبل أن يكشف عنها جارستانج لاول مرة فى أريحا عام ١٩٣٥ ، ولم يعترف بها بصفة عامة الا بعد الكشوفات المثيرة التى قامت بها مس كينيون بعد ذلك بعشرين سنة • وقد ثبت أن أريحا كانت خلال معظم الالف السابعة والالف السادسة قبل الميلاد جيدة البناء ، ومحاطة بأسوار من الحجر ، وفيها أمكن تمييز مرحلتين من مراحل حضارة ماقبل الفخار فى العصر الحجرى الحديث ، لاشك أن كل مرحلة منهما قد استمرت عدة قرون • وتميزت أولاهما بقوالب من اللبن على شكل ظهور الخنازير hog-back brichs ، وتميزت الثانية بأرضيات متتابعة من الملاط لا يقل عددها عن أربع عشرة طبقة فى بقعة واحدة • وقدر عمر الطبقات المتتابعة بطريقة الكربون المشع مرات عدة ، ويبدو من

النتـــائج أن الطبقة الثانية قد هجرت فى أواسط الالف الســـادسة •
ولمـــا كانت أوربا لم تزل فى العصر الحجرى المتوسط خلال معظم فترة ما قبل الفخار فى أريحا ، فاننا لابد وأن نسلم بأن أوربا كانت متأخرة كثيرا جدا عن فلسطين فى ذلك الحين •

وأريحا هى أول مركز لحضارة ما قبل الفخار فى العصر الحجرى الحديث ، له صفات مدنية تم الكشف عنه فى العالم القديم ، غير أنه مما لا شك فيه أن كانت هناك حضارات مماثلة منتشرة انتشارا واسعا فى كل من الشرقين الادنى والاوسط فيما بين ٧٠٠٠ و ٥٠٠٠ ق • م •
وقد حددت مواقع عدد من قرى ما قبل الفخار فى شمال شرقى العراق ، وكشف بريد وود R.J. Braid Wool عن أحد هذه المواقع وهو قلعة جارمو ، كما حددت أماكن مواقع مماثلة على طول الطريق من باكستان الى تساليا• كما أن خيروكيتا فى قبرص هى أيضا موقع لحضارة ما قبل الفخار فى العصر الحجرى الحديث ، ولابد أن يكون تاريخه أقدم من التـــــاريخ الذى حـــدده له المكتشف ، وهو حـــوالى ٣٧٠٠ — ٣٤٠٠ ق • م • بما لا يقل عن ألف سنة • وفى معظم الاماكن ، يبدو أن حضارة ما قبل الفخار فى العصر الحجرى الحديث ، تقع على عمق كبير مطمورة تحت غرين وديان الانهار ، لكن فى أريحا تقع منطقة السكنى خارج المنطقة الزراعية التى ترويها مياه عين السلطان ، ولذا كان من الممكن حفـــرها حتى مرقد المرل (الطـــين أو الرمل الطينى حينمـــا يكون مشوبا بكربونات الكلسيوم) دون الوصول الى المياه الارضية •

وفى أريحا نجد أقدم بيوت ومعابد مستديمة معروفة لنا حتى الآن ، جدرانها من جواليص الطين أو من الطـــوب اللبن المستدير الصغـــير الحجم • واحتوى المعبد على بوابة كانت فى الاصل محمولة على ستة أعمدة خشبية ، وغرفة أمامية متسعة وحجرة داخلية كبيرة • وفى هذا المبنى وحوله لم توجد المستلزمات المنزلية العادية ، بل وجد بدلا منها كثير من التماثيل الصغيرة لحيوانات مثل الغنم والماشية الكبيرة والماعز والخنازير ، كمـــا وجدت أيضـــا نماذج من المرل لأعضاء التذكير وغيرها•
ونذكر بهذه المناسبة ، أنه وجد من الحضارة النطوفية فى مغارة الواد عضو تذكير من الصوان المنحوت نحتا جيدا ، ولذلك فقد كانت عبادة عضو التذكير معروفة من قبل فى فلسطين •

وكان أهم ما عثر عليه من مرحلة ما قبل الفخار فى العصر الحجرى الحديث فى أريحا ، تماثيل بشرية من المرل يبدو أنها كانت على شكل مجموعات ، تتكون كل مجموعة منها من رجل وامرأة وطفل • وقد صنعت هذه التماثيل بتلبيس الحوّاره (مرل جيرى محلى) على تصليبه من البوص التى تكوّن نوعا من الهيكل الداخلى ، وكانت نسب تشكيل أجزاء الجسم فيها عادية ، ويبلغ حجمها ثلثى الحجم الطبيعى فى الطول والعرض ، لكنها رقيقة جدا فى السمك • والامثلة المنشورة من هذه التماثيل ليس لها نظير معروف من العصور الاقدم منها او الاحدث (شكل ٢) •



شكل ٢ تمثال من المرل من مرحلة ما قبل الفخار فى العصر الحجرى الحديث فى اريحا

وتنتشر فى فلسطين ، وخصوصا فى شرق الأردن ، حقول دولمن عديدة كبيرة وصغيرة • والدولمن [1] (من الكلمات القديمة التى تعنى « حجر » أو « مائدة ») مبنى يتألف أساسيا من قطع ضخمة من الحجر

---

(١) الدولمن dolmen اسم اطلقه الفرنسيون على مسكن الانسان فى عصر ما قبل التاريخ ويتكون من قطعتين أو أكثر من الاحجار القائمة تحمل فوقها قطعة اخرى مسطحة لتكون بمثابة السقف .

مقامة بعضها بجوار بعض لتكوين جدران غرفة أو ممر أو مجموعة من الغرف ، ثم وضعت فوقها قطع ضخمة أخرى لتكوين السقف . وكان كل المبنى فى الغالب مطمورا فى كومة من التراب أو الحجارة . وبالاضافة الى هذه المبانى ، توجد أيضا صفوف من أحجار مرتفعة ضخمة : منهيرات [٢] ودوائر حجرية [٣] وغير ذلك . كما كشف عن تحصينات ضخمة قليلة لها نفس الاسلوب فى البناء . والصفة المميزة لكل الانشاءات من هذا النوع التى تمت دراستها حتى الان ، هى عدم وجود فخار بها ، كاملا أو على هيئة شقف ، على أنه عثر على أوان قليلة من عصور تاريخية متأخرة وعلى بعض قطع من الشقف الحديث نسبيا فى دولمينات مفتوحة أو بالقرب منها . وتوجد انشاءات ميجاليثية (أى مشيدة بأحجار ضخمة) الجزء الرئيسى منها من الدولمينات ، فى بقاع كثيرة فى أوراسيا (أوربا وآسيا) ، ويمكن تأريخ ما يقع منها فى الشمال الغربى لاوروبا،بما بين الالف الخامسة والالف الثالثة،بينما قد يرجع تاريخ المعابد الميجاليثية ، مثل ستون هينج Stonehenge الى الالف الثانية قبل الميلاد . وحيث أن دولمينات فلسطين تتفق فى الشكل أو النمط مع دولمينات العصر الحجرى الحديث أكثر مما تتفق مع دولمينات العصر البرونزى فى أوربا ، فانه يمكن تأريخها بلا تردد بالعصر الحجرى الحديث الفلسطينى ، أى فيما بين ٧٠٠٠ و ٤٠٠٠ (وربما ٤٥٠٠) ق.م. ، ومن المؤكد أن هذه الدولمينات قد بنيت على نمط المنازل التى عاش فيها الناس ، وقد تردد هذا القول بين الحين والاخر ، غير أنه يمكن الان اثبات ذلك بحيث أصبح بعيدا عن كل شك بفضل التنقيب الذى قام به ويشتر J. d'A. Waechter وسيتون ويليامز V. A. Seton Williams فى وادى دوباى جنوب شرقى عمان (١٩٣٧ — ١٩٣٨) ، فقد وجدا هناك ادوات حجرية مثل تلك التى وجدت من الحضارة الطاحونية فى فترة ما قبل الفخار فى أريحا

---

(٢) منهير menhir كلمة اطلقها اهل ويلز على قطعة ضخمة من الحجر تقام على هيئة أثر وتتركب الكلمة من men بمعنى حجر ، hir بمعنى ضخم أو طويل لغرض دينى .

(٣) الدوائر الحجرية Stone-circles تطلق على مجموعة من الاحجار السابقة المرصوصة على شكل دائرة لاغراض دينية .

(المترجم)

ومعها أكواخ مشـيدة بوضع قطـع من الحجـر الجيرى على الحـافة لتكوين أشكالدائرية تقريبا • وعلاوة على ذلك ، كشف جارستانج عام ١٩٤٧ ، فى مناسيب فترة مابعد الفخار فى العصر الحجرى الحديث بمرسين فى كيليكية عن مبان « ميجاليثية » شيدت بوضع كتل ثقيلة من الحجر جنبا الى جنب ثم وضع كتل أخرى فوقها لتكوين الجدران • وشيدت بهذه الطريقة كل من الغرف والممرات ، وقد يزن الحجر الواحد عدة أطنان • واذا كانت ثمة حاجة الى مزيد من الادلة لتأييد التاريخ المبكر للدولمينات الفلسطينية ، فانه من السهل ايرادها : وعلى سبيل المثال ، لا يمكن أن يكون قد تم بطريق الصدفة حفر مقـابر الغسوليين (التى كشف عنهـا ستكليس Stekelis) فى الارض ، وتبطينها بالاحجـار ، ثم تغطيتهـا بقطع صـغيرة • وهـذا الاسـلوب فى البناء يشبه فى جوهره المبانى الميجاليثية ، فيما عدا أن الاحجار صغيرة ويمكن لرجل واحد ان يحملهـا •

وتلت فترة ما قبل الفخـار فى العصر الحجرى الحديث فى فلسطين فترة استخدام الفخار التابعة لنفس العصر ، وتمثلها أحسـن تمثـيل أريحا (٩) ، وخصوصا فى التنقيبات التى أجراهـا ستكليس فى وادى اليرموك حيث عثر على بقايا هامـة جدا من حضارة شعـار هاجـولان اليرموكيـة التى يرجع تاريخهـا الى أواسـط الالـف الخامسـة • والفخار مزين فى الغالب بزخارف على شكل العمود الفقـرى للسمك ، كما وجدت بعض كميـات من تماثيل حجـرية منحوتة نحتا خشنا •

الفصل الرابع

فلسطين فى العصر الكالكوليثى والعصر البرونزى المبكر

نستمد معظم معلوماتنا عن العصر الكالكوليثى فى فلسطين من التنقيبات التى قام بها الاباء اليسوعيون فى طليلات الغسول فيما بين ١٩٢٩ و ١٩٣٨ التى سبق ذكرها (ص ٥٢) . حقيقة كان هناك تضارب فى الرأى بين علماء الاثار بالنسبة لتاريخ هذه الحضارة ، غير أنه قد تم الوصول الى رأى حاسم بالنسبة لهذا الامر قبل بدء الحرب العالمية الثانية بفضل عدة اكتشافات لفخار غسولى تحت المناسيب الخاصة بالعصر الكالكوليثى المتأخر والعصر البرونزى المبكر . ويمكننا الان تقسيم العصر الكالكوليثى الى ثلاثة مراحل رئيسية هى : العصر الكالكوليثى المبكر (ويشمل بصفة خاصة أريحا (٨) وعدة مواقع فى وادى غزة فى الطرف الجنوبى لفلسطين) ، والعصر الكالكويثى المتوسط (الغسولى) ، والعصر الكالكوليثى المتأخر (ويشمل على الاخص عزدرايلون والطبقة الخاصة بهذا العصر فى بيرشيبا) . الا أنه لا يزال غير معروف على وجه التحديد أين يقع الحد الفاصل بين العصر الحجرى الحديث والعصر الكالكوليثى المبكر ، كما أن هناك اسبابا معقولة لمعارضة الرأى السائد الان بامتداد العصر البرونزى المبكر حتى يشمل القرن الاخير أو القرنين الاخيرين للالف الثالثة قبل الميلاد . وثمة أيضا اعتراضات على الاسم كالكوليثى الذى يعنى « نحاس (أو برونز) ــ و ــ حجر » ، والواقع أن حجر الصوان استمر استخدامه لصنع السكاكين حتى نهاية الالف الثالثة ، واستمر صنع حواف المنجل من قطع الصوان حتى أوائل عصر الحديد . ويميل بعض العلماء الى الاعتقاد بأن النحاس كان معروفا فى أوائل العصر الحجرى الحديث نفسه ، غير ان المؤلف يرى ان هذا الاعتقاد غير محتمل بالمرة ، اذ عرف النحاس لاول مرة فى غضون الالف الخامسة وربما فى حوالى ٤٥٠٠ ق.م . غير أنه اصبح بعد قرون قليلة أكثر شيوعا من الحجر وحل محله فى صنع رؤوس الفؤوس ورؤوس السهام ، واختفت الرؤوس الحجرية

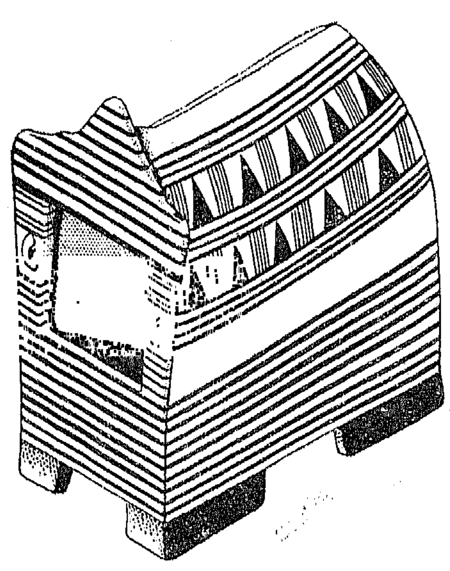
للسهام قبل العصر الغسولى ، واختفت رؤوس الفؤوس الحجرية ذوات الحواف المشطوفة طبقا لما كان متبعا فى العصر الحجرى الحديث بعد العصر الغسولى (ولو أن رؤوس الفؤوس الحجرية المصقولة صقلا كاملا استمر استخدامها بين الحين والاخر حتى زمن متأخر فى العصر البرونزى) •

والى ان يتم الكشف عن المناسيب السفلية للتلال الاخرى بوادى النهر ، ربما يجب أن تظل أريحا (٨) معتبرة أقدم طبقة معروفة من العصر الكالكوليثى ، ويمكن تأريخها بصفة مبدئية بحوالى اواخر الالف الخامسة • وفخار هذا المنسوب يختلف اختلافا بينا عن فخار العصر الحجرى الحديث السابق له فى الطبقة أريحا (٩) • ففى أريحا (٩) كان الطين يخلط بالتبن لتحسين قوامه ، بينما نجد فى أريحا (٨) أن الطين قد خلط بحبيبات كبيرة وصغيرة من الحجر بدلا من التبن • والالات الصوانية فى أريحا (٨) لها نفس الطراز الخاص بالعصر الحجرى الحديث ولا تزال تشمل رؤوس سهام عديدة من الصوان • وحتى فى الطبقات السفلى من العصر الغسولى التى لم تحفر بعد ، يلاحظ أن رؤوس السهام قليلة ورديئة الصنع ، وعندما نصل الى المنسوبين العلويين فى نفس هذا الموقع نجد انها قد اختفت تماما كما ذكرنا انفا • ومعظم طبقة مجدو (٢٠) ، وبعض مراكز العمران المبكرة فى غزة ، والالات الصوانية والاوانى الفخارية التى كشف عنها ستكليس فى مغارة أبو عصبة ، ربما تكون كلها أيضا أمثلة من فترة ما قبل المرحلة الغسولية فى العصر الكالكوليثى • وفى ١٩٤٦ — ١٩٤٧ اكتشف دى فو R. de Vaux رواسب العصر الكالكوليثى المبكر من نفس فترة ما قبل الغسولى (هكذا ذكر) فى آخر طبقة سفلى فى تل الفرعه فى الشمال الاوسط لفلسطين •

ويمكننا تأريخ العصر الغسولى بأواسط الالف الرابعة ق•م• ويرجع تاريخ الطبقتين اللتين تم الكشف عنهما حتى الان فى غسول نفسها الى تاريخ متأخر نسبيا فى هذا العصر لكنه يقع قبل ٣٩٠٠ق•م•• وحضارة هذا العصر التى ربما كانت تعاصر على وجه التقريب بداية حضارة العمره فى مصر (تأريخ تتابعى ٣٠) وأواخر حضارة حلف أو أوائل حضارة العبيد فى شمال بلاد ما بين الرافدين ، كانت متقدمة جدا فى

بعض النواحى ، اذ عاش الغسوليون فى مساكن جيدة ، شيد بعضها بطوب من اللبن مشكل يدويا ومجفف فى الشمس ، على اساس من الحجر من نفس المنطقة ، وشيد بعضها الاخر بأكمله باللبن ، وكانت سقوفها من الخشب الذى انهار عندما دمرت هذه البلدة بسبب الحريق • وكان كثير من الجدران اللبن مغطى بصور متعددة الالوان انقذ المنقبون بعضا منها • وانه لمن الغريب حقا أن يبلغ فن الزخرفة الهندسية الملونة درجة عالية من التنسيق والابداع فى أوائل الالف الرابعة فى فلسطين وسوريا وما بين الرافدين أكثر مما بلغه بعد ذلك بالاف السنين • وان تنوع الزخارف ذات الالوان المتعددة على السطح الداخلى للاوانى أو الاوعية والصحاف فى أيام حضارة تلحلف ليعد نفوسنا لاستقبال الفريسكو المركب المدهش المتعدد الالوان الذى وجد فى طليلات الغسول ويمثل نجمة ذات ثمانية فروع مدببة • وحول النجمة توجد أجزاء من خلفية معقدة للصورة ، تحوى رسوما دقيقة لحيوانات خرافية وأشكال هندسية • وثمة لوحة ملونة أخرى محفوظة حفظا جيدا ، تمثل طائرا ملونا يحاكى الطبيعة فى كل تفاصيله حتى أنه لا يمكن أن يوجد لها مثيل فى العصور المبكرة التالية فيما عدا مصر • وهناك أيضا لوحة أخرى ملونة ولكنها تالفة ، يبدو أنها تصور حفل استقبال من نوع ما ويظهر فيها رجل يواجه اليمين بينما يجلس أمامه شخصان يضع كل منهما قدميه على موطىء للقدمين ذى اربعة أرجل ، تماما كما صور فى العصور المتأخرة ، ولما كان أول هذين الشخصين يلبس حذاء مطرزا فلعله يمثل سيدة من طبقة الاشراف أو الهة • ولم يمكن التعرف حتى الان على مبنى يمكن أن يكون معبدا • وقد قام ستكليس بالتنقيب الجزئى لجبانة غسول ، وقد حوت أضرحة تبطنها من الداخل وتكسوها من الخارج حجارة يذكرنا شكلها وموضوعها بالدولمينات الميجاليثية (التى سبق ذكرها) ولو أنها اصغر منها بكثير جدا •

وفى سنة ١٩٣٤ كشف سوكنيك Sukenik عن مدفن على شكل كهف بالقرب من الخضيرة فى سهل شارون ، وعثر فيه على صناديق من الطين ، وفخار ، وعدد من صناديق ملونة من الطين مشكلة على هيئة بيوت (شكل ٣) • وقد استخدم هذان النوعان من الصناديق لحفظ عظام الموتى بعد فناء لحومهم • وكان الفخار يماثل الفخار الغسولى تماثلا كبيرا • والصناديق (أو المقابر) التى تشبه البيوت ترتكز على



شكل ٣ . مدفن من الطين مشكل على هيئة بيت
من العصر الكالكوليثى . من الخضيرة

أربعة ارجل مثل توابيت حفظ رماد الموتى فى المانيا فى العصر البرونزى التى تتشابه معها أيضا فى بعض ملامح أخرى . ومع ذلك ، كانت المساكن المستطيلة ذات الاعمدة التى لها سقوف مسنمة (سقوف جملون) وأبواب مضلعة ، شائعة فى مختلف المناطق والعصور ، ولذلك ليس من الصواب ايجاد علاقة مباشرة بينها وبين طراز الصناديق التى تشبه هذه البيوت . ولا شك ان شارون كانت فى أوائل الالف الرابعة ، كما كانت أيضا فى العصر النطوفى الاقدم كثيرا من هذا التاريخ ، منطقة كثيرة المستنقعات جدا ، ولذلك لم تكن ملائمة لهذا الطراز من المساكن الذى كان ملائما جدا للسكنى فى الوادى الجاف شمالى البحر الميت . ولعله يكون من المفيد ان نعرف بالضبط ماهية التغيرات الجوية التى أدت الى هجر مواقع مثل غسول التى تقع بعيدا فى سهل الاردن حيث كان يتعذر رى الارض دون بذل جهود جبارة . ويبدو مؤكدا ان كانت هنالك جداول مياه جانبيه تفيض فى نهر الأردن أكثر عددا مما يفيض فيه الآن ، كما وأنها كانت تفيض فيه وقتا أطول كل عام قبل أن تجف . وبعد هذا العصر نجد أن مراكز العمران فى وادى الاردن تكاد تكون دائما قاصرة على مداخل الوديان بالقرب من جداول وينابيع المياه الدائمة التى لاتزال مصادر المياه الدائمة فى المنطقة حتى الآن . ومن

الغريب جدا أن أريحا التى تتمتع بمصادر غنية بالمياه قد بقيت ، على ما يظهر ، غير مأهولة طوال معظم الالف الرابعة .

وبعد هجر غسول هجرا تاما ، وربما كان ذلك بسبب دمار كامل حل بها قبل ٣٤٠٠ ق.م. ، يبدو أنه قد مر بعض الوقت قبل أن يبدأ الناس فى استعمارها من جديد . وعندئذ نشأت مراكز عمران جديدة فى اماكن مثل بيسان (بيت شان) التى تقع على عرض الطريق بين مجدو والاردن ، حيث قد يرجع تاريخ الطبقة بيت شان (١٨) الى آخر العصر الغسولى . وهذه الحضارة الاخيرة استمرت فى ثوب متحور فى بئر سبع فى الجنوب ، حيث وجد برو و آرونى Perrot and Aharoni قرى دل تأريخها بالكربون المشع على أنها ترجع الى القرن الرابع والثلاثين أو الثالث والثلاثين . ويتعاصر مع بيسان (١٧ — ١٦) موقع كبير فى وسط وادى الاردن هو تل أم حماد الشرقى الذى كشف عنه نلسن جلويك . أما الطبقة مجدو (٢٠) وهى أعمق طبقات العمران فى هذا الموقع العظيم الذى يطل على سهل عزدرايلون (مرج ابن عامر) الغربى ، فليست للاسف مكونة من مرحلة حضارية واحدة ، بل هى طبقة مختلطة تظهر بها مخلفات مراحل مختلفة تمتد من العصر المبكر الى العصر الغسولى أو مرحلة عمرانية تالية له مباشرة (تشترك مع العصر الغسولى فى وجود أبواق من الطين فى كل منهما) الى مرحلة بيت شان (١٦) . وانتهى العصر الكالكوليثى المتأخر فى بيت شان (١٨ — ١٦) (حوالى ٣٤٠٠ — ٣٢٠٠ ق.م.) بمرحلة استخدام فخار رمادى مصقول وأسود مصقول ، واستمرت هذه الفترة حتى العصر البرونزى المبكر الاول . وفى بيت شان (١٦) نجد بيوتا من نوع مستطيل الشكل تقريبا ذى طرف مستدير نطلق عليه اسم «محرابى» apsidal ، ويظهر البيت المحرابى بعد ذلك فى أريحا (٦ — ٧) ثم فى مجدو ، غير ان المساقط الافقية لهذه البيوت ليست متشابهة بالمرة فى العصور المختلفة . وابدع مخلفات لمرحلة الفخار الرمادى المصقول الذى أطلق عليه رايت فخار « حضارة عزردرايلون » وجدها دى فو عام ١٩٤٧ فى تل الفرعه .

وفى مصر كشف مصطفى عامر (بك) عن فخار فلسطينى بكميات قليلة فى المعادى جنوبى القاهرة ، حيث كانت توجد قرية كبيرة وجبانة من العصر الجرزى المتوسط الذى لابد وان يرجع تاريخه الى ما قبل

القرن الاخير من الالف الرابعة • وهذا الفخار يشبه بشكل مدهش فخار عزدرايلون الذى يرجع الى القرنين الثالث والثلاثين والثانى والثلاثين قبل الميلاد •

وفى حوالى القرن الحادى والثلاثين قبل الميلاد ، يبدأ العصر البرونزى المبكر • ويمكننا الان بكل اطمئنان تقسيم هذا العصر الطويل الغامض الى أقسام ، ويرجع الفضل فى ذلك بصفة خاصة الى التتابع الواضح للطبقات فى مجدو ، وبيت شان ، وأريحا ، وأضيف اليها حديثا بيت يراح وتل الفرعه بالقرب من شكيم • وفضلا عن ذلك يمكننا الان تأريخ كل مرحلة من مراحل هذا العصر طبقا للترتيب التاريخى للاسرات المصرية كما يلى :

١ — العصر البرونزى المبكر الاول (القرن ٣١ — ٢٩ ق•م•) ويعاصر الجزء الاخير من عصر ما قبل الاسرات فى مصر •

٢ — العصر البرونزى المبكر الثانى (القرن ٢٩ — ٢٦) ويعاصر الجزء الاخير من الاسرة الاولى •

٣ — العصر البرونزى المبكر الثالث (القرن ٢٦ — ٢٣) ويعاصر عصر الاهرامات ، من الاسرة الثالثة الى الاسرة الخامسة •

٤ — العصر البرونزى المبكر الرابع (أو الثالث مكرر) ويمثل مرحلة بينية استمرت حتى القرن الحادى والعشرين قبل الميلاد •

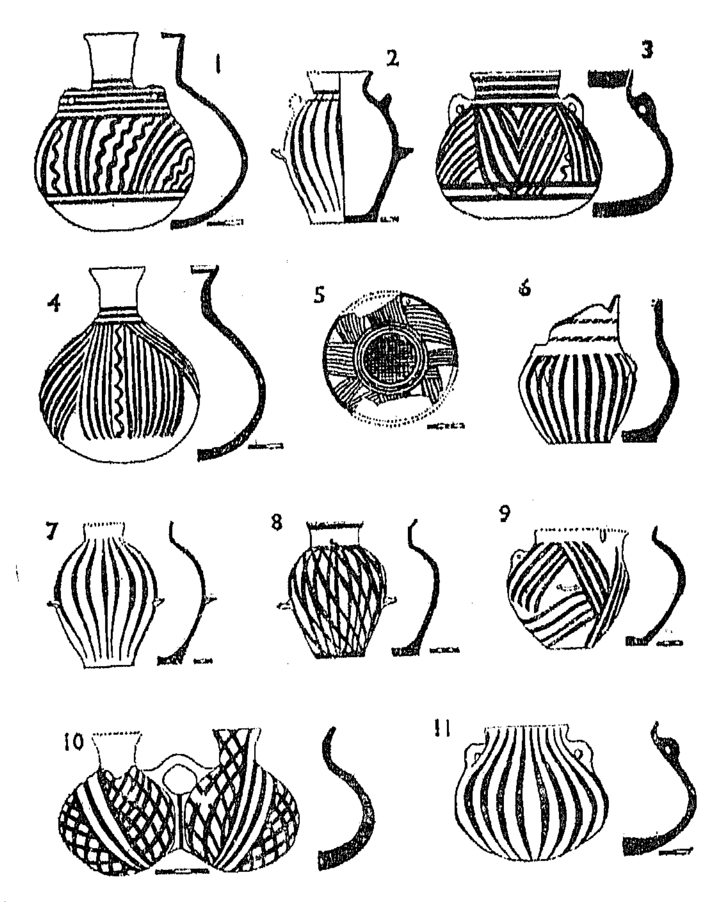
على أن الملاحظ أن هذه التواريخ قد حددت على أساس أدنى تواريخ معطاة للاسرات المصرية ، وهى التى نعتبرها أدنى تواريخ صحيحة تقريبا من الوجهة العملية للعشر أسرات الاولى ، ومع كل زيادة فى التواريخ المصرية ، يجب أن تزاد تواريخ العصر البرونزى المبكر والعصر الكالكوليثى بما يقابل هذه الزيادة •

والى الفترة الانتقالية بين العصر الكالكوليثى المتأخر والعصر البرونزى المبكر الاول فى حوالى القرن الثانى والثلاثين أو الحادى والثلاثين ، قد يرجع تاريخ الطبقات (٧ — ٥) و (٤) فى المنحدر الشرقى لمجدو • ولابد أن توضع هذه المرحلة بين بيسان (بيت شان) (١٥) وبيسان (١٣) وتقابل الطبقة ١٩ من طبقات تل

مجدو نفسه • ففى الطبقة الخامسة فى المنحدر الشرقى لمجدو ، وجدت كمية من الشقف مطبوع عليها بأختام اسطوانية أشكال تمثل حيوانات وزخارف زهرية ، وقد نسبها فرانكفورت أولا الى عصر الاسرات الاولى والثانيـة فى بـلاد ما بين الرافـدين ، غـير أن دوناند نشر عـام ١٩٤٥ بحثا عن حوالى ثلاثين قطعة من شقف مختوم مماثل وجد فى منسوب للعمران فى جبيل مما غير الصـورة الاولى التى أعـطاها فرانكفورت • ولا يمكن أن يكون ثمة أى شـك أن دوناند محق تمـاما فى نسبتها الى فترة جمدة نصر فى بلاد ما بـين الرافدين (حــوالى ٣١٠٠ ــ ٢٩٠٠ ق • م •) • وفى حوالى نهاية الالف الرابعة لابد أن تكون الحضارة قد انتشرت انتشارا واسعا بين أجزاء الشرقين الادنى والاوسط ، ولهذا كان من الطبيعى أن تصبح سوريا وفلسطين الوسيطتين الحضاريتين اللتين عبر خلالهما التأثير الحضارى من بلاد ما بين النهرين الى مصر قبل الاسرة الاولى مباشرة ، وهو ما أوضحه البعض وخصوصا فرانكفورت وشارف •

وفى المدة التى اصطلح على تسميتها الان بالعصر البرونزى المبكر الاول ، كان هنـاك نوعان من صناعة الفخار يقسمان شمال فلسـطين وجنوبها على جانبى نهر الاردن الى منطقتين لهما صفات مشتركة ، ومع ذلك فهما يختلفان بعضهما عن بعض بدرجة أكبر من اختلافهما فى العصور اللاحقة • ففى شمال فلسـطين نجد كميات ضخمة من الاوانى المزخرفة بكسوة شريطية (أو بطلاء مجزع كما تسمى للاسف) ، أى أنها مزينة بخطوط متوازية أو خطوط متقاطعة على شكل شبكى ، مكونة عادة من حزم من الكسوة على السطح الطبيعى المصقول للاناء • وأصدق مثال لحضارة هذا العصر (حوالى القرن الحادى والثلاثين الى القرن الثلاثين قبـل الميلاد) نجـده فى طبقة بيت يراح (٢) التى كشف عنها ستكليس ومعاونوه فى ١٩٤٥ ــ ١٩٤٦ • وفى ذلك العصر ، كانت هذه المدينة محاطة بجدار من اللبن لا يقل سمكه عن ثمانية أمتـار ، وقد بنى هذا الجدار من ثلاثة أجزاء ، جزء قائم فى الوسط واضافتان منحدرتان على الجانبين • والطبقة الخامسة عشرة فى بيت شان المعاصرة تقريبا للطبقة الثانية فى بيت يراح تتميز أيضـا بطوب مستطيل من اللبـن وجدران مستقيمة ، حلت محل المبانى المحرابية التى تميزت بهـا بيت شان (١٦) •

وكان يتعاصر تقريبا مع الفخار ذى الكسوة الشريطية فى شمال فلسطين ، الفخار الملون الذى صنع فى جنوبها (شكل ٤) ، وفى هـذا الفخار نجد أن حزما من الخطوط المتوازية أو المتموجة الملونة باللون الاحمر أو البنى قد استخدمت اسـتخداما واسـعا لزخرفة كل سـطح الاناء ، وغالبا ما يكون سطح الاناء كله مغطى بزخارف على شـكل شبكى • ويمثل هذا العصر خير تمثيل مجموعـات المقـبرة ٣ فى أوفيل (القدس) ، وكهوف جازر ، وجبانة عاى ، وأريحا (٦ ــ ٧) والمدافن المبـكرة فى تل النصـبه • ويبـدو أنها تمثـل فى جملتهـا بدايات بنـاء المدن فى المنـاطق الجبلية فى جنوب فلسطين • وقـد استوردت مصر أوان من فلسطين يرجع تاريخها الى هذا العصر اذ وجدت مثل هذه الاوانى فى أبو صير الملق وفى مواقع أخرى يرجع

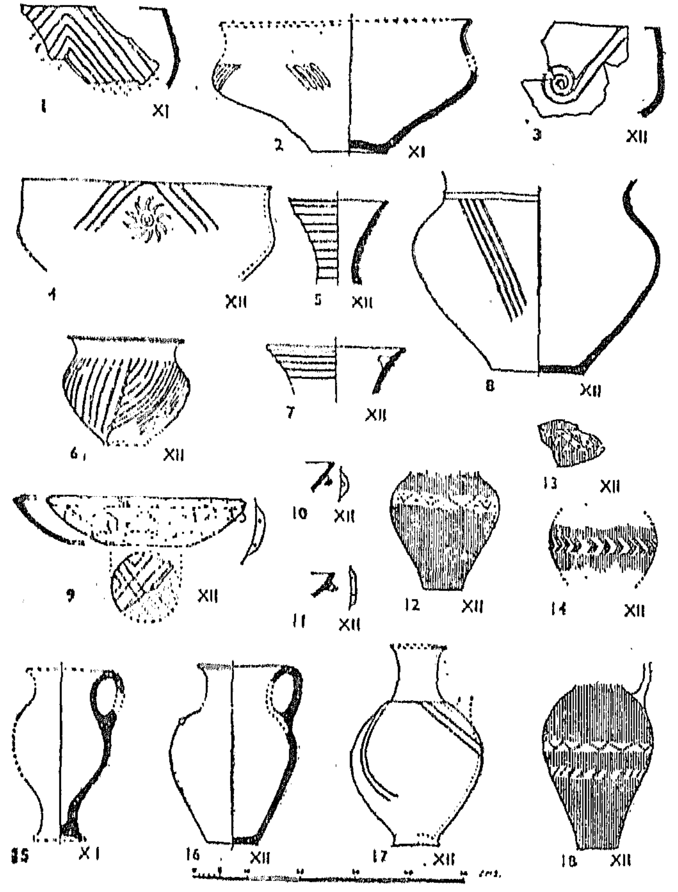


شكل ٤ ــ فخار من العصر البرونزى المبكر الاول فى متحف فلسطين

تاريخها الى نهاية عصر ما قبل الاسرات أى حوالى ٣٠٠٠ ق ٠ م ٠ طبقا لادنى تأريخ ممكن ٠

وفى حوالى القرن التاسع والعشرين (طبقا لادنى تأريخ ممكن) حينما استتب الامر للاسرة الاولى فى مصر ، نلاحظ بزوغ حضارة فخارية جديدة فى فلسطين ، تعرف بحضارة العصر البرونزى المبكر الثانية ٠ ولا يمكن أن يكون ثمة أى شك اطلاقا فى وجود صلات بين فلسطين فى هذه الفترة وبين أسرة مينا فى مصر ، اذ وجدت كميات كبيرة من الاوانى وقطع الشقف المميزة لهذه الحضارة فى المقابر الملكية من الاسرة الاولى فى أبيدوس وسقارة ٠ وفضلا عن ذلك فان الاناء المعروف باسم « اناء أبيدوس » ، وهو ابريق ذو يد واحدة وقاعدة ضيقة سميكة وزخارف على شكل خطوط منحنية ملونة بلون أحمر على أرضية ذات لون برتقالى مصفر ، قد ظهر فى العصر البرونزى المبكر الثانى فى مقبرة بالقرب من بيت يراح ٠ وأجمل أوان من الفخار فى فلسطين وساحل سوريا فى ذلك الوقت كانت فى الغالب من فخار صلد مغطى بكسوة ذات لون أحمر مصقول ، وكانت قواعدها عادة من النوع السميك الضيق ٠ وشاع جدا فى هذا العصر تمشيط الفخار وصقله لعمل زخارف بلغت درجة كبيرة من التعقيد أحيانا ٠ ولم يعد ثمة أى شك فى أن هذا العصر كان من أزهى عصور شمال فلسطين ولو أنه يبدو أن المناطق الجبلية فى وسط فلسطين وجنوبها لم يصبها العمران الا قليلا ٠ وكانت بلدان هذا العصر منسقة خير تنسيق كما يتضح من الطبقات : بيت يراح (٣) ، وبيسان (١٣) ومجدو (١٨ — ١٦) وأريحا (٤) ، وغيرها فى مواقع أخرى ٠ وفى خلال الجزء الاخير من هذا العصر تعرضت فلسطين وفينيقيا للنفوذ المصرى القوى ، ويبدو ان ملوك العصر الطينى الاقوياء قد بسطوا سلطانهم فى آسيا ٠

والعصر التالى لهذا العصر من الناحية الاثرية ، وهو العصر البرونزى المبكر الثالث (شكل ٥) ، انما يرتبط بعصر الاهرامات فى مصر من الاسرة الثالثة الى الاسرة الخامسة (من القرن السادس والعشرين الى القرن الثالث والعشرين طبقا لادنى تأريخ ممكن) ، يدلنا على ذلك ما كشف عنه من آثار مصرية فى فلسطين والفخار الفلسطينى الذى عثر عليه فى مقابر الجيزة ٠ ولا شك أن هذا العصر يمثل أعلى درجات حضارة العصر البرونزى المبكر فى كل من فلسطين



شكل ٥ ــ فخار من العصر البرونزى المبكر الثالث من بيسان

ومصر ، غير أن المدن والحصون كانت لا تزال مبعثــرة متبــاعدة فى المناطق الجبلية ، ولم يكن تل بيت مرسيم قد لحقه العمــران بعد ، ومجدو (١٧ ــ ١٦) تنتمى الى المرحلة الاولى فقط من هذا العصر . الا أنه كانت ثمة مدينة زاهرة فى بيت يراح وقد وصل سمك أنقــاض مراحل هذا العصر المتتابعة التى تراكمت فيها الى مترين فى المتوسط ، وقد دمرت هذه المدينة بعد ذلك ولم تستعمر لمدة تزيد على ألفى عام . ومدينة بيت يراح كانت محــاطة بســور مشيد بكتل من الجــلاميد البركانية ، ويبلغ سمك هذا السور أربعة أمتار ، وعلاوة على ذلك كانت محصنة من خارج السور أيضا بمنحدر من أرض مدكوكة معبدة . وكانت بيسان، (١٢ ــ ١١) وأريحا (٣) عامرتين بالسكان أيضا خلال هذا

العصر • على أن أهم مدينة كشف عنها من هذا العصر حتى الان هى دون شك مدينة عاى (وهى التل الذى يقع شرقى بيت ايل) حيث كشفت مدام ماركيه عن معبد (أطلق المكتشفون عليه خطأ اسم « قصر ») • وفى هذا المعبد ، الذى كان مستطيلا وبابه الرئيسى فى أحد الجانبين الطويلين كانت الجدران مكونة من مداميك من الحجارة التى سويت سطوحها بالدق بالشحوطة ، بينما كان السقف محمولاً على أعمدة خشبية قائمة على قواعد منحوتة نحتا جيدا • والمبنى نفسه ، فى طرازه ، يمكن اعتباره وسطا بين معبد مجدو (١٩) المستطيل الشكل الذى يرجع تاريخه الى حوالى ٣٠٠٠ ق • م • ، وبين ثلاثة مبان متشابهة من القرن التاسع عشر ق • م • فى مجدو (١٥) • ويمكن الحكم من طبقات المناطق المجاورةعلى أن معبد عاى ربما بنى فى حوالى القرن السادس والعشرين ق•م• ، وبالقرب من هذا المعبد هيكل صغير ، عثر بداخله على كمية من الاوانى والصوانى المكسورة من المرمر المصرى ، ذات أشكال مميزة لبدء عصر الاهرامات فى مصر (الاسرة الثالثة) • وعثر على مقبرة فى تعنك ، جنوب شرقى مجدو تحاكى فى بنائها طريقة البناء بالحجر فى عصر الملك زوسر ، وقطع الشقف التى وجدت بها تشير الى نهاية العصر البرونزى المبكر الثانى أو بدء العصر البرونزى المبكر الثالث ، أى حوالى القرن السادس والعشرين ق • م •

وأهم فخار مبتكر فى هذا العصر هو فخار « خربة كراك » الاحمر والاسود المصقول ، الذى عرف أولا فى الموقع الذى يحمل هذا الاسم ، فى مكان بيت يراح القديمة،فى الركن الجنوبى الغربى لبحر الجليل•والسطح الخارجى لهذه الاوانى مزخرف عادة بأشكال هندسية وزخارف حلزونية وخطوط منحنية ، وكثيرا ما تكون مضلعة بضلوع محدبة أو مقعرة ، أضف الى هذه الملامح شكل هذه الاوانى البديع اذ لدينا منها أجمل ما عثر عليه من أوان فخارية فى فلسطين حتى الان • وقد أثبتت تنقيبات بريدوود فى شمال سوريا أن نوعا مماثلا جدا لهذا الفخار كان موجودا بكثرة فى الطبقة الحادية عشرة فى تل اليهودية ، التى تميزت بوجود أختام اسطوانية عراقية من عصر الاسرات المبكر ، بينما وجدت فى الطبقة الثانية عشرة التى تقع تحتها أختام من عصر جمدت نصر ، وهذه الحقيقة تعطينا فارقا من الزمن يبلغ أربعة قرون أو أكثر ، من حوالى

٢٨٠٠ الى ٢٤٠٠ ق ٠ م ٠ ، غير أن الشواهد الفلسطينية تدل بوضوح على أن هـذا الطـراز من الفخار لم يشـع اسـتخدامه لاكثر من قرنين (حـوالى ٢٦٠٠ — ٢٤٠٠ ق٠م٠) ، ولسنا نجـزم بصـحة استنتاجنا ، من حقيقة عدم ظهور هذا الفخار الا فى مواقع قليلة جـدا فى فلسطين ، أنه لم ينتشر بعيدا نحو الجنوب ، ولكنى أرى أن وجود قطع قليلة من الشقف فى أريحا أثبت فيتز جيرالد Fitz Gerald أنها تنتمى لهذا الطراز من الفخـار ، لدليـل كاف على انتشـاره الى جنوب فلسطين ٠ ومع ذلك فلم تكن سفوح الجبال فى الجنوب قد لحقها العمران بدرجة كبيرة فى العصر البرونزى المبكر الثالث ، ولذلك فان أدلتنا فى جوهرها سلبية بالنسبة لهذه المواقع ٠ أما مواقع السهول ووديان الانهار ، فمما يؤسف له بالنسبة لمستنداتنا الاثرية ، أنها قد أصبحت بصفة عامة ، عامرة بالسكان قبل المدن الجبلية بوقت طويل جدا ، وتبعا لذلك فان طبقات العصر البرونزى المبكر تقع على أعماق كبيرة جدا لم يصل اليها الا عدد قليـل من المنقبين ، أو أن المنقبين على الاقـل لم يقوموا بحفر مساحة كافية لامدادنا بعينات تفى بتمثيل محتويات هذه الطبقات تمثيلا مرضـيا ٠

ويلى هذا العصر ، العصر البرونزى الرابع (أو الثالث ب) ، وهو فى جوهره مرحلة مكملة للعصر السابق له ، ولم يمتد هذا العصر لفترة أكثر من مائتى عام (من القرن الثالث والعشرين الى القرن الحادى والعشرين) ٠ ولم تستحدث فيه طرز جديدة حقا من الاوانى الفخارية ، بينما اختفت آخر آثار للاوانى ذات القواعد السميكة الضيقة وتدهور بسرعة نوع الفخار الاحمر المصقول ٠ على أن عددا غير قليل من المدن الجبلية فى الجنوب بدأ عمرانه فى هـذا العصر (أو فى الجـزء الاخير من العصر البرونزى المبـكر الثـالث) ، مثل تل بيت مرسيم وبيت شمس ٠ وفى شرق الاردن نجد تزايدا سريعا فى كثافة السكان كما دلت على ذلك تنقيبات نلسن جلويك Nelson Glueck وأيدتها المجسات التى أجريت فى آدر وفى باب الدراع ٠ ويقابل هذا العصر فى مصر الاسرة السادسة وأوائل الفترة البينيه الاولى التى بدأ فيها دخول الشـعوب السامية الغربية فى مصر كما تشهد بذلك بعض الوثائق الهيراطيقية ٠

ولم تكتشف حتى الان مبان محفوظة حفظا جيدا من العصر البرونزى المبكر الرابع ، ولذلك فلابد أن تبقى معلوماتنا عن حضارته جزئية جدا

الى حين • ولعل أهم مخلفات هذا العصر ، مجموعة من المبانى الاثرية المقامة فى العراء فى شرق الاردن • ففي باب الدراع ، الذى يطل على البحر الميت من فوق أحد المدرجات الشرقية ، سياج كبير مكشوف يحميه جدار من أحجار كبيرة محلية • وبداخل هذا السياج، ومن حوله، مواقد قديمة عديدة ، بها كميات من الشقف يمتد تاريخها من حوالى القرن الثالث والعشرين الى القرن الحادى والعشرين قبل الميلاد • وعلى بعد أكبر خارج السور مقابر كثيرة محفورة فى باطن الارض ومحاطة بأحجار صغيرة مرصوصة بطريقة بحيث تشبه فى منظرها الخارجى الدولمينات الميجاليثية فيما عدا التفاوت الكبير فى حجم الاحجار وبعض الاختلافات الاساسية الاخرى) ، وكانت معظم هذه المقابر مغطاة بأكوام Tumuli [1] من التراب قليلة الارتفاع • وعلى مسافة قصيرة منها ، مجموعة من المنهيرات المتهدمة التى يبدو أن عددها الاصلى كان سبع منهيرات • وفى لجيون وآدر مجموعات أخرى من أحجار مرصوصة مرتفعة ومرتبطة هى الاخرى بمراكز عمران من العصر البرونزى المبكر الرابع ، الذى يبدو أن هذا الطراز من الانشاءات الدينية كان شائع الاستعمال فيه •

ومن البديهى أن فخار العصر البرونزى المبكر لم ينته استعماله فجأة ، بل كانت هناك مرحلة انتقالية فى القرن الحادى والعشرين ق • م• (وربما بدء القرن الثانى والعشرين) • وأول فخار يمثل هذه المرحلة هو فخار بيت مرسيم (١) (العين) ، الذى يتميز بمقابض ظرفية ذات افريز • وقد كشف عن نفس هذه المرحلة منذ ١٩٣٠ فى مجدو وفى أماكن أخرى • وعثر نلسون جلويك حديثا على اناء بديع جدا من هذا الطراز فى تل أم حماد الغربى فى وادى الاردن • ويتميز فخار هذه المرحلة بتحسن كبير فى عمليات صناعته ، مما أدى الى اكسابه درجات أفضل فى نعومة السطح والصلادة بعد الحرق ، كما عاد استخدام عجلة الفخارى لتشكيل رقاب الاوانى وحواف فوهاتها • وأسهل قرينة للتعرف على هذا العصر ، كما ذكرنا آنفا هو المقبض الظرفى ذو الافريز ، وهذا الاسم الذى أطلقه عليه جاى P.L.O. Guy مشتق من أن طرفى هذا المقبض المرتفعين ، وهو المقبض الذى كان يتميز

(١) كلمة Tumuli هى صيغة الجمع لكلمة Tumulus ، ومعناها كوم من التراب على مقبرة (المراجع) •

به فخار العصور السابقة منذ العصر البرونزى المبكر الثانى ، قد طويا على سطح الاناء وضغط على كل منهما حتى بدا شكل كل طرف منهما كما لو كان ثنيه ظرف الخطاب •

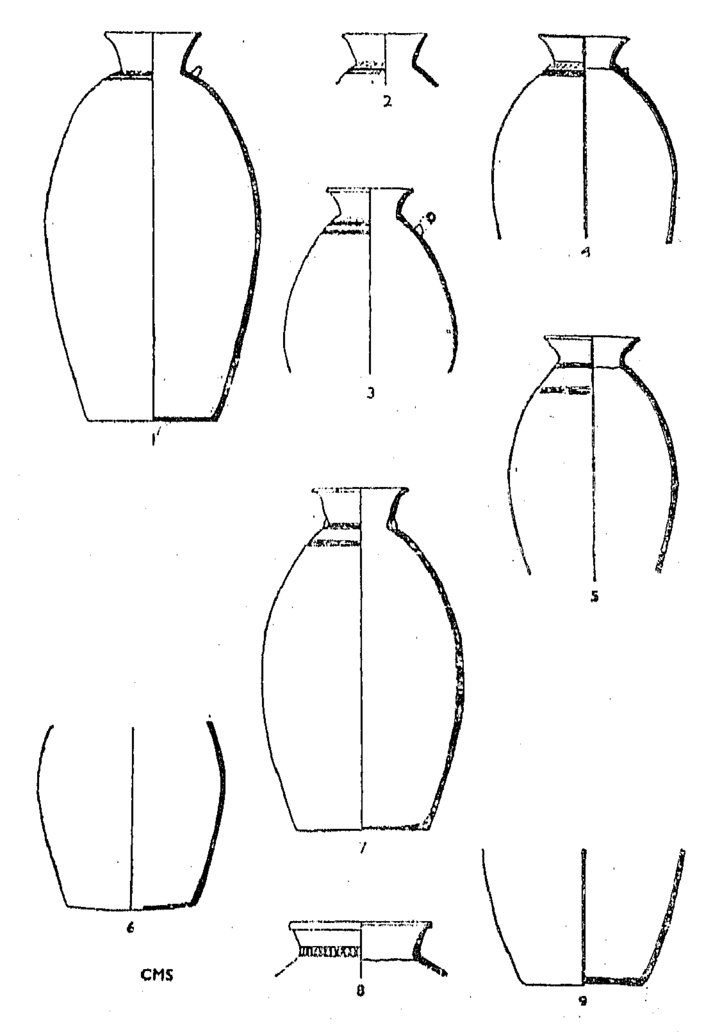
ويبدو أن لوحتين مهمتين من مؤاب تنتميان الى الجزء الاخير من العصر البرونزى المبكر ، وهما لوحة شيحان التى كشف عنها دى سولسى F. de Saulcy والموجودة الان بمتحف اللوفر ، ولوحة بالوعه الموجودة الان فى متحف عمان • ولا تحمل اللوحة الاولى نقوشا مكتوبة ، غير أن شكل الرداء المصرى العتيق يدل على التأثير المصرى خلال عصر الاهرامات • أما لوحة بالوعه فقد أعيد استعمالها فىالقرن الثانىعشر (وربما القرن الحادى عشر) ، غير أن شكل اللوحة وبقايا الكتابة الاصلية فوق الرسم الزخرفى المتأخر ، يدل على أن تاريخها يرجع الى حوالى نهاية الالف الثالثة ق•م• (انظر الباب الثامن) • فاذا صحت نسبة هاتين اللوحتين الى هذا العصر فانهما يلقيان ضوءا ، نحن فى حاجة اليه ، على الحضارة المتقدمة فى فلسطين خلال هذا العصر ، اذ أن المعروف عنها حتى الان قليل •

الفصل الخامس

فلسطين فى العصرين البرونزى المتوسط والبرونزى المتأخر

فى غضون القرن الحادى والعشرين قبل الميلاد ، حل محل فخار العصر البرونزى المبكر فى فلسطين ، فخار العصر البرونزى المتوسط الاول (من القرن الحادى والعشرين الى القرن التاسع عشر ق • م) • وقد وفدت صناعة هذا الفخار اليها من سوريا ، حيث تعرف بالصناعة « الكأسية » وذلك لتفضيل الفخارين لشكل كأس الزهرة على ما عداه من الاشكال الاخرى • وفى حماة على نهر العاصى ، تكمن هارالد انجولت Harald Ingholt من تمييز أربع مراحل متعاقبة من هذا الفخار الذى قد يرجع تاريخه على وجه التقريب الى ما بين القرن الثانى والعشرين والقرن التاسع عشر ق•م• (يجب تخفيض التاريخ الاصلى الذى أعطى له من قبل وهو ٢٤٠٠–٢٠٠٠ ق • م • ليتمشى مع التخفيض العام فى تواريخ بلاد ما بين الرافدين) • وحتى لو أجزنا مرور بعض الوقت قبل انتشار هذا النوع الى الجنوب ، فانه من المؤكد أنه وصل الى فلسطين خلال القرن الحادى والعشرين ، ولو أنه يبدو أنه لم يحل أبدا محل الطرز الاسبق منه حلولا كاملا فى شرق الاردن • وليس من المحتم أن نفترض أن تحركات هذه الصناعة الفخارية كانت مرتبطة بأى تحركات للشعوب ، بل يبدو أمرا أكثر احتمالا أن كان هناك انتشار حضارى حدث فى نفس الوقت مع انتشار الحضارة السورية العراقية فى العصر السابق مباشرة للاسرة الثالثة فى أور (حوالى ٢٠٧٠–١٩٦٠ ق • م) •

لكن فلسطين كانت حينئذاك فى معمعة التطاحن القبائلى ، وكان ثمة تخريب كبير وهجر للمدن • والى عهد قريب ، كانت المرحلة الاولى للعصر البرونزى المتوسط من أكثر الفترات غموضا فى تاريخ فلسطين الاثرى القديم • ومع أن واتزينجر Watzinger اكتشف فخارا من هذا العصر فى أريحا عام ١٩٠٨ (وعرفه خطأ بأنه كنعانى متأخر) ، الا أن الاثريين لم يعيروه اهتماما ، وظن معظمهم أن فخار العصر البرونزى



شكل ٦ ــ فخار من طبقة ح (من العصر البرونزى المتوسط الاول)
من تل بيت مرسيم

المتوسط الثانى من عصر الهكسوس هو الذى تلا مباشرة فخار العصر البرونزى المبكر • غير أنه وجد فى ١٩٣٠ فى تل بيت مرسيم أن الطبقتــين (ط ــ ح I—H) ، وخصوصــا الطبقــة (ح H) ، تتميزان بهــذا النوع من الفخــار (شــكل ٦) ، وقــد تخلصت الطبقة (ح) تماما من تأثير أنواع فخار العصر البرونزى المبكر ، وتقع هذه الطبقة بين الطبقة (ى J) (من العصر البرونزى المبكر الرابع) وبين الطبقة (ز ــ و F.-G.) من العصر الــبرونزى

المتوسط الثانى ــ ا) • ثم وجد بعد ذلك فخار كلتا المرحلتين (ط) و (ح) فى مواقع عديدة أخرى حيث وجــدت بنفــس الترتيب استراتيجرافيا وشكليا • غير أننا لا نجد فى أى مكان مدنا منسقة أو مبان جيدة البناء من المرحلة (ح) التى يبدو واضحا أن فلسطين كانت أثناءها قليلة السكان • وقد أعطت تنقيبات نلسون جلويك فى شرق الاردن نفس الصورة ، وهى أن تناقصا كبيرا فى كثافة السكان حدث قبل نهاية القرن العشرين قبل الميلاد بسبب هجر البلاد وتركها للبدو الرحالة • ولعله حدث عن طريق الصدفة فقط أن هذه المرحلة لم تظهر الا نادرا بين طبقات مجدو وبيسان وأنها لم تظهر بالمرة فى الطبقات السفلى فى تلال السهل (شفا الله) • وبالاضافة الى ذلك ، فقد أثبتت تنقيبات نلسون جلويك فى النقب منذ ١٩٥٢ ، أنه كانت هناك خلال هذا العصر قرى كثيرة صغيرة من الحجر تسكنها أقوام نصف بدوية ، متناثرة فى كل المنطقة القاحلة التى تقع جنوبى بئر سبع •

وتدل نصوص اللعنات المصرية من الاسرة الثانية عشرة على أن كلا من شرق فلسطين وغربها كانت تستعمره قبائل بدوية ونصف بدوية فى أواخر القرن العشرين قبل الميلاد • وبعد قرن أصبح غرب فلسطين مكتظا كثيرا بالسكان ، لكن شرق الاردن ظــل مأهولا بالبدو الــرحل • وقد زادت الكشوفات الاثرية فى فلسطين هذه الصورة ايضاحا ، اذ دلت على أن شرق الاردن أصبح منطقة بدوية تماما فيما بين ٢٠٠٠ و١٨٠٠ ق • م • وقد وجد أن نوع الفخار الذى وجد فى تل بيت مرسيم بالطبقة (ط ــ ح) ، لا يزال يوجد فى عدد من المواقع فى شمال شرق الاردن ، كما وجد فخار معاصر تقريبا من القرن العشرين فى آدر بمؤاب وفى بعض أماكن أخرى ، غير انه لم يوجد حتى الآن فخار من القرن التاسع عشر أو من الجزء الاخير من العصر البرونزى المتوسط فى أى مكان فى شرق الاردن خارج وادى الاردن نفسه وأقصى الشمال • وليس من الصعب استنتاج معنى هذه الحقائق من الادلة المستمدة من نصوص اللعنات • وهذه الوثائق الغريبة تتكون من أوان وتماثيل صغيرة مكتوب عليها بخط هيراطيقى ردىء أسماء ثورات قائمة فعلا أو الثورات التى يحتمل قيامها فى مصر والبلاد المجاورة ، وكان يظن بناء على هذا أنها تقع تحت رحمة فرعون مصر • فاذا هددت بعض القبائل أو المدن بالثورة أو العصيان ، فما على فرعون مصر الا أن يكسر الاشياء المكتوب

عليها أسماؤها والتعاويذ اللازمة فى إحتفال سحرى ، وفى النـــو ينتهى العصيان بمأساة تقع على رأس العصاة بطريقة ما • وقد تم نشر مجموعتين من هذه الاشياء حتى الان ، المجموعة الاولى من الاوانى بمتحف برلين ونشرها كورت زيتة عام ١٩٢٦ ، والمجموعة الثانية من التماثيل الصغيرة فى متحف بروكسل ونشرها بوزنر G. Posener عام ١٩٤٠ • ومن المرجح أن يرجع تاريخ المجموعة الاولى الى نهاية القرن العشرين ق•م• ، ويرجع تاريخ المجموعة الثانية الى أواخـــر القرن التاسع عشر ق•م• ، وهما يظهران نقصا كبيرا فى العدد النســبى للوحدات القبائلية وزيادة مقابلة فى عدد ولايات المدن ، وهو ما يطابق تماما الادلة المستمدة من توزيع الفخار •

ويقابل العصر البرونزى المتوسط عصر الانبياء فى الكتاب المقدس ، ولو أنه لم يمكن حتى الان تحديد تاريخ هجرة ابراهيم من بـــلاد الرافدين أو تاريخ هجرة يعقوب الى مصر على وجه الدقة • ومن رأى المؤلف حاليا أن الهجرة من أور الى حاران والبلاد الواقعة غربها (١) ربما حدثت فى القرنين العشرين والتاسع عشر ق • م ، وأن هجرة يعقوب الى مصر ربما وقعت فى غضون القرن الثامن عشر أو على وجه أرجح فى القرن السابع عشر ق • م • مرتبطة بحـــركة الهكسوس (٢) • وفى الباب العاشر تفاصيل أكثر عن الضوء الذى تلقيه الدراسات الاثرية على عصر الانبياء •

ولم يتضح تمـــاما تاريخ المرحـــلة الاولى للعصر البرونزى المتأخر بالنســـبة الى العصر الـــبرونزى المتوسط الثانى الا بعد حفــــائر ١٩٢٨ ـــ ١٩٣٢ فى تل بيت مرسيم ، التى أيدت نتائجها وأضافت اليها معلومات جديدة نتائج الحفائر التى أجريت على أعماق كبيرة فى مجدو فى ١٩٣٥ ـــ ١٩٣٧ • وحيث أن الانقاض فى هذين الموقعين موجودة على شكل طبقات واضحة ، ويقع أحدهما فى الشمـــال ويقع الاخـــر فى الجنوب ، ومع ذلك يتفقان بطريقة مدهشة فى تتابع أنواع الفخار

---

(١) لا توجد أية أدلة أثرية تثبت ذلك ، وانما هى مجرد استنتاجات . (المترجمان)

(٢) عصر الهكسوس عصر غامض جدا ، ولا توجد أية وثيقة تثبت صلة بين الهكسوس وبين هجرة يعقوب الى مصر . (المترجمان)

فيهما ،فلا يمكن أن يكون ثمة أى شك فى أن النتائج المشتركة لهذين التنقيبين تعطى صورة صحيحة جدا لفلسطين فى ذلك العصر ، ويمكن توضيح هذه الصورة فى الجدول التالى :

العصر	تل بيت مرسيم	مجدو	ملاحظات ومواقع معاصرة
البرونزى المتأخر (١ — أ)	غير موجود	(٩) (١٥٥٠—١٤٧٩)	تل العجول (٢)
البرونزى المتوسط (٢ ج)	د D	(١٠) (القرن ١٧ — ١٦)	المرحلة الاخيرة من عصر الهكسوس
البرونزى المتوسط (٢ ب)	هـ ٢ E_2	(١١) (القرن ١٧)	المرحلة الوسطى لعصر الهكسوس
البرونزى المتوسط (٢ ب)	هـ ١ E_1	(١٢) (القرن ١٨ — ١٧)	المرحلة الاولى لعصر الهكسوس
البرونزى المتوسط (٢ أ)	و F	(١٣) (القرن ١٨)	الاسرة الثالثة عشرة
البرونزى المتوسط (٢ أ)	ز G	(١٤) (القرن ١٩ — ١٨)	أواخر الاسرة الثانية عشرة
البرونزى المتوسط (١) و (٢ أ)	ط ، ز I, G.	(١٥) (القرن ١٩) (والقرن ٢١ — ٢٠)	طبقة مركبة

وحيث أن التواريخ المصرية قد أصبحت الان دقيقة فى حدود عشر سنوات أو عشرين سنة لكل الفترة التاريخية التى يتناولها هذا الباب فان التواريخ المبينة فى هذا الجدول تكاد تكون مؤكدة كلما كان من الممكن ايجاد قرينة طيبة لها مع تاريخ الحضارة المصرية . والواقع أن هذه القرائن محتملة الوقوع جدا بفضل الدلائل المستمرة من الجعلان والنصوص الخطية . وعلى سبيل المثال المقبرتان رقم (١) ورقم (٢) فى جبيل اللتان كشف عنهما بيير مونتيه Pierre Montet كانتا معاصرتين لامنمحات الثالث وأمنمحات الرابع ، ولذلك فلابد أن يرجع تاريخهما الى نهاية القرن التاسع عشر

ق • م • والفخار الذى وجد بهما يشبه بوجه عام (وأحيانا يطابق تماما) فخار العصر البرونزى المتوسط (٢ ا) ولو أنه احتوى أيضـــا على عدد قليل من الاشكال المختلفة تماما عنه • ولذلك فان ظهور مرحلة الفخار هذه فى جبيل لابد وأن يسبق منتصف القرن التاسع عشر وربما يرجع ظهوره الى حوالى ١٩٠٠ ق • م • وتحتوى المقبرتان (٣) و (٤) وهما أحدث من المقبرتين السابقتين على نفس أنواع الفخار ، كما لوحظ أن اناء كبيرا من أوانى الاساس من منطقة المعبـــد له نفس المميزات ، والجعلان التى وجدت داخل هذا الاناء من الجعلان المصرية المميزة لنهاية القرن التاسع عشر وبدء القرن الثامن عشر ق • م • وبفضل هذه القرائن وخيوط أخرى من الادلة ، يمكن الحكم بأن الانتقال من العصر البرونـــزى المتوسط (٢ ا) الى (٢ب) حـــدث فى غضـــون النصف الثانى من القرن الثامن عشر قبل الميلاد • وبناء على دلائـــل أخرى مماثلة أمكن تأريخ بقية مراحل العصر البرونزى المتوسط الثانى والعصر البرونزى المتأخر الاول كما هو مبين بالجدول السابق •

وقبل أن نستعرض أهم مظاهر الحضارة فى العصر البرونزى المتوسط الثانى (الذى سنطلق عليه من باب التبسيـــط « العصر البرونزى المتوسط » فقط) ، سنورد فيما يلى وصفا مختصرا لتاريخ فلسطين السياسى فى هذا العصر : كانت منطقة غرب فلسطين وفينيقية وبعض أجزاء من سوريا خلال المرحلة (مجدو ١٥ ـــ ١٣ ، تل مرسيم ز ـــ و) تحت حكم مصر سياسيا وحضـــاريا • وقد وجدت آثـــار تثبت وجود علاقات مباشرة مع البلاط الملكى فى مصر منذ أوائل القرن التاسع عشر ق•م• فى أوجـــاريت وأبعـــد شرقا فى قطنـــه شـــمال شرقى حمص • وتمدنـــا الاثار التى كشف عنهـــا فى جبيـــل بصـــورة واضحة تبـــين مدى تأثير مصر على الفن والحرف الصناعية فى فينيقية • بل وتمكننا نصوص اللعنات (التى سبق ذكرها) من أن نرسم حدود الدائرة التى كانت تحت حكم مصر ، من وســـط سوريا شـــمالى دمشق الى وادى اليوثيروس (النهر الكبير) فى وسط فينيقية • وقد أصبح تقريبا كل سكان شرق الاردن من البدو الرحالة فى هذا العصر • وبعد سقوط الاسرة الثانية عشرة ، أصبحت الاقاليم الاسيوية مستقلة ، ولو أن عودة السلطة المركزية فى مصر الى الانتعاش لفترة قصيرة فى ١٧٥٠ ق • م• قد أدى الى بسط نفوذها من جديد على جبيل وربما على

بعض أماكن أخرى • غير أن مصر كانت حينذاك قد بلغت من الضعف درجة لم يمكنها معها توطيد امبراطوريتها فى آسيا ، ولذلك فـــان الشعوب السامية فى الشمال الغربى التى كانت تستعمر حينذاك معظم أجزاء سوريا وفلسطين ، كانت مطلقة اليد فى تطوير اقتصادياتها وقوتها الحربية دون تدخل من الخارج • وقد جاء ذكر ولايات ومدن عديدة فى سوريا منها ببيلوس (جبيل) وداماسين (آبوم) فى خطابات ألواح معاصرة عثر عليها فى مارى على الفرات الاوسط ، وتشير هذه الوثائق الى مدينة حاصور فقط فى فلسطين ، مع أنها لم تكن أبعد من سوريا فحسب بل كانت أفقر منها أيضا بكثير • ومع ذلك فربما كان من فلسطين مجىء أول فوج من الغزاة الساميين الهكسوس (١) قبل نهاية القرن الثامن عشر ق • م • بوقت غير قليل • ولسنا نعرف الى أى مدى توغلت هذه القبائل فى مصر ، غير أنه يبدو أنهم غمروا كل الوجه البحرى وربما أيضا مصر الوسطى قبل قيام أمراء الهكسوس المكونين للاسرة الخامسة عشرة بغـزو مصر فى أوائـل القـرن السـابع عشر ق • م •

وتحركات الشعوب التى حدثت فى أوائل القرن السابع عشر قبل الميلاد لا تزال بالغة الغموض ، غير أنه يبدو مرجحا جدا أنه حدثت وقتئذاك هجرة على نطاق واسع للشـعوب الهندو — آرية والخورية نحو الجنوب • ولو أنه لا توجد آثار لهذه الشعوب فى فلسطين أو جنوب سـوريا خلال القرنين التاسع عشر والثامن عشر ، الا أنه ما أن حل القرن الخامس عشر ، حتى كان أمراء الشـعوب الهندو — آرية والخورية وأشرافها راسخين فى كل مكان فيهما تقريبا • ولابد أن يكون قد حدث فى هذه الاثناء نوع ما من الهجرة على نطاق واسع نحو الجنوب ،وكانت العربات التى تجرها الخيول قد أصبحت أهم أداة حربية فى ذلك الوقت ، ولذلك يجب أن نتصور الغزاة الشماليين وهم يتوغلون فى فلسطين ومصر بعرباتهم الحربية السريعة(٢) ، بينما لم يقم

---

(١) لا يزال جنس الهكسوس موضع جدل وتاريخهم غامض كل الغموض •
[المترجمان]

(٢) من المشكوك فيه الآن ان الهكسوس كانوا يعرفون العربات السريعة عند دخولهم مصر •

[المترجمان]

المشاة الا بدور ثانوى تماما • وقد ترتب على استخدام العربات فى الحروب أن انتشر فن بناء استحكامات ضخمة مستطيلة الشكل عادة من اللبن • وقد ورد ذكر مثل هذه الاستحكامات لاول مرة فى مصادر بابلية من أوائل القرن السابع عشر ، وحيثما توجد شواهد فخارية عن تاريخ بناء هذه الاستحكامات فى سوريا وفلسطين ، نجدها تدل على عصر الهكسوس المبكر • وقد وجدت أمثلة طيبة لهذا فى فلسطين فى لايش (دان) وحاصور فى وادى الاردن الاعلى ، كما وجدت استحكامات ترابية أيضا من ذلك الوقت فى مواقع كثيرة أخرى مثل تل قيسان ، وشكيم ، ولخيش ، وتل بيت مرسيم ، وتل العجول ، وغيرها •

وفى القرن السابع عشر ، كانت فلسطين مركز الامبراطورية السامية الشمالية الغربية التى كانت تتولى حكمها عاصمة الهكسوس أفاريس فى الركن الشمالى الغربى لدلتا النيل • وفى أزهى عصورها ، تحت حكم الملكين أبوفيس وخيان ، ربما امتد حكم الهكسوس من الفرات الى بلاد النوبة الجنوبية[1] • والآثار الرئيسية التى لدينا من هذا العصر هى آلاف من الجعلان التى استخدمها موظفوها وأعيانها لختم الوثائق والاوانى ، وفى الواقع لم يوجد فى أى عصر فى تاريخ فلسطين جعلان بالكثرة التى وجدت بها خلال عصر الهكسوس ، من حوالى ١٧٠٠ الى حوالى ١٥٥٠ ق•م• وكان هذا العصر ، عصر رخاء محلى كبير ، زاد فيه عدد المساكن والمقابر زيادة منتظمة مطردة ، كما أن الاثاث الجنائزى المترف من العصر البرونزى المتوسط (٢ ب — جـ) يفوق أى شىء آخر عرف فى تاريخ هذا القطر • ومعلوماتنا عن مصادر الثروة فى فلسطين فى عصر الهكسوس لا تزيد عن كونها تخمينات ، غير أن تخميناتنا هذه لا يمكن أن تكون بعيدة عن الصواب بقدر كبير • ولعله يكون عن طريق المنطق فقط أن نظن أن هذا الرخاء كان ناتجا على الاخص عن ازدهار التجارة فى ذلك العصر ، اذ كانت فلسطين قد أضحت طريقا هاما للتجارة بين افريقية وآسيا ، غير أن

---

(١) وجود امبراطورية الهكسوس الممتدة من الفرات الى بلاد النوبه الجنوبية أمر مشكوك فيه اذ لا توجد أدلة مادية تؤيد هذا الزعم .
[المترجمان]

كثرة الاسلحة والحلى المصنوعة فى مصر ، أو المصنوعة طبقا للاسلوب المصرى فى آثار هذا العصر ، يدل على أن كثيرا من هذه الثروة قد جلبه المحاربون الذين كانوا يحاربون فى مصر فى صفوف الهكسوس •

وبعد نهاية الاسرة الخامسة عشرة ، فى أوائل القرن السادس عشر ق • م ، يبدو أن امبراطورية الهكسوس قد اندثرت بسرعة • وقبل نهاية حكم أحمس الاول ، كان قد تم طرد الهكسوس من مصر وعصف حصونهم الجنوبية بعد مقاومة مريرة • ويتبين مدى العناد الذى قاوم به أمراء الهكسوس فى فلسطين ، الجيوش المصرية والنوبية ، من النص المصرى لوصف حصار الثلاث سنوات لقلعة شاروهين (التى قد تكون تل الفرعة على حافة الصحراء الجنوبية) ، وكذلك من مظاهر التخريب التى تقابل المنقبين الذين يصلون فى حفائرهم الى مناسيب التدمير التى ترجع الى منتصف القرن السادس عشر • كما تبين هذه المناسيب فى تل بيت مرسيم ومجدو ، وربما أيضا بيت صور وأريحا ، مدى القسوة التى عاناها الهكسوس فى هذا الهجوم على يد الجيش المصرى • وبالفتح المصرى لفلسطين خلال حكمى أحمس الاول وامنحتب الاول نصل الى عتبة باب العصر البرونزى المتأخر الذى سنعالجه فيما بعد •

ولو كان المنقبون قد نشروا وصفا كاملا لاسوار مدن وبوابات العصر البرونزى المتوسط التى كشفوا عنها ، لكان من الميسور شرح تطور فن بناء الحصون بتفصيل كبير • ومع ذلك يمكن الحكم مما نشر عن أسوار الالف الثالثة وأسوار القرون الاولى من الالف الثانية قبل الميلاد التى كشف عنها حتى الان ، بأن النظام المحلى الذى اتبع أولا ، كان يتضمن بناء أسوار رأسية حسب الاسلوب المصرى ، بدون اضافات خارجية أو منحدرات لحماية المدن قبالة المحاصرين • وبالرغم من أننا نجد فى أريحا وعاى صفين أو ثلاثة صفوف من الاسوار ، على نهج النظام المتبع فى بلاد ما بين النهرين فقد ظلت الاسوار التى تتكون من صف واحد من الجدران الرأسية أكثر أنواع الحصون شيوعا • ففى تل بيت مرسيم (ز) من القرن التاسع عشر ق • م ، لدينا سور سمكه حوالى ٣٫٢٥ مترا ، به حصون على شكل أبراج يبلغ متوسط

طولها عشرة أمتار أو أكثر قليلا ومتوسط عرضها ستة أمتار أو أكثر •
وفى الطبقة (و) نجد نفس السور لا يزال مستخدما ، ولكن حدثت
توسيعات فى عرضه فى النقط الضعيفة • وقد بنيت هذه الاسوار مثلما
بنيت الاسوار الاقدم منها فى عاى بأحجار صغيرة نسبيا مرتبة على
صورة مداميك غير منتظمة • ويلى هذه الاسوار فراغ بينى أقيمت فيه
حصون من اللبن فى معظمها ، كما سبق الوصف • ومن المراحل الاخيرة
للعصر البرونزى المتوسط الثانى ، تأتى كل الاسوار الحجرية الرأسية
والاسوار المنحدرة (شكل ٦) • وقد وجدت فى شكيم وأريحا أمثلة
بديعة من أسوار منحدرة السطح فرشها (الجزء السفلى منها) مشيد
بكتل حجرية ضخمة متعددة الاوجه وسطحه الخارجى منحدر (بانبعاج
فى معظم الاحيان) ، بينما سطحه الداخلى رأسى • وعلى القمة المسطحة
لفرش البناء المنحدر هذا شيد جزء علوى من الجدران الرأسية من
اللبن • والجدران الحجرية للفرش من النوع الهائل الحجم ذى الزوايا
والاضلاع الكثيرة المعروف باسم Cyclopean [1] وهى مكونة من
جلاميد حجرية سائبة ، كبيرة الحجم متعددة الاوجه ، ركبت سطوحها
الغير منتظمة بعضها فوق بعض ، ثم ملئت الشقوق بحجارة صغيرة
وسوى السطح الخارجى كله بالدق بالشحوطة • وبلغ عرض بعض
الكتل الحجرية فى هذه الاسوار أكثر من مترين ، وبلغ أقصى ارتفاع
للسور المنحدر الذى وجد قائما فى شكيم عشرة أمتار ، ووجد خلفه
سور منحدر أقدم منه شيد بحجارة من الدقشوم • ويرجع تاريخ كلا
الجزئين الضخمين للسور اللذين وصفناهما الان الى القرن السابع عشر
أو أوائل القرن السادس عشر قبل الميلاد • وفى بعض الاحيان كان يبنى
بدلا من الاسوار المنحدرة ، منحدرات من الحجر مشيدة بنفس الطريقة،
تستند على جدران أقدم ، أو مشيدة مباشرة على أنقاض عمران أقدم ،
والسور الذى وجد فى الطبقة D_2 (د) فى تل بيت مرسيم ، والذى يبدو
أنه أقيم فى أواخر القرن السابع عشر ، كانت بعض أجزائه من هذا
النوع • ونجد أيضا أسوارا رأسية دون اضافات للتحصين على مثال

---

(١) كلمة Cyclopean تعنى ضخم أو هائل وهى صفة لمبانى من عصر ما قبل التاريخ تتكون من كتل كبيرة من الاحجار غير المستصلحة .
(المراجع)

الطرز القديمة في مواقع أخرى • ومن الامثلة الجيدة لمثل هذه الاسوار ، سور بيت زور من العصر البرونزى المتوسط الذى بنى بكتل من الدقشوم الضخم مثل السور الاقدم منه فى تل بيت مرسيم (ز) ، الا أن سمكه يبلغ ٢٫٥ مترا فقط ، وبه برج يبلغ طوله حوالى عشرة أمتار وعرضه حوالى خمسة أمتار ، وربما شيد هذا السور فى أواخر القرن السابع عشر • وكان كثير من هذه التحصينات مشيدا بطريقة شديدة التماسك جدا ، حتى انها بقيت قائمة لقرون عدة ، ورممت كلما دعت حالتها لذلك • ويبدو ان طرز مبانى السور المنحدر والمنحدرات قد جاءت من آسيا الصغرى الى فلسطين ، اذ وجد منها فى الشمال أسوار من عصور أقدم بكثير مما وجد فى فلسطين ، وتظهر أمثلة بديعة منها فى علالاخ (تل عطشانة) وأوجاريت فى شمال سوريا •

وثمة خاصية أخرى بالغة الاهمية يتميز بها العصر البرونزى المتوسط الثانى ، هى أن بوابة الحصن بها ممران أو ثلاثة ممرات ، على جانبى كل ممر منها زوج من الاعمدة الضخمة ، وكانت كل الاعمدة الاربعة أو الستة ذات حجم واحد ومنظمة بطريقة متماثلة فى صفين متوازيين • وهذا الطراز من البوابات الذى كان له تاريخ سابق طويل وتحور تدريجيا بعد القرن السادس عشر الى طرز جديدة مقتبسة منه ، نشأ أولا فى بلاد ما بين الرافدين حيث ظهر فى القصر الكبير فى زيمرى — ليم فى مارى فى القرن الثامن عشر قبل الميلاد • ويوجد هذا الطراز من البوابات فى طبقات العصر البرونزى المتوسط فى كل مواقع فلسطين، ونذكر منها بصفة خاصة البوابات الثلاثية الممرات التى كشف عنها فى شكيم ومجدو • ولم تكن هذه البوابات الاثرية خلابة فى مظهرها فحسب ، بل لابد وأنها كانت أيضا ذات أثر فعال فى الدفاع والا لما استمر هذا الطراز طويلا بهذا القدر • وكقاعدة عامة يبدو أنه كان على جانبى كل من هذه البوابات برجان كان يمكن الوصول اليهما عن طريق مطلع صاعد من الوادى خارج المدينة • وقد لا يكون من اللازم أن نبين هنا أن ظهور البوابات الثنائية أو الثلاثية كان مرتبطا ارتباطا وثيقا باستخدام العربات الحربية التى تجرها الجياد ، اذ هو أمر واضح • وكانت أضيق هذه البوابات ، مثل تلك التى توجد فى تل بيت

مرسيم كـــافية ، لمرور عربة مفردة بينما كانت أوسع البوابات المعروفة لدينا كافية لمرور عربتين فى نفس الوقت خلال ممراتها •

وقد سبق أن تحدثنا عن ثروة فلسطين فى العصر البرونزى المتوسط الثانى ، لكن حالة الرخاء النسبى الذى حظيت به فلسطين فى هذا العصر لا تعنى بالضرورة أن البلاد كانت فى سلام ، أو أن الرجل العادى كان ولابد فى حالة رغدة من العيش • وفى الواقع ، كان الامر على نقيض ذلك ، اذ لم يمر فى تاريخ فلسطين عصر اختل فيه الامن العام قـــدر اختلاله فى هذا العصر • ففى تل بيت مرسيم مثلا ، حدث دمار شـــامل أربع مرات على الاقل ، عـــلاوة على أربع مرات أخـــرى لدمار جزئى ، وذلك خلال قرنين ونصف قرن (١٨٠٠ — ١٥٥٠ ق • م •) • وفى مجدو فى نفس الفترة حدث دمار شامل خمس مرات على الاقل ، ولا يعرف حتى الان عـــدد المرات التى تعرضت فيها هـــذه المدينة لدمار جزئى • ولاشك أن بعض حالات الدمار الجزئى هذه ، قد حدثت نتيجة لهزائم حربية ، غير أنه لم يترتب عليها هجر المدينة وتكون طبقة جديدة من الانقاض • وأحيانا تعكس بعض حالات الدمار هذه ، وقوع كارثة زلزالية ، كما حدث مرة فى بيت ايل • وكانت البلاد فى ذلك العهد تحت حكم أمراء كانوا فى حرب دائمة بعضهم مع بعض ، ولذلك فقد أحاطوا مقار حكمهم بتحصينات ضخمة مثل الاسوار الضخمة المنحدرة فى شكيم وأريحا • ولسنا نجد فى أى عصر آخر فى تاريخ فلسطين مثل هذا العدد الكبير من المراكز المحصنة تحصينا قويا حتى انها لتبدو فى الغالب كما لو كانت قلاعا لا مدنا • وكان هؤلاء الحكام الكنعانيون محاطين بمجموعة من أقربائهم الاشراف وأتباعهم المخلصين ، ولابد أن جمهور عبيد الارض النصف أحرار كانوا يعيشون فى حالة بؤس اذ يبدو هذا واضحا من الفرق الكبير بين قصـــور الاشراف وأكواخ عامة الشـــعب • وفى العصر البرونزى المتأخر نجد عددا وافرا من الوثائق التى توضح نفس هذا التباين فى الحياة الاجتماعية بين النبلاء وعبيدهم •

وقد تم الكشف كشفا كاملا أو جزئيا عن عدد غير قليل من القصور ومساكن الاشراف من العصر البرونزى المتوسط ، ولعل أحسنها حفظا ذلك المسكن الذى كشف عنه فى الطبقة D (د) فى تل بيت مرسيم (شكل ٧) • وربما أقيم هذا المسكن فى أواخر القـــرن الســـابع عشر ، ثم أعيـــد

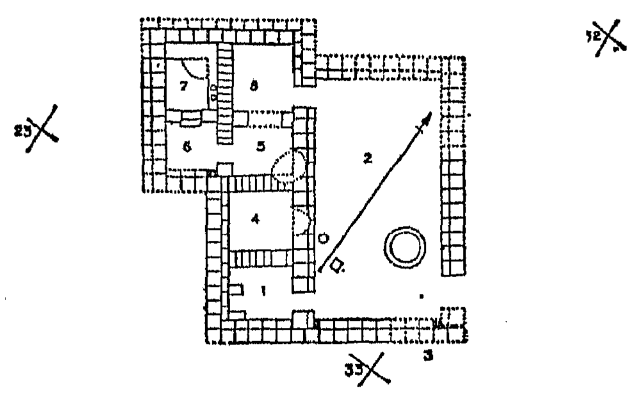
بناؤه بعد تدميره تدميرا كاملا فى النصف الاول من القرن السادس عشر قبيل الفتح المصرى لفلسطين ، وقد وجدت مبان مماثلة لهذا المسكن ، لكنها أوسع ، فى مجدو وبيت ايل وبالقرب من شكيم ، وفى أريحا ، وفى أماكن أخرى (شكل ٨) • وأعظم قصر وجد من هذا العصر حتى الان يقع فى طبقة القرن ١٧ — ١٦ فى تل العجول • وتبلغ مساحته بما فى ذلك الحوش الداخلى حوالى ألفى متر مربع أى نصف فدان وسمك جداره الخارجى متران ، وهو مبنى بطوب من اللبن على السفل المرتفع من الحجر الذى كان من أخص مميزات هذا العصر • وكان تل العجول يقع بالقرب من نهاية الطريق الصحراوى بفلسطين الذى كان يصل أفاريس عاصمة الهكسوس بالجزء الاسيوى من امبراطوريتها ، ولذلك فليس بمستغرب أنه يكون قد حصن تحصينا قويا وشيد به قصر يبلغ فى أبعاده قصور الامراء • وقد تألفت كل هذه القصور ومساكن الاشراف من فناء وصف واحد أو صفوف من الحجرات المتصلة به ، وكان أصحاب المنزل يقيمون فى الطابق الثانى ، كما يتضح من ملاحظاتنا عن تل بيت مرسيم •

ومعظم القطع الاثرية التى يرجع تاريخها الى هذا العصر فى متاحفنا وجدت فى مقابر فى كهوف تحت سطح الارض ، وكانت هذه المقابر عادة مقابر عائلات واستمر استعمالها لهذا الغرض أحيانا عدة أجيال • ونجد أيضا مقابر أفراد وتتكون كل منها من بئر رأسية تؤدى الى غرفة تحت الارض تتصل بالبئر عن طريق باب جانبى • وقد زودت عادة مقابر النبلاء الاثرياء ومقابر نسائهم بأسلحة وحلى ثمينة • ولم تكن مقابر الكهوف على ما يبدو قاصرة على طبقة واحدة ، كما يدل على ذلك التفاوت الكبير فى قيمة الاشياء التى وضعت فى الكهوف المختلفة ومن الهياكل العظيمة المختلفة التى وجدت بها • ومن الطبيعى أن هذه المقابر قد احتوت دائما على كميات وفيرة من الفخار (شكل ٩) •

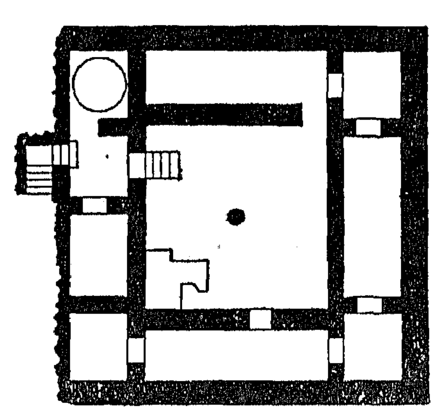
ومن الخصائص المميزة لفخار العصر البرونزى المتوسط الثانى أن كل أجزائه قد شكلت فى الواقع على عجلة الفخار وكان التشكيل اليدوى قاصرا فقط على صنع أرخص الانواع مثل قدور الطهو وما الى ذلك • وأشكال هذا الفخار بديعة جدا ومنحنياتها ذات نسب متناسقة تناسقا تاما ، وبها ثنيات حادة تدل دون شك على أن طرزا سابقة لاوان معدنية

قد قلدت بأمانة لصنع هذه الاوانى من الطين • ولتقوية تقليد المظهر المعدنى ، طليت سطوح الاوانى الممتازة منها بطبقات سميكة من الكسوة الحمراء أو الصفراء (الكريم) بينما كان الطين لايزال فى صلادة الجلد ، أى بعد أن تركت لتجف ببطء فى مكان ظليل وقبل أن تحرق ، ثم صقلت الكسوة على كل السطح صقلا جيدا بملوق من الحجر أو العظم حتى صار السطح لامعا كالنحاس أو الفضة • وبالرغم من جمال هذا الفخار فانه لم يصدر الى الاقطار الاخرى الا نادرا اذ أن فن صنع الفخار كان قد وصل الى مستوى عال من الاتقان فى تلك الاقطار أيضا ، أضف الى ذلك أن الاوانى المصنوعة من المعدن أو المرمر كانت تفضل كثيرا على الاوانى الفخارية الارخص فى معظم هذه الاقطار • ولم يوجد فى فلسطين شىء أجمل من فخار كاماريس Kamares من العصر البرونزى الكريتى الذى كان عليه اقبال عظيم فى مصر • ومن أشهر أنواع الفخار فى العصر البرونزى المتوسط النوع المعروف بأبريق تل اليهودية ، وهو اناء كمثرى الشكل ذو يد واحدة وقاعدة زرية button base ، أو ذو يدين وقمته مزينة بحلية على شكل مسمار برشام (متسلسلة وراثيا من الطرز المعدنية السابقة) • وكان سطح هذه الاوانى عادة أسود مصقولا للغاية ومزينا بوخزات بيضاء طباشيرية موزعة فى أشكال هندسية بسيطة • وقد استعملت هذه الاوانى لحفظ العطور ، وشاع استعمالها جدا عن طريق التجارة ، ولذلك فقد اتخذها علماء الاثار لمدة طويلة علامة مميزة لتاريخ عصر الهكسوس (مع أن استعمالها كان قد بدأ قبل عصر الهكسوس) •

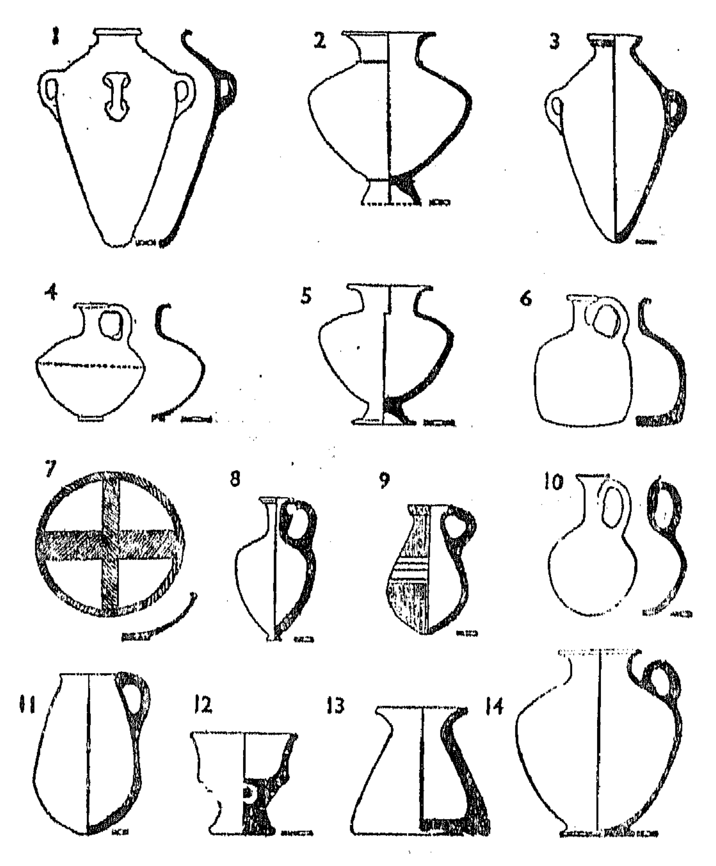
ونحن نعلم الكثير عن الفن فى العصر البرونزى المتوسط ، ومع ذلك فمعلوماتنا هذه أقل بكثير مما كنا نتوقع أن نعرفه بعد تنقيب مناسيب لم تعبث بها يد من ذلك العصر فى بعض أهم المدن الكنعانية فى فينيقية وسوريا • والكشوفات التى تمت حتى الآن فى فلسطين وفى جبيل بفينيقية قد أثبتت أن الفن الكنعانى قد اعتمد اعتمادا كبيرا على الاقتباس من الفن المصرى ، وخاصة فى العشرات الاخيرة من عصر الدولة الوسطى فى مصر (من القرن التاسع عشر الى القرن الثامن عشر ق • م •) ، كما يتضح من الاثار التى وجدت فى جبيل • أما فى عصر الهكسوس ، فاننا نجد فنا محليا أكثر ابتكارا ، ففى نفس الوقت



شكل ٧ ــ مسكن شيخ من طبقة د فى تل بيت مرسيم
(حوالى ١٦٠٠ ق٠ م٠)



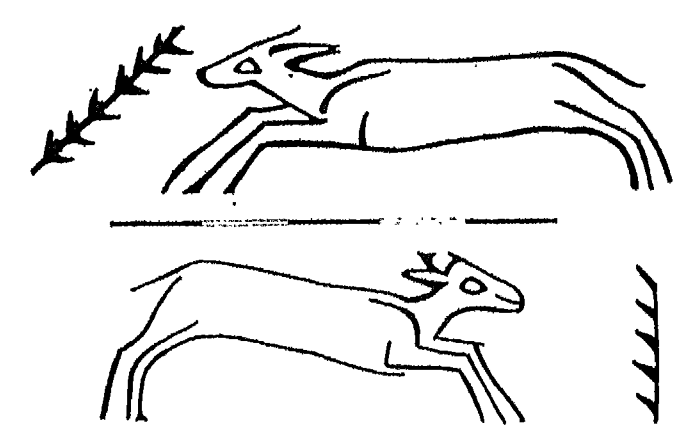
شكل ٨ ــ فيلا من عصر البرونز المتوسط عند سفح جبل جرزيم



شكل ٩ ــ فخار من عصر البرونز المتوسط الثانى
فى متحف فلسطين

الذى قلدت فيه محليا صناعة الجعلان والصدريات والاوانى المرمر المصرية ، نلمح مبادىء ظهور فن مستقل رفيع • ويتمثل هذا الفن فى المشغولات المعدنية المحفورة الجميلة ، مثل المشابك التى استعملت لشبك الاثواب معا • ويظهر هذا الفن أيضا فى التطعيم بالعاج والعظم (شكل ١٠) ، كما يظهر قليلا فى اللوحات مثل لوحة الالهة التى على شكل حية التى وجدت فى تل بيت مرسيم • أضف الى كل هذا أن الكنعانيين قد برعوا فى صناعة النسيج وصباغة الاقمشة الصوفية بألوان حمراء (ارجوانية) بصبغة مستخرجة من أحد أنواع السمك الصدفى المسمى ميوركس ، غير أنه لم تبق منها للاسف أى بقايا محفوظة بسبب عوامل التلف لمدة خمسة وثلاثين قرنا •

وبالفتح المصرى لفلسطين فى حوالى منتصف القرن السادس عشر يبدأ العصر البرونزى المتأخر • ولا يزال ثمة بعض الخلط بين المرحلة الاولى لهذا العصر التى قد نسميها « العصر البرونزى المتأخر ١ أ » وبين العصر البرونزى المتوسط الذى ظل ينسب اليه لوقت طويل معظم الفخار المميز لهذه المرحلة • غير أن وضع الحد الفاصل بين هذين العصرين عند هذه النقطة يلائم خبراء الفخار أكثر من وضعه عند أى نقطة أخرى سبق اقتراحها حتى الآن • فبين ١٥٥٠ ومنتصف القرن الخامس عشر ق • م • نجد كميات كبيرة من نوع متماثل جدا من الفخار ، عليه زخارف من لونين بأفاريز مقسمة الى حشوات تشبه الافاريز المعمارية والزخارف داخل هذه الحشوات تتجه فى معظمها نحو الطيور والسمك والاشكال الهندسية (*) • وكان الفخار الاكثر شيوعا فى هذه الفترة يتألف بصفة خاصة من أوانى عميقة وأنواع متعددة من الاباريق والقدور • ويحتل هذا النوع كل الصورة الفخارية فى تل العجول (٢) ومجدو (٩) ، غير أنه غير موجود بالمرة فى تل بيت مرسيم ، ولا شك أن ذلك ناتج من حدوث فترة انقطاع فى عمران هذا الموقع بين تدمير المصريين له فى حوالى ١٥٥٠ ق • م • واستعماره من جديد فى الطبقة C (جـ) بعد عدة أجيال • وكان هذا الفخار شائعا



شكل ١٠ — ظباء تجرى . تطعيم على العاج
عصر البرونز المتوسط من تل بيت مرسيم
(حوالى ١٦٠٠ ق • م •)

(*) التى اطلق عليها union jack نسبة الى شكل العلم البريطانى • (المراجع)

جدا على الساحل الكنعانى حيث وصل اليه من قبرص ، ومن قبرص صدر الى مصر وما وراءها من بلاد • وان خلو أريحا تماما حتى الان من هذا النوع وأنواع الفخار الاخرى المعاصرة له ، لدليل قوى على حدوث فترة انقطـاع فى تتـابع العصور بها ، كمـا حـدث فى تل بيت مرسـيم المعاصرة •

والى أن صدر حديثا كتاب « المعبد الكاذب » Fosse Temple لخيش ، كانت المرحلة التالية ، وهى مرحـلة العصر البرونزى المتأخر (١ ب) لا تعدو أن تكون طفلا ربيبا ، اذ كانت معروفة فقط من المقابر لا من المخلفات الاستراتيجرافية • ومعظم الفخار من الطبقة الاولى بالمعبد الكاذب من الطراز الذى يتميز بـه العصر البرونز (ا ب) ، ولو أن المبنى نفسه لابد وأن كان قد أقيم قبل نهاية القرن السادس عشر ق • م • وأقـدم طبقة من العصر البرونزى المتـأخر فى بيسان (بيت شان) ، وهى الطبقة التاسعة ، عزيت أولا الى القرن الخامس عشر (عهد تحتمس الثالث) ، غير أنه ثبت أن الفخار الذى وجد بها يرجع الى القرن الرابع عشر (غير أن هذا لا ينفى أن يكون أساس الحصن المصرى بالمـوقع من القرن الخـامس عشر) • ويرجع تاريخ كـل من الطبقة (جـ ١) فى تل بيت مرسيم وطبقة العصر الـبرونـزى المتأخر المعاصرة لها فى أريحا الى القرن الرابع عشر بصفة أساسية لا الى القرن الخامس عشر كما كان يظن أولا •

ومن الصعب تقسيم المرحلة الثانية من العصر البرونزى المتأخر بدقة، غير أنه بالرغم من وجود ملامح كثيرة مشتركة ، فانه توجد أيضا أوجه اختلاف كافية تمكننا من تقسيمه بتبصر الى مرحلتين : العصر البرونزى المتأخر ٢ أ (القرن الرابع عشر تقريبا) والعصر البرونزى المتأخر ٢ ب (القرن الثالث عشر تقريبا) • وتمثل أولاهما عصر العمارنة وفترة الانتقال من الاسرة الثامنة عشرة الى الاسرة التاسعة عشرة فى مصر ، بينما تعكس الثانية عصر الرعامسة • وحيثما توجد كمية وفيرة من فخار متنوع فى مستودع واحد له صفات متجانسة (حتى تكون كـل أنواع الفخار التى بالمستودع من نفس الوقت تقريبا) ، فان وضع بعض قواعد بسيطة سيساعدنا فى ايجاد الترتيب التـاريخى لهـذا المستودع فى العصر البرونزى المتأخر • فوجود أى فخـار ميسينى من بلاد اليونان يدل على أن تاريخه يتراوح بين ١٤٠٠ و١٢٣٠ ق • م •

اذ توقف استيراد هذا الفخار بعــد هذا التاريخ • وفيما عدا بضعةأمثلة قليلة جدا لاستيراد فخار ميسينى أقدم ، فان كل قطعة من أصل ايجى وجدت فى فلسطين انما تنتمى حقيقة الى العصر الميسينى المتأخر (الهيلينى المتــأخر الثالث) • والفخار الحلقى القاعــدة من قبــرص (وهى عادة أســود أو بنى داكــن أو رمادى غامــق قاعدته مشــكلة بالضغط فى حلقة معدنية) نادرا ما يكون تاريخه بعد العصر البرونزى المتأخر ٢ أ ، اذ أنه اختفى بسرعة بعد بداية القرن الثالث عشر • و السلطانيات القبرصية ذات المقابض التى على شكل عظمة اليــد ، وهى عادة ذات لون سمنى أو رمادى مائل الى الزرقة ، ومزينة بوحدات زخرفية عى شكل « سلم » جرى استعمالها خلال كلا المرحلتين (٢ أ) و (٢ ب) ، على أنها كانت أكثر شيوعا نسبيا فى المرحلة (٢ ب) •

وقد ظلت حضارة فلسطين فى العصر البرونزى المتأخر قليلة الصلة بالحضارة الكنعانية الاكثر غنى فى فينيقيا وجنوب سوريا ، ولولا تأثرها بالحضارات الشمالية ، لكانت فلسطين قد فقدت بسهولة حضــارتها الاصلية وأضحت حضارتها صورة منعكسة للحضارة المصرية • وقد ظلت فلسطين خلال كل هذا العصر جزءا لا يتجزأ من الامبراطورية المصرية ، وليس ثمة أى دليل على أن أيا من التمردات العديدة التى قامت بها بعض العناصر المعادية قد استمرت لاكثر من سنوات قليلة على الاكثر • ولدينا أدلة وافرة من مصادرنا ، ولو أنها متقطعة ، عن حدوث بعض الثورات • فقد دمر تل الحسا ثلاث مرات خلال العصر المذكور ، أو أربع مرات اذا أضفنا اليها التدمير الذى حدث فى الطبقة الرابعة فىنهاية هذا العصر • ودمرت مجدو مرتين • والقلعة المصرية فى بيسان التى أقيمت فى القرن الخامس عشر على ما يبــدو ، دمرت مرتين عــلى الاقل قبل منتصف القرن الثالث عشر • وطبعا لم تكن التدميرات فى عصر السلم المصرى بالكثرة التى كانت عليها فى العصر البرونزى المتوسط السابق أو العصر الحديدى المبكر اللاحق (*) ، اذ حظيت البلاد ببعض

(*) اى اثناء الفترات التى لم تكن فلسطين خلالها جزءا من الامبراطورية المصرية ، ومن الثابت من خطابات العمارنة أن فلســطين كانت فى حالة اســتقرار اثناء انضمامها لمصر وانهــا كانت تتمتع برخاء وازدهار ثقافى وتجــارى •

[المترجمان]

الاستقرار ، كما كانت ولايات المدن بصفة عامة ، محمية ضد الغزو من الخارج •

وكما عرفنا آنفا ، لم يتغير فن اقامة الحصون الا قليلا خلال العصر البرونزى المتأخر ، ويمكن أن يقال نفس الشىء بالنسبة لفن بناء منازل الاشراف التى لم تزل تتألف من صفوف من الحجرات المفردة أو المزدوجة حول فناء فسيح • وقد وجدت أمثلة جيدة لهذه المنازل فى تعنك ، ومجدو ، وبيت ايل وغيرها • ووجد فى بيت ايل نظام جيد لانابيب صرف مبطنة بالحجر تجرى تحت الارضيات الجصية لمنازل الاشراف لتصريف مياه المطر ومياه المجارى الى خارج أسوار المدينة • ونلاحظ تقدما كبيرا فى أحد الوجوه ، وهو الكتابة ، خلال فترة الحكم المصرى لفلسطين ، اذ زاد استخدامها أكثر فأكثر بالتدريج (انظر الباب الثامن) • وكان الكنعانيون ملمين فى العصر البرونزى المتأخر بأربعة نظم للكتابة على الاقل ، بل ربما خمسة نظم ، استخدموها كلها فى بعض الاحيان لكتابة لغتهم الخاصة • وكانت هذه الخطوط الخمسة هى :

١ ــ المسمارى الاكادى (بلاد ما بين الرافدين) •

٢ ــ الهيروغليفى المصرى •

٣ ــ الابجدية الخطية التى انحدرت منها فى النهاية الابجدية الافرنجية •

٤ ــ الابجدية المسمارية فى أوجاريت •

٥ ــ الكتابة ذات المقاطع فى جبيل (ولو أنه يحتمل أن تكون هذه قد بطل استعمالها خلال العصر البرونزى المتأخر) •

غير أنه ليس لدينا دليل على أن أيا من هذه الخطوط ، فيما عدا الخطين (٣) و (٤) ، قد استخدم بصفة منتظمة لكتابة اللغة الكنعانية ، ولم يستخدم فى الواقع الخطان (١) و (٢) لهذا الغرض الا لماما • ومن حسن الحظ بالنسبة لنا ، أن الكنعانيين فى هذا العصر سجلوا معظم كتاباتهم بالخط المسمارى الاكادى باللغة الاكادية ، وهى مأخوذة عن بلاد ما بين الرافدين فى العصر البرونزى المتوسط • ولما كان الخط المسمارى يكتب على لوحات من الطين فان كثيرا من هذه

شكل ١١ ـــ لوح لسيتى الاول من بيسان (حوالى ١٣١٨ ق٠ م٠)

اللوحات قد قاوم عوامل التلف بمرور الزمن ، وعثر الاثريون على عدد كبير منها • وقد عثر حتى الان فى الحفائر الفلسطينية على حوالى عشرين لويحـة بالخط المسـمار من القرنين الخـامس عشر والرابع عشر : منها اثنتا عشرة لويحة فى تعنك والبـاقى فى تل الحسـا ، وجـازر ، وشكيم ، وأريحـا ، ومجـدو (١٩٥٥) • والى هـذه اللويحات يجب أن يضاف ما يقرب من مائة وخمسين لويحة بالخـط المسمارى وجدت فى تل العمارنة بمصر الوسطى عام ١٨٨٧ ، كما كتب بهذا الخط ما يقرب من مائتى لويحة أخرى من نفس المجموعة فى أماكن أخرى معظمها فى سوريا وفينيقية • وتحت ظروف حفظ مناسبة ، تكاد تكون هذه اللويحات غير قابلة للتلف الى درجة أنه عندما عثر بليس Bliss على أول لويحة منها فى فلسطين عام ١٨٩٢ ظنها من الحجر •

وخطابات العمارنه التى أرسلت من الحكام الكنعانيين الموالين لمصر الى البلاط الملكى فى مصر ، تعكس غمرا من الضوء على الحياة العامة والحياة السياسية فى فلسطين فى تلك الايام • وتحوى اللويحات التى وجدت فى فلسطين خطابات ووثائق معاملات تجارية ، وقـوائم ادارية • وقد تكشف الايام لنا صدفة أرشيفا فلسطينيا كاملا من هـذا العصر ، كما أنه ليس بمستبعد أن توجد فى فلسطين يوما ما نصوص دينية مكتوبة بالابجـدية المسمـارية مثل الوثـائق التى وجـدت فى أوجاريت من القرنين الخامس عشر والرابع عشر ق • م•

وقد أقيمت لوحات وتماثيل مصرية فى مدن وقـلاع كثـيرة فى فلسطين ، وقد وجد فعلا فى بيسان (بيت شان) التى كانت مدينة لحامية مصرية ثلاث لوحات ملكية مصرية ، وجزء من لوحة رابعة، وتمثال ملكى ، ولوحات لاشخاص ونصوص مصرية أخرى (شـكل ١١) ، واكتشف جزء من لوحة لتحتمس الثـالث أو أمنحتب الثـانى فى شـنريث (تل العريمه) ، كما وجدت كتابات مصرية أخرى فى أماكن متعددة من مناطق العمران المختلفة فى ذلك العصر • ولا شك فى أن ثمة مستندات كثيرة مكتوبة فى غاية الاهمية تاريخيـا لا تزال مطمورة فى تـلال فلسطين •

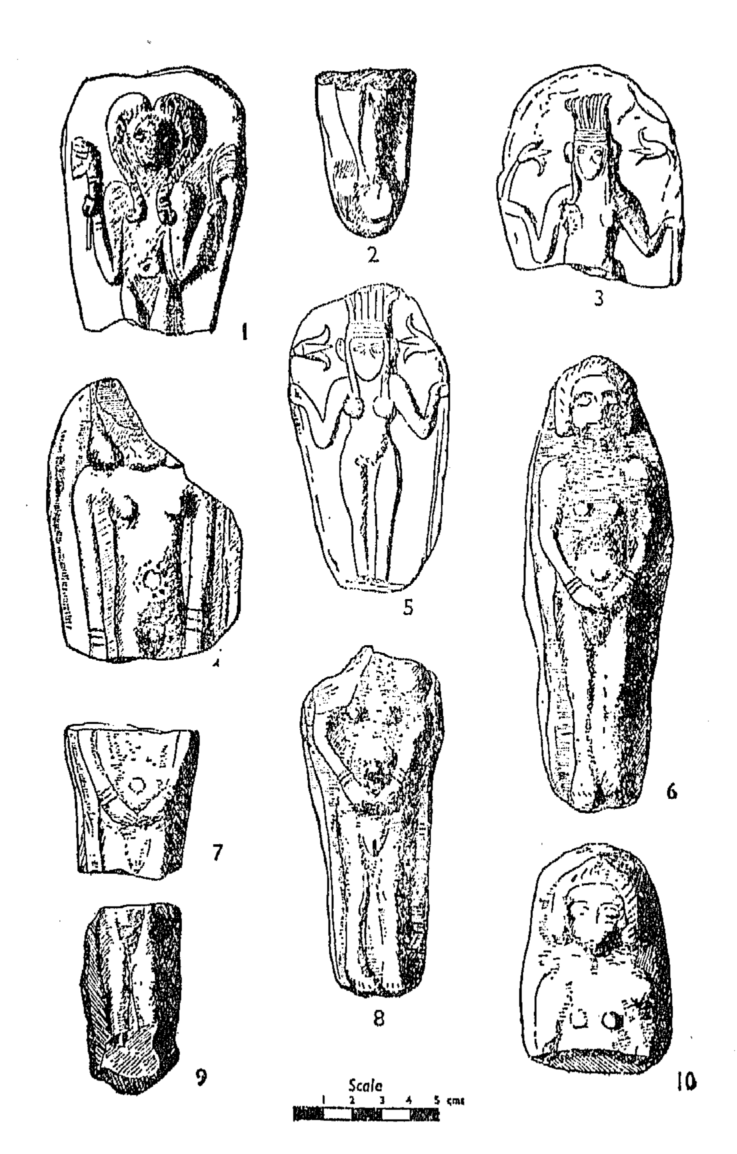
ولدينا الان عديد من المعابد والهيـاكل والاثـار الدينية من العصر البرونزى المتـأخر • ففى لخيش كشـف عن هيكل يرجع تاريخـه الى

الفترة من ١٥٠٠ الى ١٢٣٠ ق • م •، وقد أعيد بناؤه مرتين خـلال هذه الفـترة ولمخلفات كل مرحـلة منـها أهميـة كـبرى فى التـرتيب التاريخى (كما سبق الذكر) • وفى مجدو ، وجد معبد من ثلاث مراحل فى الطبقات ٨ — ٧ (حـوالى ١٤٠٠ — ١١٥٠ ق•م•) ، وفى بيسـان كشف عن معبدين على الاقل من العصر البرونزى المتـأخر فى الطبقتين (٩) و (٧) ، وهما ينتميان الى القـرنين الرابـع عشر (لا القرن الخامس عشر كما كان يظن أولا) والثالثأعشر (لا القرن الرابع عشر) على التوالى ، أما الثلاثة معابد الاخرى بهـذا الموقع فترجع الى عصر الحديد (كما سنذكر فيما بعد) • وبفضل تشابه المسـقط الأفقى لمعبد كشف عنـه شـيفرSchaefferفى أوجاريت ، مع المسقط الأفقى للبناء الضخم الذى يوجد عند البوابة الشمالية فى شكيم والذى ارخـه فيلتـر Welter بحوالى القـرن الرابـع عشر ، يمـكن الان تعريف هذا البناء بأنه معبد ، بعد ان كانت ماهيته موضع خلاف بين سيلين Sellin وفيلتر • وكان يبلغ طول هذا البناء ٢٥ مترا ، وعرضه ٢١ مترا ، وكـان مزودا بجـدران خارجية مصمته يبلغ سمكها خمسـة أمتار ، وعلى جانبى المدخل برجان ، وفى داخله كان يوجد صفان من الاعمدة يتألف كل منهما منثلاثة أعمدة ، ولا شك أن هذا البناء الحجرى الذى كشف كان يحمل أصلا طابقين أو أكثر من اللبن • وفى أوجاريت ومجدو تدل مساقط أفقية مماثلة على وجود جدران لها نفس السمك ، ولذلك لابد أن كانت هناك مجموعة كاملة من المعابد الكنعانية التى تتألف من عدة طوابق • ولاشك أن تكوين هذه المعابد قد انعكس فى المقاصير المتعددة الطوابق الاحدث تاريخا فى بيسان •

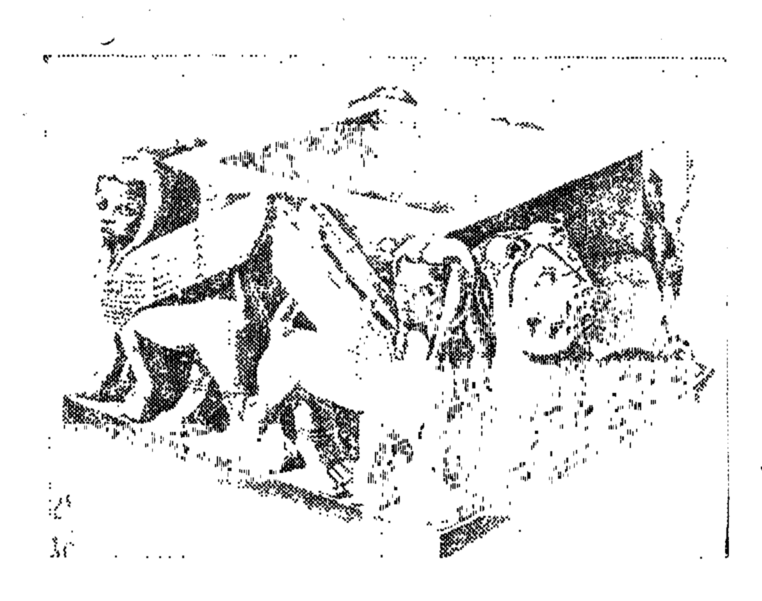
ومن جهة أخرى لم يعد هناك أى سبب الان لاعتبار المبنى الذى يسمى « مرتفعة جازر » (والذى كان لا يزال مستعملا فى العصر البرونزى المتأخر مع أنه ، على ما يبدو ، قد أسس فى حوالى نهاية العصر البرونزى المبـكر) هيكلا بالمعنى الدقيق لهـذا الاصطلاح • ويظهر بالاحرى أنه كان مقصورة جنائزية اذ أن تخطيط الاحجـار التى لاتزال قائمة به يطابق تخطيط المنهيرات المعاصرة له فى معبد داجون فى أوجاريت وفى حقل اللوحات فى آشور • « ومرتفعات » عصر الحديد اللاحق ، التى ذكرت مرات عديدة فى التوراة ، كانت هى الاخرى مبان مكشوفة مثل مرتفعات الانباط فى البتراء (أنظر الباب السابع) •

ومن أكثر انواع الاثار الدينية شيوعا فى مناسيب العصر البرونزى المتأخر ، اللوحات التى تسمى « لوحات عشـــتاروت » (شـــكل ١٢) وهى لوحات من الفخـــار بيضاوية الشـــكل عادة ، مطبـــوع عليهـــا بالضغط (بواسطة قالب من الفخار او المعدن) صورة أمامية عارية للالهـــة عشتاروت ، ذراعاها مرفوعتان الى أعلى ، ويداها ممســـكتان بسيقان لوتس أو بحيات أو بكليهما،ورأس الالهة مزينة بخصلتين من الشعر مماثلتين لخصلتى شعر الالهة حتحور فى مصر • وقد اقتبست هذه اللوحات من بلاد ما بين الرافدين حيث كان لها تاريخ سابق فى العصر البرونزى المبكر • وقـــد وجـــدت أيضـــا فى فلسطين أنواع أخرى من الالهات العاريات على شكل لوحات أو على شكل تماثيل صغيرة •

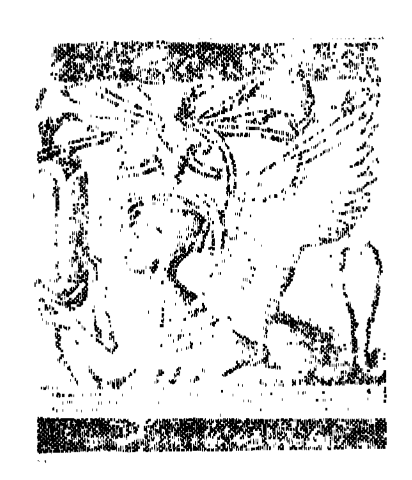
وقطع الفن الكنعانى التى وجدت فى طبقات العصر البرونزى المتأخر أقل الآن مما كان يظن بصفة عامة اولا ، اذ من المعروف حاليا ان كثيرا مما كان يعتقد من قبل بانه ينتمى الى هذا العصر ، انما يرجع تاريخه فى الواقع الى عصر أحدث • فترجع مثلا الى عصر الحديد الاول حوامل المباخر والتوابيت الادمية الشكل التى وجدت فى بيسان ، وغطاء الصندوق العاج الذى وجد فى تل الفرعه ، وتابوت أحيرام الذى وجد فى فينيقية • ومعظم القطع العاج (لكن ليس كلها) التى وجدت فى الخبيئة الكبيرة بمجدو ، ترجع الى القرن الثانى عشر (كما سنذكر فيما بعد) (شكل ١٣ — ١٤) • ومع ذلك ، فبفضل الكنز الاثـــرى الثمـــين الذى عثر عليه فى أوجاريت من العصر البرونزى المتـــأخر ، نعلم أن الفن الكنعانى كان أغنى بكثير مما كنا نظنه على أساس الحفائر التى جرت فى فلسطين • فالطاسان الذهبيان الجميلان المسبوكان اللـــذان وجدهما شيفر فى أوجاريت من القرن الخامس عشر او الرابع عشر ، مثل حى لمستوى الفن الكنعانى الذى يجب ان نتوقع وجوده فى المراكز الفنية • غير أن معظم المواقع الفلسطينية فى هذا العصر كانت مواطن رؤساء قبائل فقـــراء ولذلك لايمكن أن نتوقع أن نعثر فى هـــذه المواقع على كنوز فنية • أضف الى ذلك أن فلسطين كانت قريبة جدا من مصر ، ومن ثم فقـــد كان فنهـــا تحت التأثير الدائم للفن المصرى ، ولذلك فقـــد كانت معظم منتجاتها الفنية تقليدا هزيـــلا للمنتجات الفنيـــة المصرية الاصيلة • ويظهر هذا التأثير بوضوح فى بيســـان ولخيش ، حيث نجـــد مستوردات مصرية وتقليدات محلية ، غالبا ما تكون أقل منها بكثير فى



شكل ١٢ ــ لويحات عشتاروت من تل ميت مرسيم
ارقام من ١ ــ ٥ من عصر البرونز المتأخر و ٦ ــ ١٠ من عصر الحديد الاول



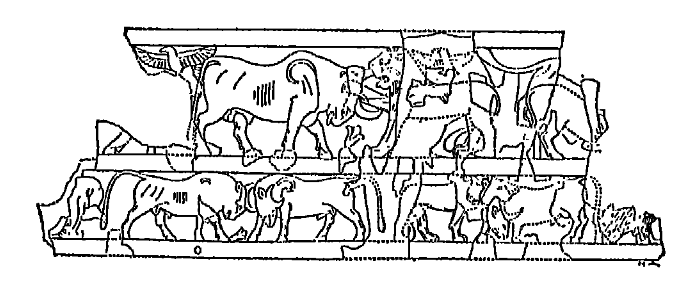
شكل ١٣ — صندوق من العاج مزخرف باسود
وملائكة خرافية من مجدو (حوالى القرن الثالث قبل الميلاد)



شكل ١٤ — عاج مشكل على هيئة ملاك خرافى ، من مجدو ،
أوائل القرن الثانى عشر قبل الميلاد

مستواها الفنى (شكل ١٥) كما كان ثمة أيضا تـأثير أجنبى كبير من جزر ايجـه وخاصة فى الفخار • ومن الامثلة الجيـدة المستوردة من سوريا ، اللوح البازلت الذى وجد فى بيسان ويرجع تاريخه الى القرن الرابع عشر (لا الخامس عشر) ، وعليه منظران لصراع بين أسد وكلب ضخم ، وربما كان هذا اللوح جزءا من الغنائم المصرية فى الحرب • وتبين المنحوتات التى وجدت فى أوجاريت تدهورا واضحا فى المهارة الفنية فيما بين القرن الخـامس عشر والقـرن الثـالث عشر • ويظهر نفس التدهور فى فلسطين ويبدو هـذا واضحا فى تمثال الاسـد والسلطانية القليلة الغور المزينة برؤوس أسود ، المصنوعين من الحجر الجيرى بطريقة ركيكة بدرجة غير معقولة ، ويرجع تاريخ كليهما الى القرن الثالث عشر ، وعثر عليهما فى تل بيت مرسيم •

وقد وجدت هاتان القطعتـان فى حفرة للمهمـلات بالقرب من مبنى لم يكشف عنه بعد (قد يكون معبدا) بالجزء الاخير من الطبقة (جـ) (من القرن الخامس عشر الى أواخر القرن الثالث عشر) • وتنتشر فى كل المكان آثار تدمير عنيف بسبب الحريق الذى تعرضت له آخر مدينة كنعانية فى هذا الموقع (الذى يحتمل ان يكون بلدة دبير المذكـورة فى يشوع ١٠ : ٣٩) على يد الغزاة الاسرائيليين • وقد تسبب حريق مدمر مماثل فى القضاء المبرم على لخيش المعاصرة لها فى تاريخ يستحيل أن يكون سابقا للسنة الرابعة من حكم مرنبتاح بن رمسيس الثانى وخليفته• وهذان التدميران اللذان حدثا فى حوالى ١٢٢٠ ق • م • قد سبقهما تدمير اريحا وبيت أيل عند دخول بنى اسرائيل الى أرض فلسطين ، وللاسـف ، كل ما يمـكننا تقريره بخصوص تاريخ هذين التدميرين الاخيرين هو أنهما حدثا عقب عصر استورد فيه الفخار الميسينى وقلد ،



شكل ١٥ ــ تطعيم على العاج من لخيش
(القرن الثالث عشر قبل الميلاد)

ولسنا نجـــد فى أى من هذين الموقعين شقفا كثيرا منتشرا ليعاوننا فى تأريخهما ، اذ أن كل الحجرات كانت خاوية تماما ، وقطع الشقف التى وجدت بالطبقة المعنية قد تشير فى أغلب الاحيان الى وقت سابق للتدمير النهائى لهما بعشرات السنين • وتشير الادلة التى لدينا حاليا الى أن سقوط بيت ايل كان فى غضون القرن الثالث عشر ، أما بالنسبة لاريحا فقد أضحت مشكلتها أكثر غموضا بعد الحفائر التى أجرتها مس كينيون ، والتى بينت أن منسوب العصر البرونزى المتأخر قد تعرى كله تقريبا بسبب الرياح والامطار التى تعرض لها هذا الموقع خلال المدة الطويلة التى هجر فيها بعد الفتح الاسرائيلى •

وخلال العصر البرونزى المتوســط والبرونزى المتأخر ، كانت المنطقة الساحلية من جبل كاسيوس (الاقرع) بالقرب من انطاكية فى شمال سوريا الى أقصى جنوب فلسطين ، آهلة بشعب من جنس مختلط يتكلم اللغة السامية للشمال الغربى بلهجات متقاربة جدا ، ولهم حضارة مادية ودينية مشتركة ، وامتدت حدودهم شرقا فى جنوب سوريا وفلســطين فى وقت من الاوقات حتى حافة منطقة العمران الدائمة • وبالرغم من بعض الاختلافات المحلية ، فان هؤلاء الكنعانيين (وهو الاسم الذى أطلقته عليهم الشعوب المجاورة ثم أطلقوهم هم على أنفسهم بعد ذلك) كانوا كلهم متجانسين جدا كالحثيين والاغريق القدماء • وكما رأينا ، كانت الحضـــارة الكنعانية متقدمة جدا فى بعض النواحى ورديئة لدرجة مفزعة فى بعض النواحى الاخرى •

وبدخول بنى اسرائيل الى أرض فلسطين فى القرن الثالث عشر ، وغزو شعوب البحر لها فى أوائل القرن الثانى عشر ، ينتهى فى الواقع تاريخ فلسطين الكنعانية ، ولو أن وديان النهر والسهول ظلت لمدة قرنين آخـــرين آهلة بولايات المـــدن الكنعانية • لكن الـــكنعانيين كانوا قد استنفذوا كل نشاطهم الحضارى الذى سندهم حتى ذلك الوقت ، وبعد أفول طويل ودخول دم جديد ، بزغ منهم شـــعب حى جديد هو الشـــعب الفينيقى الذى قام بالانجازات المادية العظيمة لفلسطين فى عصر الحديد•

الفصل السادس

فلسطين فى عصر الحديد

يزعم البعض أحيانا أنه حدث تغير مفاجىء من تغلب النحاس والبرونز الى تغلب الحديد كمادة لصنع الالات والاسلحة ، بينما يزعم آخرون أن التغير كان بطيئا جدا ، والواقع أن كلا من هذين النقيضين غير صحيح • فالحديد الشهبى الساقط من السماء كان معروفا منذ عصر ما قبل الاسرات فى مصر واستخدم فى صنع الالات والاسلحة فى الالف الثالثة قبل الميلاد • وليس من السهل تمييز هذا الحديد الشهبى عن الحديد الارضى بوجود نسبة قليلة من النيكل به فحسب (فى حين ان النيكل لا يوجد فى خامات الحديد الارضية الا بنسبة ضئيلة جدا) ، بل أن مصدره الشهبى ليدل عليه صراحة كل من اسمه المصرى القديم « معدن السماء » وكتابته الرمزية المسمارية • ولم يبدأ استعمال الحديد بكثرة لصنع الاسلحة ، مثل الخناجر ورؤوس الفؤوس والسيوف ، الا فى القرن الرابع عشر • وفى القرن التالى ازداد استخدامه اكثر ، ولدينا خطاب بالخط المسمارى من عاصمة الحيثيين فى آسيا الصغرى يبين أن الحثيين قد احتكروا استغلال هذا المعدن • ولم يبطل احتكار الحيثيين للحديد الا بعد زوال امبراطوريتهم فى حوالى ١٢٠٠ ق • م • ومن ثم نجد الحديد يحل محل النحاس والبرونز تدريجيا فى صنع الآلات والاسلحة ، وفى حوالى القرن العاشر كان الحديد هو المعدن الرئيسى لصنع سلاح المحراث والمناجل والاسلحة • وتحديد بترى للقرن الرابع عشر لشيوع استخدام الحديد فى فلسطين مبنى على تواريخه المطلقة الخاطئة ، اذ أن الحصر الدقيق لكل ما عثر عليه من آثار من الحديد فى ضوء ما ذكره مكتشفوها ليدل بوضوح على أن الفلسطينيين استخدموا الحديد لاول مرة فى القرن الثانى عشر أو القرن الحادى عشر ق • م • (مقابر تل الفرعه) وأن بنى اسرائيل بدأوا استعماله ببطء كبير ، اذ عاقهم عن ذلك احتكار الفلسطينيين له (صموئيل الاول ١٣ : ١٩ — ٢٣)

وقد حدث ارتباك شديد فى مسألة التقسيم التاريخى لعصر الحديد بسبب آراء المنقبين الاوائل فى كل من جازر وأريحا ، ثم زادت هذه المسألة غموضا من جراء اعطاء تسميات متناقضة لوحدات هذا التقسيم. وقد سبق ان أوضحنا بايجاز فى الباب الثانى كيف اضطر ماكاليستر الى خفض تاريخ عصر الحديد الاول بسبب محاولته ملء فجوة عمرانية غير معروفة تبلغ عدة قرون فى جازر . كما سبق ان أوضحنا كيف ضلل واتزينجر Watzinger بتعريف سللين Sellin خطأ للجدار المنحدر الضخم الذى يرجع الى العصر البرونزى المتوسط بأنه الجدار الذى بناه حيئيل البيتئيلى فى أريحا فى القرن التاسع ق.م. (ملوك الاولى ١٦ : ٣٤) .

وبالرغم من رد الفعل الصحيح لما كنزى Mackenzie فى بيت شمس ، فان الترتيب التاريخى الاثرى لفلسطين كان قد وصل الى حالة ارتباك لا يمكن وصفها عندما بدأ المؤلف تنقيباته فى جبعة شاول (تل الفول) عام ١٩٢٢ ، ومنذ ذلك الحين أخذت تتضح معالم الترتيب التاريخى المطلق لفلسطين ، ويرجع الفضل فى ذلك الى الاعمال التى قام بها فيثيان آدمز Phythian-Adams فى عسقلون (١٩٢٠) ، وهاميلتون Hamilton فى تل أبو هوام (١٩٣٣ — ١٩٣٤) ، والمؤلف فى جبعة وتل بيت مرسيم (١٩٢٦) وبيت ايل (١٩٣٤) ، ويريزنر Reisner (نشر عام ١٩٢٤) ، وكروفوت ومس كينون فى السامرة ، وشيبتون Shipton وآخرون فى مجدو (١٩٢٥) الخ . ويجب أن نؤكد هنا تأريخ المجموعات الفخارية ذات الصفات المتجانسة تجانسا كافيا من عصر الحديد ، فيما بين القرن الثانى عشر والقرن السابع ، قد ثبت الان داخل حدود ضيقة . وسنصف فيما يلى النقط الرئيسية لهذا التأريخ التتابعى . وفى نفس الوقت أود أن أوجه الانظار الى عدم جدوى العمل الاثرى فى فلسطين نسبيا ، ما لم تتم أولا دراسة التأريخ التتابعى لفخار كل عصر العهد القديم (التوراة) . وليس بغريب تحت هذه الظروف ، أن معظم علماء تاريخ الكتاب المقدس من الجيل السابق لجيلنا ، قد كفوا عن القيام بأى محاولة لاستخدام أى معلومات أثرية فى تأريخاتهم ، اللهم الا فى حالات وجود وثائق مكتوبة أو آثار معمارية غير عادية أو قطع آثار متحفية .

وبينما كان التأريخ التتابعى للفخار فى طريق الاستقرار ، نشأ ارتباك جديد فى التأريخ الاثرى لعصر الحديد بسبب التضارب والتناقض فى التسمية ، ففى سنة ١٩٢١ ، رتبت مدارس الاثار الرسمية الثلاثة (الانجليزية والفرنسية والامريكية) فى القدس ، بالاشتراك مع مصلحة الآثار الفلسطينية ، العصور التاريخية لفلسطين فى نظام قسم فيه عصر الحديد الى الاقسام الاتية :ـ

١ ــ عصر الحديد المبكر (الفلسطينى) ، ١٢٠٠ ــ ٦٠٠ ق.م .

(ا) فلسطينى Philistine (ب) اسرائيلى Israelite .

٢ ــ عصر الحديد المتوسط (الفلسطينى) ، ٦٠٠ ــ ١٠٠ ق.م .

(ا) يهودى Jeish (ب) هيلنستى Hellenistic .

وقد تقيد المؤلف بهذا التقسيم فى تنقيباته الاولى . وقسم عصر الحديد المبكر الى عصر الحديد المبكر الاول (١٢٠٠ ــ ٩٠٠ ق.م.) وعصر الحديد المبكر الثانى (٩٠٠ ــ ٦٠٠ ق.م) غير أنه اضاف اليهما بعد ذلك « الحديد المبكر الثالث » ليستوعب الفقرتين البابلية والفارسية . ثم حدث بعد ذلك أن استبدل كلارنس فيشر هذا التقسيم الاصلى الرسمى بتقسيم آخر هو « الحديد المبكر » (١٢٠٠ــ ٩٠٠) والحديد المتوسط (٩٠٠ ــ ٦٠٠) والحديد المتأخر (٦٠٠ ــ ٣٠٠). وترتب على هذا التغيير والتبديل أن كان المنقبون فى مجدو مثلا يستخدمون الاصطلاح « عصر الحديد المبكر الثانى » للتعبير عن المدة بين ١٠٥٠ و٩٠٠ ق . م ، بينما كان المؤلف يستخدم نفس الاصطلاح للتعبير عن كل المدة بين حوالى ٩٠٠ و ٦٠٠ ق . م. ولم يكن هذا الخلط ليؤدى الا الى حالة من الارتباك ما لم تستخدم القرون عوضا عن العصور . ولهذا السبب كف المؤلف تماما عن استخدام التسميات « المبكر ، والمتوسط ، والمتأخر » واستبدلها بالتسميات « الاول ، والثانى ، والثالث » . وفى هذا الباب ستستخدم التسميات الاتية للمراحل المتعاقبة لعصر الحديد قبل العصور الهيلنستية .

العصور	التاريخ	التـــاريخ المقـــابل فى التوراه
الحديد الأول	يشمل القرون ١٢ — ١٠	عصر القضـــــاة وعصر الملكية المتحدة
الحديد الثانى	من القـــرن النــاســـع الى أوائل السادس	عصر الملكية المنقسمة
الحديد الثالث	حوالى ٥٥٠– ٣٣٠ق٠ م٠	فترة السبى الى بابل والعودة الى اورشليم

عصر الحديد الاول

أول القرن الثاني عشر ــ آخر القرن العاشر

ذكرنا بايجاز فى نهاية الباب السابق دلائل التتابع الزمنى التى حصلنا عليها من مناسيب التدمير التى فصلت بين آخر عمران كنعانى وأول عمران اسرائيلى فى المواقع المختلفة بفلسطين • ويبدو أن شغل الاسرائيليين لهذه المواقع كان فى أول الامر بطيئا (مثل ما حدث فى أريحا) ثم جرى بسرعة تدريجيا (بعد فجوة عمرانية طويلة فى بيت أيل ، لكن بعد فترة قصيرة او منعدمة فى تل بيت مرسيم) • وفى حوالى نهاية القرن الثالث عشر ، كان الاسرائيليون ، على ما يبدو فى مرحلة الاستقرار فى كل المناطق الجبلية ، على جانبى نهر الاردن ، غير أنهم لم يكونوا قادرين على التغلب على العربات الحربية الكنعانية حتى يعصفوا بالمدن المحصنة تحصينا قويا فى السهول ووديان النهر ، اذ نعلم من الحفائر فى مجدو وبيسان أن هاتين المدينتين قد قاومتا بنى اسرائيل لعدة أجيال • ومن جهة اخرى تزايد عدد السكان الاسرائيليين بسرعة فى المناطق الجبلية • وبفضل الانتشار السريع لفن اقامة صهاريج للمياه وتبطينها من الداخل ببطانة من ملاط الجير الغير منفذ للماء بدلا من ملاط المرل الجيرى او الحجر الجيرى الخام الذى كان يستعمل من قبل ، وهو فن لم يعرف الا حديثا فى ذلك الحين ، تمكن بنو اسرائيل أن يستقروا فى أى مكان تسقط فيه الامطار ، بينما كان سابقوهم من الكنعانيين مضطرين لان تقتصر سكناهم عادة على مواقع قريبة من الينابيع أو جداول المياه الدائمة •

وفى أوائل القرن الثانى عشر قبل الميلاد ، غمر سواحل فلسطين فيض من شعوب البحر من جزر شمالى البحر المتوسط وشواطئه • ويبدو أنها قد شغلت كل السهل الساحلى لفلسطين • وأشهر شعوب البحر هذه الفلسطينيون الذين قطنوا المنطقة الواقعة بين غزة وعفرون ، وشعب الثكر الذين قطنوا المنطقة الساحلية جنوبى الكرمل • وقد جلب الفلسطينيون حضارتهم الخاصة معهم ، ولكنهم سرعان ما اندمجوا وامتزجوا مع الكنعانيين الذين هزموا على أيديهم • ولما كانوا يمتلكون

أغنى قطاع من أرض فلسطين فانه لم يمر وقت طويل الا وكانوا قد سادوا على شعوب البحر الاخرى • وفى حوالى منتصف القرن الحادى عشر هزم الفلسطينيون الاسرائيليين فى حجر المعونه (ابنازر) واستولوا على التابوت ودمروا شيلوه • وتدل معالم التدمير التى حدثت فى مدن يهوذا الاخرى فى نفس التاريخ تقريبا ، على أن الفلسطينيين خربوا كثيرا من غرب فلسطين وأخضعوا بنى اسرائيل • وقد تخلص شاول من نير حكم الفلسطينيين فى أوائل حكمه (حوالى ١٠٢٠ ق • م •) لكن بعد موته فى جبل جلبوع استولى الفلسطينيون من جديد على حكم البلاد ولم يفقدوها ثانية الا بعد عدة سنوات اثناء حكم الملك داود (فى حوالى ٩٩٠ ق • م) ومنذ ذلك الحين لم يلعب الفلسطينيون الا دورا ثانويا فى فلسطين ، واقتصر نشاطهم غالبا على التجارة •

وكل معلوماتنا حتى الآن عن حضارة الفلسطينيين مستمدة فى معظمها من مواقع خارج السهل الفلسطينى نفسه نظرا لان الخمس مدن التى يضمها البنتابوليس استمر عمرانها فى العصور التالية ، ولان عمق الانقاض المتراكمة بها الان كبير جـدا كمـا كشف عن ذلك جارسانج وفيثيان ــ آدمز فى عسقلون وغزة • وما أمدتنا به الدراسات الاثرية من معلومات عن الحضارة المادية للفلسطينيين مستمد معظمه من الحفائر التى أجريت فى السهل الفلسطينى (شفا الله) والنقب • وقد بزغ طراز من الفخار مميز جدا لهذه الحضارة فى السهل الفلسطينى خلال العشرات الاولى من القرن الثانى عشر واستمر استعماله حتى أواخر القرن الحادى عشر ، ويبدو أنه لم يستعمل بعد ذلك الا نادرا جدا • ولما كان هذا الفخار الفلسطينى موجودا بوفرة فى كل مناسيب هذا العصر ومخلفاته فى أرض فلسطين Philistia نفسها ، كما يوجد أيضا بوفرة فى المواقع المجاورة بالنقب وشفا الله فيما بين حوالى ١١٥٠ ق • م • وأواخر القرن الحادى عشر ، وفضلا عن ذلك فان تسميته بالفخار الفلسطينى تبدو تسمية بديعة جدا فان هذا النوع من الفخار يقل نسبيا كلما ابتعدنا عن أرض فلسطين نفسها اذ يوجد قليلا فى مخلفات نفس العصر فى بيت زور وتل النصبه وبيت أيل ، وقليلا جدا فى مجدو ، غير أنه لم يعثر عليه حتى الآن فى بيسان أو تـل أبو هوام مع أن العمـران فى هذين الموقعين استمر طوال كل هذا العصر • ولهذا فان تسمية هـذا النوع بالفخار الفلسطينى من وجهة التوزيع الجغرافى وحده تسمية صحيحة تماما •

وقد زادت معلوماتنا عن فترة ما قبل تاريخ هؤلاء الفلسطينيين المذكورين فى التوراة زيادة كبيرة بفضل التنقيبات التى أجراها فورومارك ، وشيفر ، وديكايوس ، منذ سنة ١٩٤٧ فى سندا وانكومى بشرق قبرص • ففى مرحلة لم تكن معروفة من قبل أرخت فيما بعد بين ١٢٢٥ و ١١٧٥ ق • م • وجد فورومارك فخارا مصنوعا محليا من نوع الفخار الميسينى ٣ حـ ـ (ا) يكاد يكون مطابقا تماما لاقدم فخار فلسطينى وجد بفلسطين • وهذا الفخار القبرصى يشبه الفخار الميسينى الذى وجد فى أرجوس ، ولذلك لابد وأن يكون قد جاء من اليونان • وعندما غزا فلسطين هؤلاء المستوطنون (الذين ربما كانوا من البلاسيجيين) فى حوالى ١١٧٥ ق•م، استمروا فى صنع نفس هذا الفخار على صورة فخار « فلسطينى » • والاشكال الرئيسية لهذا الفخار أوان ذات مقبضين وأباريق ، ولونه عادة برتقالى مائل الى الصفرة طلى بعد حرقه بطلاء رمادى مصفر ثم رسمت عليه باللونين الاحمر والاسود زخارف هندسية وبجع نافش ريشه ، وأحيانا يلغى الطلاء كلية ، وأحيانا يستبدل ببطانه حقيقية ، وثمة تنوع كبير جدا فى شكل الاناء واختيار زخارفه • ولهذه الصحاف مقبضان كل منهما على شكل عروة أفقية مائلة • والزخرفة المفضلة عندهم تتألف من سلسلة من الحشوات التى تشبه الافاريز المعمارية ، وفى كل حشوة منها رسمت بدقة متناهية بجعة وهى تقوم بنفش ريشها وجناحاها مرفوعان الى أعلى • وكثيرا ما صور الفنان البجعة ، وخاصة على الاوانى التى ترجع الى تاريخ متأخر نسبيا ، وهى تدفع بمنقارها الى الامام ، وفى هذه الحالة يبدو الجناح عادة وكأنه مانعة صواعق ، وكانت الاباريق مزودة عادة بمصب به مصفاة ، ومن الجلى أن هذا المصب كان مستخدما لنفس الغرض الذى استخدمت من أجله الشعوب الجبلية القديمة سلاميات البوص او الانابيب فى شرب الجعة لتصفيتها حتى لا يبتلع شاربها قشور الشعير معها • وليس من العسير علينا أن نستنتج من وجود صحاف الخمر وأباريق البيرة فى كل مكان ان الفلسطينيين كانوا مفرطين فى شرب الخمور ، وفى هذا الامر تتفق المعلومات الاثرية مع ما ورد فى التوراة ، اذ أننا نجد فى قصة شمشون أن والاثم شرب الخمر قد ورد ذكرها عدة مرات فيما يختص بالفلسطينيين ، ولو أنه ذكر بصفة مشددة عن شمشون أنه لم يشرب النبيذ أو الجعة أبدا •

وقبيل غزو الفلسطينيين لفلسطين ، كان الكنعانيون قد بداوا فى اقتباس عادة المصريين فى دفن موتاهم فى توابيت آدمية الشكل من الفخار ، شكلت على غطائها ملامح آدمية وأحيانا بعض تفصيلات أخرى • وقد وجد تابوت من هذا النوع من القرن الثالث عشر فى لخيش ، عليه كتابة هيروغليفية غريبة جدا مكتوبة محليا • وخلال القرنين الثانى عشر والحادى عشر نجد هذه التوابيت الفخارية فى مقابر ومعها فخار فلسطينى فى تل الفرعه فى النقب ، وفى مقابر العصر الحديدى المعاصرة لها فى بيسان • ووجدت هذه التوابيت أيضا فى دلتا مصر ومعها فى الغالب فخار وأسلحة من صناعة أجنبية • وقد ظهر أحد هذه التوابيت أيضا فى جنوب شرقى عمان على حافة الصحراء السورية ، ولابد ان يكون تاريخه أحدث قليلا من تاريخ التوابيت الاخرى • ويبدو محتملا أن انتشار هذا الاسلوب لدفن الموتى فى هذا العصر ، كان راجعا جزئيا على الاقل الى تأثير فلسطينى •

وبفضل الربط بين الادلة الاثرية والتاريخية التى جاء ذكرها فى التوراه ، وهو ما يتبع الان فى دراسة الآثار الفلسطينية ، أصبح من الممكن تحديد بعض التواريخ بدقة أكثر • وعلى سبيل المثال الموقعة بين باراق وسيسرا ، التى جاء فى التوراة وصف حيوى لها فى أنشودة النصر التى أنشدتها دبوره « فى تعنك بالقرب من مياه مجدو » (قضاة ٥ : ١٩) ، وبمقارنة العصور التى سكنت خلالها مجدو وتعنك (وهى تقع على بعد خمسة أميال فقط الى الجنوب الشرقى من مجدو) ، ظهر أن العمران فى كل من هاتين المدينتين يميل الان يكون مكملا للآخر لا متعاصرا معه ، تماما كما حدث فى مدينتى عاى وبيت ايل اللتين كانتا قريبتين لدرجة لا يمكن معها أن تكونا قد ازدهرتا فى وقت واحد ، اللهم الا فى فترة وجيزة جدا • فتعنك مثلا كانت مدينة زاهرة فى العصر البرونزى المبكر الثالث والعصر البرونزى المبكر الرابع ، بينما كانت مجدو خاوية غير مسكونة ، ثم كانت تعنك أيضا عاصمة لولاية كبيرة فى منتصف القرن الخامس عشر بينما كانت مجدو محمية مصرية صغيرة• وعدم ذكر أى اشارة بالمرة عن مجدو نفسها فى الوقت الذى أصبحت فيه تعنك عاصمة للمنطقة ليدل دلالة قاطعة على أن مجدو كانت حينئذاك خرابا • والآن قد أظهر كشف هذا الموقع أنه بعد تدمير مجدو (٧) فى حوالى الربع الثالث من القرن الثانى عشر ، ظلت مجدو خرابا حتى

سكنها شعب الطبقة السادسة وقد ترك هذا الشعب ، لاول مرة منـذ قرون ، أى محاولة لاعادة استخدام التحصينات القديمة ومنطقة القصر القديم ، وقام بعمل انشاءات تعتمد على تخطيط جديد تماما • ويشير الفخار الى اتجاه مماثل اذ أن أنواع الفخار التى وجدت فى مجدو (٦) تطابق حقيقة تلك التى وجدت بالمناطق الجبلية الاسرائيلية• وفى مجدو (٥) نجد استمرارا لنظم البناء التى اتبعت فى مجدو (٦) وأنواعا جديدة من الفخار تتجه فى توزيعها الجغرافى نحو الشاطىء أكثر مما تتجه نحو المناطق الجبلية • ومن ثم يمكن تأريخ انشودة دبوره عن طريق الدراسة الاثرية بحوالى ١١٢٥ ق•م• ، وهو تاريخ يتفق تماما مع ماجاء فى محتويات هذه الانشودة من متطلبات أدبية وظروف سياسية •

مثال آخر لايضاح الكيفية التى يكمل بها التأريخ بالفخار والتأريخ بالكتابة بعضهما بعضا ، نراه فى انتشـار أنـواع مختلفـة لحـواف أوعية التخزين فى المنـاطق الجبلية الوسطى بفلسـطين خـلال القـرن الحادى عشر • ففى المراحل الثلاثة الاولى لعصر الحديد فى بيت أيل كان الاناء الغالب وعاء تخزين كبير Pithos يتميز بحافة مرتفعة كالطوق وجسم جرش • ويوجد نفس هذا الاناء بوفرة فى عاى وتل النصبه المعاصرتين لبيت أيل ، وفى جبعة (تل الفـول) كذلك خـلال فتـرة الاستيطـان الاسرائيلى الاول لهـا ، وفى بيت زور فى الجنـوب ، وفى شكيم فى الشمال • ويظهر هذا الاناء أيضا فى تل بيت مرسيم وبيت شمس فى شفا الله ، غير انه لم يكن شائعا • ويظهر نفس الاناء احيانا فى مجـدو (٧) ، وكان شائعا جـدا فى مجدو (٦) ، وهو ما أظهـرته حفـائر المؤلف بالموقع ، ولكنه لم يظهر مطلقا فى مجـدو (٥) • ومن ثم فان هذا الطراز من الفخار الذى ظهر لاول مرة خلال النصف الاول من القرن الثانى عشر ، استمر اسـتعماله الى ما بعـد تدمير الفلسطينيين لشيلوه فى حوالى ١٠٥٠ ق•م ، اذ أن أوعية التخزين التى وجدها شميدت وكجاير Schmidt and Kjaer فى الطبقات السابقة للحريق يظهر بها نفس الشكل والحافة المرتفعة • وفى عهد شاول فى جبعة، حـل طراز جديد من حواف الاوانى محل الحـافة المرتفعة التى بطل استعمالها هناك قبل ١٠٠٠ ق•م• (وهو أدنى تاريخ ممكن لموت شاول) بوقت غير قليل • وتظهر نفس هذه الحافة الجديدة فى بيت ايل وتل النصبه وبعض مواقع أخرى فى المرحلة التالية لاسـتعمال الحـافة

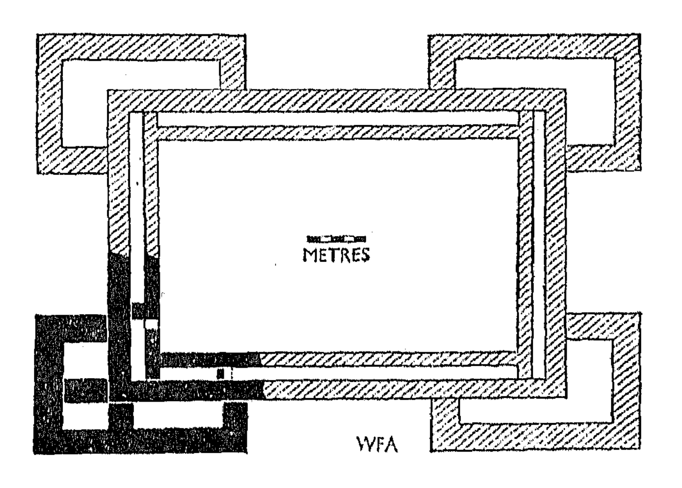
المرتفعة ، وبذلك تكون هذه الحافة الجديدة قد انتشرت انتشارا واسعا وأبطلت استعمال الحافة المرتفعة فيما بين ١٠٥٠ و١٠٠٠ ق٠م٠ ويرجح أن يكون ذلك فى الربع الثالث من القرن الحادى عشر ٠ ومن هذا يتضح أن التغير فى طراز حواف أوانى التخزين قرينة قيمة للتأريخ فى فترة دقيقة من تاريخ بنى اسرائيل ٠ وكلمـا تقدمت معلوماتنا كلما أمكنت اكتشاف قرائن كثيرة مماثلة مما سيمكن البحاث في نهاية الامر من ان يعطوا تواريخ دقيقـة بدرجـة فائقـة لمحتوياته المنـازل أو المـدافن المتماثلة ، غير أنه مما لاشك فيه أنه لايحتمل أن نتوصـل الىنتـائج تمكننا من تأريخ الشقف العادى بدقة اكثر من حدود قرنين أو ثلاثة قرون ، ولكن ومن المؤكد أنه ستبقى دائما بعض قطع أخرى من الشقف متحدية أى محاولات لتأريخها ٠

واذا استعرضنا عصر القضاة من الوجهة الاثرية ، فلا مناص من أن نصدم بالبساطة المتناهية والافتقار الى المظاهر الحضارية البراقة ، فى القرن الثـانى عشر وأوائل القرن الحادى عشر ٠ وينـدر أن يكون ثمة تباين أبلغ من ذلك الذى نجده بين مظاهر الحضارة لدى الكنعانيين فى القرن الثالث عشر حيث توجد اساسات قوية للمبانى ونظم للصرف بديعة التصميم ، وبين الحضارة التى حلت محلها فى القرن الثانى عشر ، وعلى الاخص فى بيت ايل حيث أضحت المنازل أكواما غير رتيبة من الحجر دون استفادة بأى نظام للصرف ٠ وكان لهذا التدهور فى مظاهر فنون الحياة سببان ، السبب الاول ان رجال القبائل الاسرائيلية الغازية كانوا من القبائل الهمجيـة الرحـالة النصف بدوية التى اختلفت أسـاسيا عن القبائل البدوية الصحراوية الاخرى فى السرعة التى استقرت بها فى البـلاد التى غزتهـا ٠ والسـبب الثـانى أن الاسرائيليين كانـوا فى طـور النظام العشـائرى الشـبه ديمقراطى الـذى ضـاق فيه كثيرا الفـرق السـابق بين الشريف والفـلاح والنصـف حـر بعد انتصارهم على كنعان٠ فعندما سكنوا فى منزل شريف كنعانى، كما حدث فى بيت ايل وتل بيت مرسيم، احتفظوا بنفس التخطيط الارضى القديم للمنزل كما هو مع تغيير طفيف ، غير أن طريقة البناء وتفاصيل المبنى أصبحت مختلفة عن ذى قبل تماما بقدر اختلاف محتويات المنزل ٠ هذا ومن الواضح أن العائلة الاسرائيلية التى سكنت المنزل المهدم عاشت عادة فى الطابق الارضى ، بدلا مماتبعه الكنعانيون منقبل من استخدام هذا

الطابق كمخازن وكحجرات لاقامة الخدم ، بينما أقاموا هم أنفسهم فى الطابق العلوى • وقد أبقى الاسرائيليون على السور السميك للحصن مع ترميمه فى اماكن قليلة ،

ولم يكشف عن أى معابد اسرائيلية من هذا العصر، غير أنه عثر منه على تمائم قليلة جدا ، وأهم هذه التمائم لوحات (بلاكات) طينية مطبوع عليها بالضغط بواسطة قوالب ، صور تمثل امرأة عارية بطنها منتفخة وتضغط بكلتا يديها على بطنها بشدة وارتعاص ، ومن الواضح أنها تدل على حالة ولادة والطفل على وشك النزول • ومن الغريب أن يلاحظ انها لا تلبس شعارا لاى الالهات على خلاف ما يلاحظ فى اللوحات والتماثيل الصغيرة الكنعانية ، القديم منها والمعاصر ، ولا نستطيع الحكم حتى الان هل حدث هذا عن طريق الصدفة ام أن لهذه الحقيقة علاقة بتحريم عبادة الاوثان عند بنى اسرائيل • ومن جهة أخرى فان الطبقتين السادسة والخامسة فى بيسان غير الاسرائيليتين واللتين يرجع تاريخهما الى ما بين القرن الثانى عشر والقرن الحادى عشر ، تظهر بهما مجموعة غنية جدا ومتنوعة من أثاث العبادة الدينية من الطين والحجر • بل أننا نعلم الكثير عن الاثاث من الطبقات الغير اسرائيلية المعاصرة لها فى مجدو وهى الطبقات السابعة والسادسة والخامسة • فقد عثر فى المعابد الكنعانية من عصر الحديد فى بيسان على عدد كبير جدا من قواعد المباخر أو أصص الزهور (ويبدو أن كلا الاحتمالين صحيح من جهة التقاليد الدينية) الكاملة والمكسورة ، عليها طبع بارز يمثل حية أو حيات ، كما كشف عن عدد من المقاصير المكسورة المكونة أصلا من عدة طوابق ، ويظهر على احداها • « أشخاص الرواية » الذين يقومون بتمثيل احدى الاساطير الكنعانية ، ويشتملون على الهة عارية ومعها بعض الحمام ، ورجلين مشتبكين فى قتال ، وحية ، وأسد • وقد أصبح من السهل تصور مبلغ الفجور والوحشية الدموية التى كانت تصورها هذه الاسطورة بعد الكشف عن جزء كبير من الميثولوجيا (علم الاساطير) الكنعانية فى أوجاريت ودراستها وتفسيرها (انظر الباب الثامن) •

وأقدم تحصينات اسرائيلية معروفة التاريخ من عصر الحديد هى قلعة شاول على قمة تل الفول على بعد ثلاثة اميال شمالى القدس (شكل ١٦) • وقد كشف المؤلف عن بقايا هذه القلعة فى



شكل ١٦ ـ قلعة شاءول من تل الفول
(حوالى ١٠٠٠ قبل الميلاد)

١٩٢٢ و ١٩٣٣ • ومن جراء تتابع التدمير وأعادة البناء ، لم يبق منها في الواقع الا جزء صغير يتكون من برج فى أحد الاركان وجزء من الاستحكام المسقوف المجاور له ، وأمكن تأريخه بواسطة الفخار الذى وجد به بعصرالملك شاول (١٠٢٠ــ١٠٠٠ ق٠م٠) • وسور الاستحكام هذا مثال بديع لطراز شاع استعماله بدرجة كبيرة فى فلسطين فى القرنين الحادى عشر والعاشر قبل الميلاد • واستمر استعماله بصفة متقطعة حتى الجزء الاخير من عصر الحديد الثانى • وقد نشأ هذا الطراز من الاسوار فى عصر البرونز المتأخر فى آسيا الصغرى ، وجلبه الحثيون بعد ذلك الى سوريا ، ثم انتشر من سوريا جنوبا خلال فترة الانتقال من عصر البرونز الى عصر الحديد • وقد تألف سور حصن شاول من جدارين ، بنى كل منهما بحجارة سويت سطوحها بالدق بالشحوطة وموضوعة بعضها فوق بعض على هيئة مداميك غير رتيبة • وكان سمك الجدار الخارجى حوالى ٥ر١ مترا (ثلاثة أذرع) ، وسمك الجدار الداخلى حوالى ٢ر١ مترا • وبين الجدارين كانت توجد مسافة ضيقة مقسمة بواسطة حواجز عرضية الى مجموعة من الغرف المستطيلة الضيقة ، وكانت بعض هذه الحجرات تملأ بالحجارة والاتربة ، بينما ترك بعضها الاخر خاليا لاستعماله كمخازن لها أبواب تصلها بداخل الحصن • وربما بلغ السمك الكلى للسور ٥ر٤ مترا على أكثر تقدير أو ٥ر١ مترا على اقل تقدير • وكانت هذه الطريقة فى التسوير

الاستحكامى طريقة بارعة لاعطاء قدر حقيقى كبير من التحصين بأقل ما يمكن من الجهد والتكلفة ، بل وكانت أكثر براعة فى كيفية انتفاعها بكل فراغ ممكن بين جدارى سور المدينة لاغراض التخزين • وثمة أسوار أخرى من نفس النوع ولها نفس الابعاد تقريبا وهى أسوار شكيم التى قد يرجع تاريخها الى منتصف القرن الحادى عشر (عهدأبيمالك قضاة ٩) ، وأسوار تل بيت مرسيم وأسوار بيت شمس، التى ترجع الى حوالى بدء القرن العاشر ، أى الى اوائل عهـد الملك داود ، وهى التى أقامهـا لتحصين يهوذا ضد اعتداء الفلسطينيين •

وبخلاف هذه الاسوار الاستحكامية ، وربما أيضا جزء مما يسمى الجدار المنحدر (اليبوسى) (*) (لمدينة داود اوفيل) ، جنوبى معبـد سليمان) ، يكاد لا تكون ثمة أى بقايا لمبان أخرى يمكن ارجاعها بكل تأكيد الى عهد الملك داود • وكانت اسرائيل فى عهد شاول وداود لم تزل دولة بدائية الى حد ما تعتمد على الزراعـة والرعي ، غـير أنها كانت ولابد تسير بخطوات واسعة للوصول الى مستوى عال فى الصـناعة والتجارة قبل موت داود فى حوالى ٩٦٠ ق٠م • ولدينا من الاسباب ما يجعلنا نعتقد ان صور وصيدا اللتين كانتـا جـزءا من مملـكة حيرام (حوالى ٩٦٩ — ٩٣٦ ق٠م٠) ، صديق داود وسليمان ، قد اسـتغلتا استغلالا كـاملا تداعى امبراطورية الفلسطينيين أمام ضربات داود ، لكى تبسطا امبراطوريتهما التجارية فى غرب البحر المتوسط •

وقد أدت المكتشفات الحديثة الى زيادة احتمال الرأى القـائل بـأن اتساع دائرة الامبراطورية التجارية الصيدونية قد حدث فجأة فى نصف القرن التالى للانتصارات الكبيرة لداود على الفلسطينيين (فيما بين ٩٩٠ و ٩٨٠ ق٠م٠) • ونذكر من بين هـــذه المـكتشفات ما نشره هنيمان A. M. Honeyman (١٩٣٩) ، متضمنا العثور على نص فينيقى فى مقبرة بقبرص ، لاشك أن تاريخه يرجع الى القرن التاسع ق٠م٠ أى قبل نص بعل — لبنان بقرن من الزمان على الاقل،وقد كان النص الاخير هذا معتبرا من قبل أقدم وثيقة فينيقية وجدت فى هذه الجزيرة • وبفضل هذا الكشف امكن تفسير حجر نورا الذى وجد فى جزيرة سردينيا ، بل

(*) Jebusite نسـبة الى الكنعانيين الذين تحـدوا الاسرائيليين من قلاعهم على جبل صهيون . (المراجع)

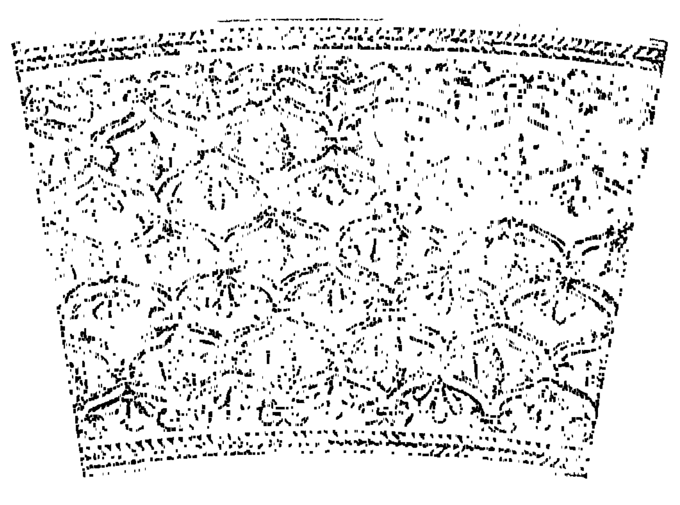
وأمكن أيضا معرفة تاريخه ، بعد ان كان هذا الحجر لغزا يتعذر حله ، وقد تبين أنه كان جزءا من أمر عال منقوش على أحجار جدار ، مثل الامر العالى الذى أصدره غورتين فى كريت (القرن السادس ق.م.) . وتدل الكتابة التى على حجر نورا وكذلك الكتابة التى على قطعتين صنبيرتين من بوسا على ان تاريخها جميعا يرجع الى القرن التاسع ، مما يثبت أن استغلال الفينقيين لجزيرة سردينيا كان قد بلغ شوطا بعيدا فى ذلك الوقت ، على نقيض ما كان يراه بيلوخ وأتباعه .

ويكاد يكون من المحقق أن يرجع تاريخ أقدم فخار ملون وجد فى منطقة جبانة تانيت بقرطاجنة الى ما قبل عصر ازدهار هذه المدينة (٨١٤ ق.م.) ، اذ أنه يطابق تماما الفخار الملون الذى وجد فى مجدو (٤ ب) حوالى (٩٧٥ — ٩٢٥ ق.م.) ، ولذلك يبدو أنه يرجع الى المرحلة الكامبية فى التاريخ القرطاجنى. ونذكر أخيرا ، أن أقدم عاج وجد فى قرمونة فى وادى الجوادالكويفر فى جنوب غربى أسبانيا يتشابه فى بعض الوجوه مع العاج الذى وجد فى مجدو من القرن الثانى عشر أكثر مما يتشابه مع العاج الذى يتراوح تاريخه بين القرن التاسع والقرن الثامن ق . م . من السامرة وأرسلان طاش ، ويدل هذا على أن تاريخ بعض هذا العاج قد يرجع الى القرن العاشر (أنظر شكلى ١٧ و ١٨) .

ولا ريب أن عهد الملك سليمان كان من أزهى عصور الحضارة فى تاريخ فلسطين . وبعد صمت طويل ، أيدت أخيرا الاكتشافات الاثرية أقوال التوراة بطريقة لا تقبل الشك ، ويأتى فى المقام الاول الاكتشاف الهام الذى قام به جاى P.L.O. Guy عام ١٩٢٨ ، وهو العثور على اصطبلات فى الطبقة الرابعة فى مجدو . وقد شغلت هذه الاصطبلات جزءا كبيرا من هذه الطبقة يتسع لما لا يقل عن ٤٥٠ حصانا فى وقت واحد . وبعد دراسة مستفيضة ظهرت بوضوح العلاقة بين المبانى التى وجدت فى الطبقات (٥) و (٤) ب و «٤ ا» ، ويبدو مؤكدا أن هذه الاصطبلات ترجع الى عصر الملك سليمان بناء على ما جاء فى ملوك الاولى ٩ : ١٥ و ١٩ الخ ، ومن المؤكد أيضا أن هذه الاصطبلات استمر استعمالها مع اجراء ترميمات واسعة بها ، بعد غزو شيشاق لفلسطين ، حتى أواخر القرن التاسع ق.م. ، غير أنها دمرت بعد ذلك وهجرت . وكانت هذه الاصطبلات مبنية أحسن بناء ، فقد كانت الخيول تحظى



شكل ١٧ — منظر من تطعيم على العاج .
مجدو ، أوائل القرن الثانى عشر قبل الميلاد وهو يبين تأثير الفن المصرى



شكل ١٨ — زخرفة متحابكة على عاج من مجدو
أوائل القرن الثانى عشر قبل الميلاد

بعناية أكبر من العناية التى حظى بها الانسان فى تلك الايام • وكانت أرضيات هذه الاصطبلات (فيما عدا أماكن وقوف الخيول حيث كانت الارضية من الزلط لضمان عدم تزحلقها) وأرضية الحوش المجاور لها مكسوة بطبقة من الجير المائى (*) (مصنوع من جير حى مجروش غير مطفأ من قبل) • وكانت كل وحدة بالاصطبل تتألف من ممر فى الوسط يبلغ عرضه حوالى ثلاثة أمتار ، وعلى جانبى الممر صفان من الاعمدة الحجرية التى كانت تستعمل فى نفس الوقت كقوائم لربط الخيول ودعامات لحمل السقف ، ويقع بعد الاعمدة جناحان للخيول عرض كل منهما ثلاثة أمتار وكانت كل من هذه الوحدات تتسع لحوالى ثلاثين حصانا •

وقد كشف فى مجدو بالطبقة (٤ ب) ، وهى التى تمثل مرحلة عهد الملك سليمان ، على مبان أخرى ، منها مسكن الحاكم ، وهو محاط بسور

(*) قد يكون من الاصوب وصف هذه الارضية بأنها من الطين الجيرى الذى يبدو أنه صنع بوضع الجير الحى المجروش على أرضية من الطين وتركهما معا بعض الوقت فى الجو ، فتحول الجير الحى الى جير مطفأ واختلط فى نفس الوقت مع الطين مكونا نوعا من الملاط الذى يشبه الاسمنت الى حد ما فى قوة تماسكه وعدم تأثره بالماء .

[المترجمان]

مربع تقريبا يبلغ طول جانبه حوالى مائتى قدم (ستين مترا) •
وتظهر بالمبانى السليمانية دلائل واضحة على أنها قد اقتبست من المبانى الفينيقية ، التى تتميز باستعمال كتل مستطيلة قليلة العرض من حجر منحوت نحتا جيدا ، مرتبة فى مجموعات من حجرين أو ثلاثة أحجار موضوعة مرة بالعرض ومرة بالطول على التبادل • وثمة خاصية أخرى تتميز بها هذه المبانى ، شاع استعمالها بصفة خاصة فى المبانى الاقل جودة نسبيا فى مجدو ، هى استخدام أحجار الناصية بوفرة فى البناء ، أى استخدام أركان وأكتاف من الحجر المنحوت نحتا جيدا ثم تملأ الفراغات التى بينها بحجارة صغيرة (دقشوم) ، وكانت هذه الطريقة فى البناء طريقة بارعة ، مثلها فى ذلك مثل الاسوار الاستحكامية ، للحصول على أقصى قوة بأقل تكاليف • وثمة بناء مشيد بنفس الطريقة تماما وجده ماكاليستر فى جازر ونسبه الى الملك سليمان بعد دراسة مقارنة مع شوماخر الذى كان يعمل فى ذلك الوقت فى مجدو •
ومبانى الاسطبلات التى وجدت فى مجدو تشبه تماما مبانى مماثلة فى تل الحسا (الطبقة الخامسة ، حوالى القرن العاشر ق•م•) ، وحاصور ، وتعنك ، وكلها من نفس العصر العام •

ومن أهم ما عثر عليه فى الطبقة الرابعة فى مجدو ، عدد من تيجان أعمدة مربعة من الحجر الجيرى من طراز ما قبل الايونى proto-Ionic (ولعله يستحسن تسميتها ما قبل الايولى proto-Aeolic) • وقد انتمت هذه التيجان الى أعمدة مرتبطة بعضها ببعض كانت تبطن أصلا جدران غرفة فسيحة أو ممر متسع • وقد عثر على تيجان مماثلة فى عدد من المواقع الاخرى بفلسطين ، ويرجع تاريخها كلها الى ما بين القرن العاشر والقرن السابع ق•م • وأقدم ما عثر عليه من هذه التيجان حتى الان نموذج تاج ملون من الطبقة الخامسة فى مجدو ، ولا يمكن أن يكون تاريخه متأخرا عن أوائل القرن العاشر • ومن الغريب حقا عدم ذكر شىء حتى الان فى تقارير المنقبين عن وجود أى من هذه التيجان فى فينيقية نفسها ، حيث لا تزال المبانى الاثرية المنشورة من عصر الحديد المبكر قليلة ومتباعدة جدا بعضها عن بعض ، لكن الاغريق واليونان اقتبسوها من الفينيقيين فى حوالى القرن الثامن ق • م • ، ولدينا أمثلة كثيرة على ذلك من القرن السابع وما بعده •

ويبدو مؤكدا أن البوابة القديمة فى مجدو التى ترجع الى عصر الحديد ، كانت من عهد الملك سليمان ، وقد اشتملت على ثلاثة أزواج من أعمدة طويلة قليلة العرض ، يفصلها زوجان من الخلجان الضيقة • وقد جاء أيضا هذا التصميم من الشمال حيث يظهر فى سنجرلى وقرقميش فى شمال سوريا فى أواخر القرن الحادى عشر أو فى القرن العاشر • وقد نشأ هذا الطراز من البوابات الذى يتكون من ستة أعمدة مرتفعة وأربعة خلجان طويلة بين الاعمدة ، عن البوابة التى يتميز بها عصر البرونز المتوسط (انظر الباب الخامس) والتى تتكون من نفس العدد من الاعمدة والخلجان الا أنها كلها أقصر ومنظمة تنظيما أكثر تماثلا • ويظهر نفس هذا الطراز من البوابات أيضا فى لخيش وفى عصيون جابر على خليج العقبة حيث يكاد يكون من المؤكد أنها ترجع الى عهد الملك سليمان •

وبالرغم من أن كشف جاى لاصطبلات مجدو كان مفاجأة غير متوقعة فانه لم يكن ليقل عنه فى عنصر المفاجأة كشف نلسون جلويك Nelson Glueck لمعامل تنقية النحاس فى عصيون جابر (تل الخليفة) فى الطرف الشمالى لخليج العقبة عام ١٩٣٨ • وقد اكتشف بترى فى جهه معامل أصغر منها كثيرا لاستخلاص الحديد الا أنه لم يعثر حتى الان فى أى مكان آخر فى العالم القديم على أى شىء يضاهى ، ولو من بعيد ، معامل تنقية النحاس فى عصيون جابر • وأفضل هذه المعامل من جهة الاعداد والبناء ما وجد منها فى الطبقة (ط) التى تحوى مخلفات أقدم الخمس فترات الرئيسية لعمران هذا الموقع • وقد ثقبت جدران أفران الصهر بصفين من الثقوب الواسعة على بعد أربعة أقدام (١٢٢ سنتيمترا) تقريبا فوق قاعدة موقد الفرن ، وتتصل الثقوب العلوية بمجرى هوائى يجرى داخل الجدار طولا على نفس الارتفاع ، بينما تخترق الثقوب السفلية كل سمك الجدار • وقد أحرقت نيران الفرن سطح جداره اللبن الذى صار أخضر اللون بتأثير أبخرة خامات النحاس التى صهرت بداخل الفرن • وقد عثر بالموقع على جفنات عديدة من الفخار وتبلغ سعة كل منها أربعة عشر قدما مكعبا (حوالى نصف متر مكعب) • ولما كان قد روعى فى اختيار موقع المصنع أن يكون فى نقطة يكون فيها هبوب الرياح الاتية من ناحية العربة (وهى المنطقة الشمالية المكشوفة) أقوى ما يمكن ، فمن الجلى أنه كان يمكن توليد حرارة شديدة باستخدام الوقود المناسب • ولا يمكن

أن يكون ثمــة شك فى أن تل الخليفه كان مركزا كبيرا لاســتخلاص النحاس ، غير أن طريقة اختزال خامات النحاس بها لا تزال سرا غامضا لم يدركه بعد أخصائيو التعدين الذين درسوا هذه المسألة • وأنه لبعيد الاحتمال جدا أن يؤدى اكتشاف الطرق الفينيقية لاستخلاص النحاس الى اضافة أى معلومات تفيدنا فى تقــدم هذه الصــناعة فى الوقت الحاضر ، غير أن هذه الطرق كانت على الارجح فعالة جدا بالنسبة لعصرها •

عصر الحديد الثانى

من القرن التاسع حتى أوائل القرن السادس قبل الميلاد

أصبح الان الثبت التأريخى لعصر الحديد الثانى واضح التفاصيل لعلماء الآثار الذين كانوا يعملون فى مواقع تتكون من طبقات متعاقبة من هذا العصر ، وان كانت بعض الكتب فى الواقع ، حتى الحديث منها ، تحتاج الى تصحيحات كثيرة فى التفاصيل قبل ان نتقبل الصورة التى نعرضها • ومن أهم مواقع هذا العصر السامرة ، حيث قام كل من ريزنر وكروفوت ومساعديهم بجهد مشكور فى التنقيب • ولما كان عمرى والد اخاب قد أسس السامرة حوالى ٨٧٠ قبل الميلاد كان كل ما عثر عليه من فخار يرجع فى الواقع الى تاريخ متأخر عن التاريخ السابقأالذكر • وفخار عصر الاستيطان الاول ، الذى يمتاز بأنه كان دائما فخارا مصقولا ومصنوعا على الدولاب وذا رسومات حمراء على طينة ذات لون برتقالى مصفر[1] ، ينتمى كلية الى الفترة بين الربع الثانى من القرن التاسع حتى نهاية الربع الثالث من القرن الثامن قبل الميلاد ، وعندما تنشر كاثلين كنيون Kenyon دراستها التى ينتظرها المتخصصون منذ أمد طويل عن طبقات البيوت الخاصة وفخارها من عصر الحديد الثانى ، سيكون لدينا أساس متين لتقدم مضطرد فى الثبت التأريخى • وفى ذات الوقت أمكن لبعثة كروفوت أن تبين أن الثبت التأريخى الذى وضعه ريزنر به اخطاء فى بعض من المسائل ذات الاهمية القصوى (قارن الفصل الثانى) ، فقد ميز ريزنر ثلاث مراحل رئيسية للمبانى من عهد بنى اسرائيل ، كما أرخ بعض الابراج المستديرة فى جدار القلعة الجبلية من عصر يربعام الثانى ، بالقرن الثامن قبل الميلاد ، على حين أن بن دور I. Ben-Dor كشف عن شقف من العصر الهلينى فى مواد البناء التى كانت تملؤها • ويتضح من هذا الكشف ، الذى أيد صحة بعض ملاحظات

---

(١) هذا تعبير غير دقيق . الواقع أن اللون البرتقالى المصغر هو الطلاء الذى يغطى به كل سطح الانية ثم بعد ذلك ينقش بازالة أجزاء من هذا الطلاء ليظهر من تحته الفخار الحقيقى . وتبدو الزخرفة بعد ذلك كأنها اضافة جديدة باللون الاحمر . **المترجمان**

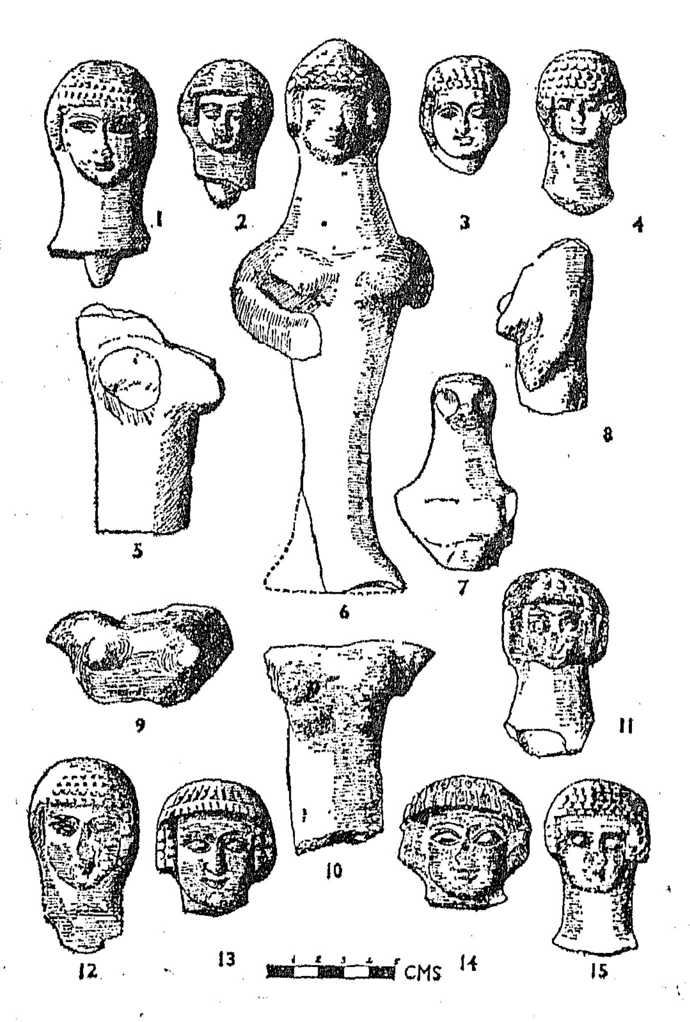
كروفوت الاخرى ، انه لم يكن هنالك الا مرحلتان رئيسيتان فقط للسراى الملكى الإسرائيلى ، احداهما من عصر عمرى ، والثانية من عهد اسرة ياهو ، يكاد يكون بالتأكيد من عصر ملكهم يربعام الثانى • والشقف المكتوب الذى عثر عليه ريزنر يرجع أيضا الى عصر يربعام الثانى ، بدلا من تأريخها بعصر آخاب وهو يسبقه بقرن من الزمان تقريبا ، وهذا التصحيح قد أزاح عقبة كانت كأداء فى توضيح الثبت التأريخى للنقوش الاسرائيلية •

وللثبت التأريخى للنصف الثانى من عصر الحديد الثانى يوجد لدينا أدلة قيمة من مجدو وخاصة من تل بيت مرسيم • وقد ارتكب المستكشفون فى تاريخ الطبقتين الثانية والثالثة فى مجدو بعض الاخطاء التى ربما كان لا يمكن تحاشيها نظرا لانهم كانوا يعملون فى مجموعات من الجدران والترميمات المتشابكة التى كان تركيبها المتداخل سببا فى صعوبة نسبة مواضع معينة وما بها من محتويات الى طبقة معينة • ثم ارتكبوا خطأ ثانيا لاهمالهم الادلة الدامغة المستمدة من المصادر المكتوبة التى يتضح منها أن مجدو كانت تقع فى المنطقة التى دمرتها القوات الاشورية لتجلات بلاسر فى ٧٣٣ ، واتخذت حينذاك عاصمة للمقاطعة الاشورية الجديدة ، وقد ذكر اسما اثنين من حكامها فى النقوش الاشورية • ومعنى هذا ان مجدو دمرت بالتأكيد فى ٧٣٣ ثم اعيد بناؤها بعد ذلك بوقت قصير • وعلى هذا تكون محتويات الطبقة الثالثة من العصر الإسرائيلى وليس الاشورى ، ومن ناحية أخرى تكون الطبقة الثانية أشورية ، وليست اسرائيلية ، ومن المحتمل انها دمرت فى ٦٠٩ بعد هزيمة يوشيا على يد نكاو (نخو) فى معركة مجدو • وتل بيت مرسيم هو احد عشرات البلاد اليهودية الصغيرة والكبيرة التى دمرها الكلدانيون فى ٥٩٧ و ٥٨٧ قبل الميلاد ، وصارت الارض بعد ذلك بلقعا ، لا يستقر بها أحد من الناس الا فيما ندر حتى أواخر القرن السادس ، وبقيت الطبقة العليا من تل بيت مرسيم لحسن الحظ فى حالة جيدة • وقد وجدت البيوت التى تنتمى الى العقود الاخيرة قبل الغزو الكلدانى مليئة بالفخار وغير ذلك من الاشياء التى لم ينقل الا القليل منها قبل أن تأتى على المدينة النيران التى أشعلها المنتصرون ، ولما كان جزء كبير من الحجر الجيرى قد تكلس من الحريق ، كما لم يسكن التل بعد ذلك اطلاقا فليس من العجيب اذن ، وقد بللت أمطار الشتاء على

مدى ٢٥٠٠ سنة كل شيء ترك مكشوفا ، الا يكسى كل قدر وكل شقفة تقريبابقشرة صلبة من الرواسب الجيرية،وقد كان ذلك سببا فى استحالة الحصول فعلا أعلى أية استراكا تركها معاصرو ارميا فى تل بيت مرسيم •
وعلى أية حال ، فالكمية العظيمة من الفخار المؤرخ تأريخا دقيقا من العقد او العقدين الاخيرين للهيكل الاول ، والتى نشرت نشرا كاملا بالصور والرسومات (شكل ٣٦) قد ثبتت بدقة الثبت التأريخى الفخارى لهذه الفترة • ويوجد بين سقوط السامرة الاسرائيلية والمرحلة الاخيرة من تل بيت مرسيم فترة غير مؤكدة عند نهاية القرن الثانى وبداية السابع ، ولكن الكشوفات الاثرية من الاماكن المختلفة تثبت تدريجيا تأريخنا لفخارها أيضا •

ومعلوماتنا عن الحضارة المادية لعصر الحديد الثانى هى أيضا أضخم كثيرا مما كانت عليه منذ عقدين مضيا • وهنا أيضا نستمد معلوماتنا بصفة خاصة من السامرة ومجدو ، ولاكيش (لخيش) وتل بيت مرسيم وتل النصبه ، وان كانت ثمة اكتشافات قيمة وأدلة معززة جاءت من حوالى عشرين موقعا كبيرا وصغيرا وتحتوى على آثار من عصر الحديد (شكل ١٩) •

واهم الاكتشافات المثيرة من عصر الحديد الثانى ربما كانت النقوش ، اذ هى كقاعدة عامة ، تلقى ضوءا مباشرا على التوراة ، افضل من أى نوع من الاكتشافات • وسنذكر بعض الاكتشافات الخطية الباقية ، وان كنا سنترك التفاصيل للفصل الثامن • وأهم نقش اسرائيلى هو تقويم جازر ، وهو عبارة عن لوح تلميذ مصنوع من الحجر الجيرى الهش ، وقد دون عليه بخط ردىء نص قول مأثور يبين ترتيب العمليات الزراعية الرئيسية خلال السنة • وهى تؤرخ من أواخر القرن العاشر ، اذا اعتمدنا فى حكمنا على الاتفاق بين الادلة المستمدة من أشكال الحروف فى بيبلوس المعاصرة وبين نوع خط المتن الذى وجد ضمنه هذا اللوح ، وهى بناء على ذلك تسبق عصر الحديد الثانى بوقت قصير • والى الربع الثالث من القرن التاسع (حوالى ٨٢٥ ق•م) ينتمى لوح ميشع الحجرى وقد نقش هذا اللوح نقشا بديعا لتسجيل انتصار ميشع ملك موآب (ملوك الثانى ٣ : ٤) على اسرائيل بعد سقوط اسرة عمرى ، وقد كشف هذا اللوح فى ١٨٦٨ وقد نقله كلير مونت جانو الى متحف اللوفر وحتى هذا التاريخ لم يعثر على لوح



شكل ١٩ ــ تمائم تمثل الالهة الام من تل بيت مرسيم
(معظمها من القرن السابع قبل الميلاد)

اسرائيلى واحد ، وان كان قد عثر فى السامرة على قطعة من لوح عليها كلمة عبرية واحدة نقشت بعناية ويأتى بعد ذلك فى الترتيب الزمنى ، سبعون جذاذة من السامرة ، هى عبارة عن تأشيرات ادارية ، وان كانت قد ألقت ضوءا لم يكن متوقعا على تاريخ اسرائيل فى بداية القرن الثامن قبل الميلاد (انظر اعلاه)• والى نهاية القرن الثامن ينتمى نقش منحوتا نحتا جميلا فى الصخر عند مدخل نفق سلوام الذى قطعه حزقيا فى التل تحت مدينة القدس القديمة ، (وجد ١٨٨٠) وهو مكتوب بالخط العبرى الكلاسيكى الانيق ويصف اتمام العمل فى النفق بنجاح •

ولكن هذه المكتشفات ومئات من الكتابات القصيرة على الاختام وغيرها من الاشياء ، تتضاءل أهميتها بجانب الكشف المثير عن جذاذات لخيش فى ١٩٣٥ و ١٩٣٨ . وهذه الوثائق الاحدى والعشرون المكتوبة بالحبر على جذاذات الفخار ينتمى معظمها الى الاشهر الاخيرة التى تسبق استيلاء الكلدانيين على لخيش فى ٥٨٩ و ٥٨٨ ق . م . وحيث أن اللغة والمحتويات لها علاقة وثيقة بالفقرات النثرية فى أرميا فهى ليست ذات أهمية تاريخية جوهرية فحسب ، بل أنها تلقى ضوءا شديدا على التوراة . فكل الوثائق تقريبا ماهى الا رسائل فيما عدا بعض قوائم أسماء أو سجلات أعمال . حوالى ست رسائل منها يمكن قراءتها بأكملها أما باقى الرسائل فلا قيمة لها فى الواقع حتى يهتم بها شخص له دراية فى النسخ المصغر وعنده من الصبر ما لا حد له .

وبعد النقوش فى الاهمية العامة يمكننا أن نضع كميات من ترصيع العاج كشف عنها فى السامرة كروفوت وسوكينك Sukenik فى ١٩٣٢ — ١٩٣٣ . وهذه الاشياء العاجية تتفق مع الصورة المعروفة لنا جيدا من الاثار التى وجدت فى مجدو (١٩٣٧) والتى ينتمى معظمها الى النصف الاول من القرن الثانى عشر ، وكذلك من مكتشفات مشابهة فى نمرود (كالح فى التوراة) وأغلبها من أوائل القرن التاسع ، ومن أرسلان تاش شرق كركميش قبيل نهاية نفس القرن . كما وجدت أيضا جذاذات فى كريت وفى أنحاء مختلفة من شرق البحر الابيض المتوسط ، بينما قد كشف عن عدد كبير منذ أكثر من نصف قرن فى قرمونة فى جنوب غرب أسبانيا (أنظر أعلاه) وبالرغم من أنه لم يوجد فى الواقع أى نماذج فى فينيقية نفسها ، الا أنه مما لا شك فيه أن أغلبها قد جاء من ورش فينقية أما النماذج الاشورية فقد جاء أغلبها من دمشق وشمال سورية وكان التأثير المصرى غالبا ، من السهل أن نبين أن فن مجدو قد نشأ تحت تأثير الأعمال الفنية الكنعانية المنقولة عن أصول مصرية من عصر الرعامسة . وعاجيات السامرة تنتمى الي مجموعتين : يمكن تأريخها فى الوقت الحالى من القرنين الثامن والتاسع على التوالى ، وان كانت بعض الادلة تشير الى أنهما من عصر واحد ، وتتكون المجموعة الاولى من عاجيات نحتت نحتا بارزا رقيقا جدا مع الافراط فى استعمال رقائق الذهب للتغشية ، واللازورد فى الترصيع ، وزجاج ملون ، وعجينة ملونة (بودرة زجاج) الخ . .

والوحدات الزخرفية مصرية بحتة فى الالهام ، وتشمل أشكالا خرافية مثل حورس الطفل على زهرة اللوتس ، وازيس ونفتيس تقدسان عمود الجد ، وحورس ممسكا برمز الحق • وقد صنعت هذه المجموعة بالتأكيد فى فينيقية ، ربما فى القرن الثامن • والمجموعة الثانية التى تشبه شبها شديدا عاجيات أرسلان تاش (أواخر القرن التاسع) فنقشها أكثر بروزا ، وترصيعها بسيط أو منعدم ، وتتكون خاصة من تماثيل على صورة أبو الهول ، والسيدة فى النافذة ، وبلاطات صغيرة نقشت بصور الاسد أو الثور ، الخ ، وربما جاء جزء من هذه المجموعة من منطقة دمشق ، مثل نماذج أرسلان تاش • والقطع الفردية التى وجدت فى أرسلان تاش كانت مستعملة لترصيع سرير الطقوس ، وعلى احدى القطع نقش يذكر اسم حزائيل ملك دمشق فى زمن ياهو الاسرائيلى • وقد استعملت العاجيات بصفة عامة كترصيع لتزيين الاثاث الخشبى الثمين •

وثمة عدد كبير من أطلال التحصينات التى كشف عنها من عصر الحديد الثانى ولكن نظرا لصغر حجم الكتاب سنقتصر على بعض نماذج قليلة • وتحصينات السامرة تمثل عصرين رئيسين ، أحدهما الاسرة العمرية بين ٨٧٠ و ٨٤٢ ق• م• ، والثانية أسرة ياهو ٨٤٢ — ٧٤٤ • وأبنية المرحلة الاولى، كل من التحصينات والمبانى كانت بلا شك أحسن ، من ناحية التنفيذ ، من أبنية المرحلة الثانية • وجدار الحصن الجبلى من عصر آخاب هى بناء به غرف للمدافعين ، وفى الشمال كانت غرف المدافعين طويلة وضيقة ، ومحاورها عمودية على الحائط ، بينما فى الجنوب والغرب كانوا من نفس الطراز الشائع فى أوائل عصر الحديد • وسمك القطاع الاسبق لجدار الحصر الجبلى كان حوالى عشرة أمتار ، أما فى القطاع الثانى فكان يبلغ حوالى خمسة أمتار • والبناء فى هذا العصر يشبه بناء مجدو السليمانية وان كانت تمتاز بجودتها فى كل أجزائها • وتظهر فى بعض الاساسات عقد خشنة ، وان كانت على ما يحتمل تخفى بعيدا عن الانظار تحت سطح الارض •

واطلال بوابة توجد عندما يجب أن يكون النهاية الجنوبية للسامرة الاسرائيلية تختلف اختلافا جوهريا عن البوابات الاولى ، ويبدو أنها تعكس مرحلة أولية من طراز البوابات التى تؤدى الى الداخل بطريق غير مباشر والتى نجدها فى تل بيت مرسيم فى القرن السابع وأوائل

القرن السادس • وآخر بوابة فى لخيش تبين تصميما مماثلا • واذا كان هذا هو الامر فى السامرة أيضا ، اذن لدينا هنا من القرن الثامن على ما يحتمل أول مثل فلسطينى معروف لنا من هذا الطراز من البوابات ، وقد عرف لنا أيضا من بوابة دمشق فى القدس • وبين هذين التاريخين تقع بوابة تل النصبة وبوابة مجدو الثالثة • بوابة تل النصبة يبدو أنها تنتمى الى القرن التاسع قبل الميلاد وهى نموذج جميل من طرازها ، ولها زوجان من الارصفة على الجانبين ، بدلا من ثلاثة أزواج التى كانت توجد عادة فى البوابات من حوالى القرن العاشر •

بوابة مجدو من القرن الثانى لها أيضا زوجان من الارصفة على الجانبين ، والبوابة الشرقية الاقدم فى تل بيت مرسيم تشبه بوابة تل النصبة أشد الشبه فى تصميمها ، وربما يرجع تاريخها أيضا الى القرن التاسع قبل الميلاد • وهذا الطراز الذى تحت البحث كان شائعا فى سوريا أيضا حوالى نفس الوقت ، ولا يمكننا القول أى الاقليمين كان الاسبق فى ادخاله • ومن مميزات بوابة تل النصبة الهامة وجود دكك حجرية فى الجزء المحاط جزئيا بسور والذى يقع خارج البوابة مباشرة ، حيث يمكن أن نتصور بسهولة شيوخ المدينة وهم جالسون ينجزون أعمالهم فى أمسيات الصيف الرطب • وعند البوابة الغربية لتل بيت مرسيم كشفنا أن الجزء الشمالى من برج البوابة يحتوى على فناء مستطيل يؤدى اليه من داخل البلد مدخل واسع • وهذا الفناء المكشوف والمبلط بالحجر الجيرى يؤدى الى ست حجرات مبلطة ، زود كل منها بباب قوى يمكن غلقه بمزلاج لحماية الشخص الذى يشغله ليلا • ودواليب فى الحائط ، وحوض مبنى للغسل ، وغيرها من وسائل الراحة توحى على الفور بأن هذا المكان كان قصرا رسميا للضيافة للبلد اليهودية فى فترة ما قبل النفى ، ويبدو أن الكشف عن الاوزان القانونية فيها يدل على أنه كان من بين الضيوف تجار ، وجامعو الضرائب ، أو كلاهما •

وتل مرسيم لا تزال المدينة الوحيدة من عصر المملكة المنقسمة المتأخرة التى نقب فيها تنقيبا كافيا كشف عن مساحات شاسعة من البيوت الخاصة فى حالة جيدة من الحفظ • وهذا جعل فى الامكان رسم صورة دقيقة عن الطريقة التى عاش بها الناس فى بلدة صغيرة من عصر أرميا •

لقد ادعى دائما نقاد تاريخ التوراة المتعصبون بأنه لم يكن ثمة انقطاع عنيف فى استمرار الحياة فى يهوذا نتيجة للغزو الكلدانى • وقد أنكر س • س • تورى C.C. Torrey على الاخص صحة تاريخ قصة الاسر فى الملوك وحزقيال وعزرا • اذ كان يعتقد أنه بعد صدمه الغزو البابلى ، كان الاهالى قد عادوا من مخابئهم المؤقتة الى بيوتهم القديمة التى أعيد بناؤها اذا كانت قد هدمت • واذا كان هؤلاء العلماء صادقين فى زعمهم ، فلم يقع فى الاسر اذن الا عدد قليل من النبلاء ، وحتى القدس قد أعيد سكناها سريعا كما أعيد بناؤها • وقصة التجديد فى عزرا ، حسب رأى تورى ، لا صحة لها اطلاقا • وان كنا لن نحاول هنا الدخول فى التفاصيل ، الا أنه يكفى فيما يختص بهذا الموضوع أن نقول آن عددا كافيا من البلدان والحصون فى يهوذا قد تم الان التنقيب فيها كلها أو فى جزء منها ، كما درست مواقع أخرى كثيرة دراسة دقيقة بغرض تحديد التاريخ التقريبى الذى دمروا فيه آخر مرة ، وكانت النتيجة واحدة وقاطعة • فعدد من البلدان قد تم تدميره فى أوائل القرن السادس [1] قبل الميلاد ولم تسكن بعد ذلك اطلاقا ، والبعض دمر فى نفس الوقت ثم عاد اليها العمار جزئيا بعد فترة ، أما البعض الاخر فقد دمر ولم يعد العمار اليه الا بعد فترة طويلة من الهجر تتميز بتغير ملحوظ فى الطبقة وبأدلة خارجية تثبت استعمالها لاغراض غير مدنية • ولا تعرف حالة واحدة كانت فيها بلدة من يهوذا الاصلية مسكونة بصفة مستمرة خلال فترة النفى • والبلد التى تدل على نقيض ذلك فقط ، هى بيت ايل ، التى تقع خارج حدود يهوذا الشمالية مباشرة فى فترة قبل النفى ، فلم تدمر فى ذلك الوقت بل استمرت آهلة بالسكان حتى الجزء الاخير من القرن السادس •

(١) هذا نهاية تاريخ المدنية الاسرائيلية فى فلسطين • المترجم •

عصر الحديـــد الثالث

٥٥٠ ــ ٣٣٠ ق ٠ م

حتى وقت قريب لم يعرف الا القليل عن فخار عصر الحديد الثالث (العصرين البابلى والفارسى) ، وقد أدى الغموض الاثرى لهذا العصر الى عدة أخطاء فى التأريخ ، ومن ثم أرخ ماكاليستر Macalister وواتزنجر Watzinger وتبعهم فى ذلك كثيرون غيرهم ، معظم الفخار المميز من عصر ما قبل النفى فى جنوب فلسطين من العصرين الفارسى وأوائل الهيلنستى ٠ وعندما نقل هذا الفخار الى مكانه المضبوط من التاريخ قبل ٥٨٧ قبل الميلاد ، ترك خلفه فراغا ٠ ومنذ ذلك الوقت فان أعمال التنقيب فى تلك المواقع التى من أوائل عصر ما قبل النفى مثـــل بيت زور ، وتل النصبة وبيت ايل (كنيسة الملاحين) ، قد ســـاعدت ماديا على توضيح الصورة التى أمكن تكوينها من السامرة وجازر ٠ كما أن جبانات العصر الفارسى فى تل الفرعة فى النقب وعتليت جنوبى الكرمل قد أسهمت بتوضـــيحاتها ، كذلك لدينا الآن فكرة واضـــحة معقـــولة عن مميزات فخـــار القرن الرابـــع ٠ وعلى أية حـــال ، فلا يزال من غير المؤكد اين توجد الفجوة بالضبط بين فخار عصر الحديد الثالث من بيت ايل فى القرن السادس وبين الفخار الفارسى نفسه ٠ وترجع أهمية هذا التساؤل على الاخص بالنسبة الى تاريخ سكنى المنطقة ، وليس الى تاريخ الابنية أو الاثار الفنية الذى يمكن اثباته ، كقاعدة عامة ، بطرق أخرى ٠ أضف الى ذلك أن النقود قد بدأت فى الظهور فى القرن الخامس ، وفى القرن الثالث قبل الميلاد أصبحت متوفرة فى المواقع التى نقب فيها ٠

وتدل نتائج التنقيبات على أن اعادة استيطان يهوذا كان عملا بطيئا ، وعلى أن الاقليم لم يستعد كثافة فى السكان تضارع كثافة سكانه القديمة قبل القرن الثالث قبل الميلاد ٠ وقد سمحت السلطات الفارسية لاهالى فلسطين بدرجة كبيرة من الاستقلال الذاتى ٠ فمثلا منح عظام قساوسة يهوذا مثل ما منح عظام القساوسة المعاصرين من اترجاتيس Atargatis فى هيرابوليس Hierapolis (١) فى شمال سوريا تصريحا

(١) هيرابوليس هى منبج الحالية ، مايوج القديمة ٠

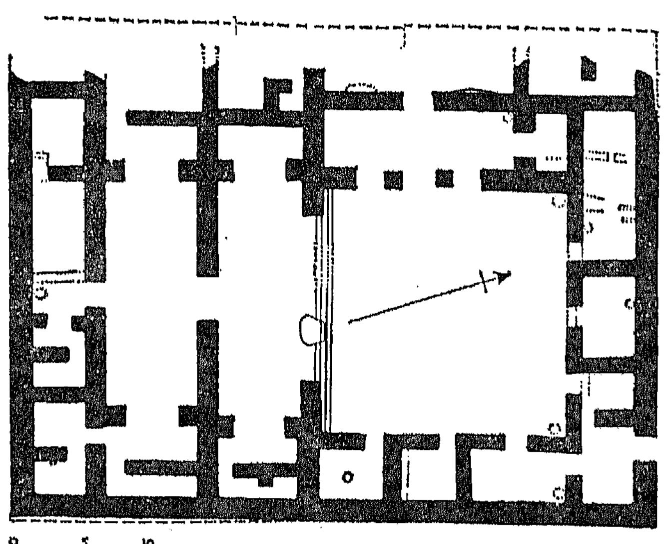
لسك نقودهم ولجمع مكوس معابدهم الخاصة بهم • وقد عثر على نقود فضية فى كميات كبيرة ، سكت تقليدا لدراخمة اتيكا ،ولكن عليها النقش العبرى أو الارامى « يهود » ، كما تحمل اختام الزلع من العصرين الفارسى وأوائل الهيلنستى الكلمتين « يهـود » ، و « أورشـليم » وبعضها عليه نقش غـامض م • تسى — هـ : التى لم يعـرف لها تفسير حتى الآن ، وربمـا كانت نوعا من الاصطلاحات المختصرة •

وقد ازداد النفوذ الاغريقى خلال هذا العصر ، وفى القرن السادس قبل الميلاد نشأت مراكز تجارية اغريقية عـديدة على شـواطىء مصر وفلسطين وسوريا ، وقد كشفت أعمال التنقيب فى هذه المواقع عن كميات من الفخار الايونى والاتيكى Attic ذى رسومات سوداء • كما كشف فى تل النصبة عن نموذج بديع لفخار كلازومينائى Clazomenae ولكنه مهشم لسوء الحظ ، من أواخر القرن السادس • وبعد بداية القرن الخامس حل فخار اتيكا ذو الرسومات الحمـراء محل الفخـار الايونى والفخار ذى الرسومات السوداء ، وسرعان ما صار من أكثر السلع المستوردة رواجا فى الاقليم ، وتظهر الاوانى والجذاذات فى كل موقع من هذا العصر يجرى فيه التنقيب • وقد أشرنا فيما سبق الى أهمية عملة اتيكا التى صارت العملة الرسمية فى التعامل فى فلسطين منذ أكثر من قرن وربع قبل الغزو المقدونى • وقد قلدت نقود اتيكا محليا فى النصف الثانى من القرن الخامس ، وفى القرن التالى نجد كل أنواع التحويرات البربرية للاشكال التى كانت موجودة على الدراخمة ، وقد ظل الاحتفاظ ببومة أثينا حتى صارت الى حالة لا يمكن التعرف فيها عليها •

ونماء الصلات التجارية الاغريقية مع فلسطين يقابله ويكمله تطور مماثل فى تجارة الجنوب العربى • والصـلات مع الجنـوب العـربى يوضحها توضيحا جيدا الاكتشافات فى أماكن مثل جمـة فى النقب ، وجازر على سـهل شارون السـاحلى • وقد عثر فى كل هـذه الاماكن على طبقة متميزة من الاشياء ، خلال العصرين البابلى والفـارسى ، تكونت من مذابح البخور وهى مكعبة الشكل مصنوعة من الحجر الجيرى ولها أربع قوائم قصيرة ، وفوق سطحها حوض غير عميق • وقد زينت جوانبها بدقة بنقوش الحفر الغائر مكونة من وحدات هندسية ورسومات

خشنة لحيوان الصحراء ونباتها ، يشمل على الاخص أشجار النخيل والجمال والماعز البرى ، والوعول والحمار البرى •• وفى حريضة فى حضرموت عند النهاية القصوى للجنوب العربى ، كشفت مس كاتون تومسون Caton Thompson منذ وقت قريب عن معبد لاله القمر من العصر الفارسى • وقد عثر به على مجموعة من هذه المذابح ، تشبه أشد الشبه تلك التى من جمة ، وقد زال أى شك عن مهمتها بما كشفته من آثار مادة راتنجية ذكية الرائحة على احداها • وقد وجدت قبل ذلك مذابح أقدم قليلا من السابقة ، كانت للبخور ولها نفس الشكل العام وعليها نقوش باللغة العربية الجنوبية دون عليها أنواع البخور المختلفة منها البلسم والناردين (او سنبلة الطيب) التى يجب استعمالها • وفى ذلك الوقت كان العرب البدو قد استولوا على معظم جنوب شرق الاردن والنقب فى فلسطين ، والتجارة المعينية كانت فى ذروتها ، ومحطات القوافل المعينية كانت منتشرة على الطريق الممتد مسافة ١٥٠٠ ميل من بلاد التوابل الى فلسطين ومصر • وكان اسم الزعيم العربى السائد فى جنوب فلسطين فى عصر نحميا هو جشم العربى (نحميا ٦ : ١ ، ٦) • وقد كشف عنه حديثا فى النقوش اللحيانية والارامية حيث كان يدعى ملك قيدار : •

ولم ينقب الا فى بعض أبنية قليلة من هذا العصر ، والمبنى الوحيد الذى يستحق ذكرا خاصا هو ڤيلا فارسية على قمة جبل لخيش (شكل ٤٧) وهذا المبنى من آواخر القرن الخامس ، أو أوائل الرابع قبل الميلاد يذكرنا بقوة ، من حيث التصميم والتفاصيل ، بتلك المبانى الفرثية المبكرة مثال تلك السراى الصغيرة فى نبور فى بلاد بابل (بابلونيا) حيث نجد استعمالا مماثلا للساحات والاعمدة • وان كان من الطبيعى أن توجد أيضا اختلافات يمكن تفسيرها فى الواقع تفسيرا جزئيا على أنها نتيجة لاختلاف الزمن • كذلك يعرف الان عدد كبير من المقابر الفارسية ، وهى تختلف اختلافا كبيرا فى الشكل ، ولكن يحدد تاريخها محتويات الدفنات الخاصة بتلك المقابر ، وهى عادة كثيرة الغنى • فمثلا كشف بترى فى تل الفرعة فى النقب عن مقبرة تحتوى على سرير وكرسى من البرونز فى حالة جيدة من الحفظ ، وآنية فضية مضلعة جميلة ، ومغرفة لها يد نحتت على هيئة فتاة عارية ملفوفة القوام • وكالعادة أعطى لها بترى تاريخا مرتفعا قديما ، ولكن عندما نظفت أجزاء السرير



شكل ٢٠ ــ قصر فارسى فى لخيش
(حوالى ٤٠٠ ق٠ م٠)

وجد أنها منقوشة بعدد من الحروف الارامية من العصر الفارسى ٠ وقد أثبتت الدراسة المقارنة التى قام بها ج ٠ ه ٠ اليفى J. H. Iliffe هذا التاريخ بصفة قاطعة ، كما أثبتت فى نفس الوقت تاريخا معاصرا من العصر الفارسى لبعض المقابر الصخرية فى جازر التى أطلق عليها ماكاليستر « فلسطينية » ٠ مثل تلك المقارنات الطبوغرافية ، حينما تجرى طبقا لنظام وبدقة ، تعطى نتائج سليمة تماما مثل علم طبقات الارض ٠

الفصل السابع

فلسطين فى العصر اليونانى الرومانى

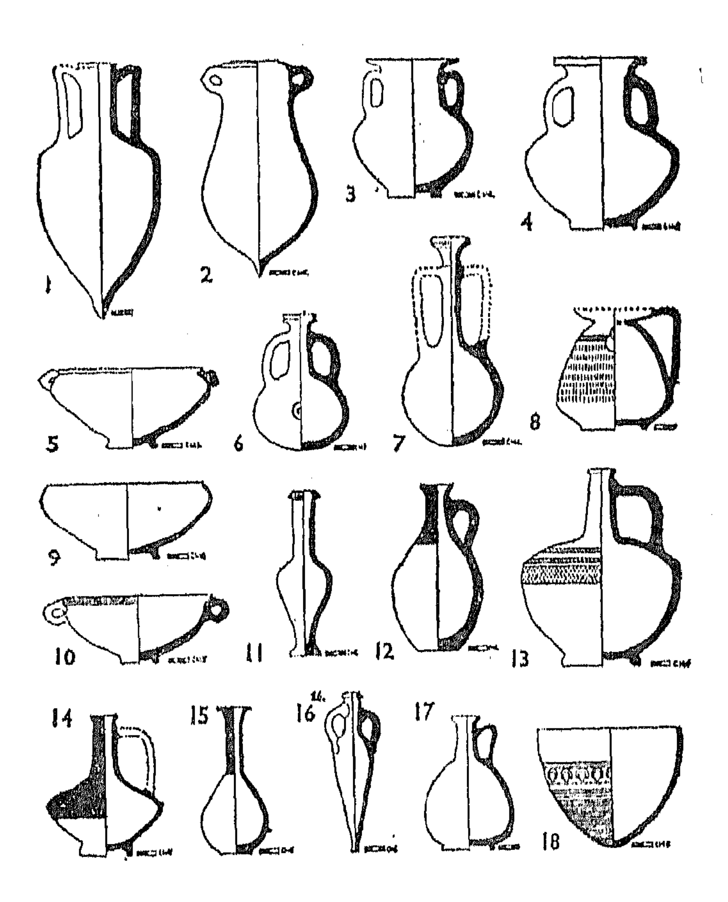
سنلخص فى هذا الفصل الحالة الراهنة لمعلوماتنا عن آثار فلسطين منذ أن فتحها الاسكندر فى ٣٣٢ ق ٠ م ٠ حتى انتصار المسيحية ، فى أوائل القرن الرابع الميلادى ، وسندرس هنا تاريخا لم ينس كل النسيان اطلاقا ٠ اذ تصف مئات المجلدات التى عاشت فى اليونانية ، واللاتينية ، والعبرية ، والارامية تاريخ وحضارة تلك القرون الست التى شاركت فيها فلسطين مشاركة تامة بصفتها مقاطعة صغيرة فى الامبراطوريتين المقدونية والرومانية ٠ وبفضل يوسيفوس وأبوكريفا[1] Apocrypha ، والعهد الجديد ، وأيضا ميشنا Mishnah وجيمارا الفلسطينى ، وغيرها من المؤلفات العبرية والارامية ، لدينا معلومات تاريخية كثيرة عن الاحوال فى فلسطين ٠ وان كانت لا تزال توجد فجوات غامضة عديدة فى هذا التاريخ تحتاج الى توضيح ٠ وقد أمدتنا أوراق البردى اليونانية بمعلومات كثيرة عن حالة فلسطين تحت حكم أسرة لاغوس Lagides (البطالمة) من القرن الثالث ق ٠ م ٠ كما أنارت النقوش النبطية الحالة السياسية لشرق الاردن وحضارته منذ قبل هذه الفترة حتى بعد انتهائها ٠ كما ألقت الكتابات الارامية واليونانية ضوءا على تاريخ اليهود ٠ وقد ساعدت النقوش اليونانية واللاتينية الموجودة على النقود والمبانى على تأريخ الكثير من الابنية وعلى تتبع مجرى الحياة العامة التى لم تعرف تفاصيلها فى غير ذلك من المصادر ٠

ونظرا لان عددا كبيرا من الابنية التى سنتناولها بالبحث فى هذا الفصل قد ظلت قائمة على الدوام ، اعتقد البعض عن سذاجة أنها ليست بحاجة الى فحص جديد ٠ ولكن هذا ليس صحيحا البتة ، اذ يحتاج

---

(١) قصص كتبه جماعة من المؤرخين المعاصرين للعصور المسيحية الأولى ، واعتبره البعض من ضمن الأناجيل ، ولكنها لا تدخل ضمن الأناجيل المقدسة التى كتبها الرسل ٠ المترجم ٠

عدد كبير منها الى الكثير من أعمال التنظيف قبل أن يميط اللثام عن أسراره الى علماء الاثار • وفضلا عن ذلك ، فان أبنية عديدة قد أرخت ، بل لا يزال بعضها يؤرخ تأريخا خاطئا ، وانه لفى نصف القرن الماضى فقط حين تعلم العلماء الاكفاء أن يميزوا بوضوح بين مبانى هرودس Herod والمبانى الاقدم منها أو المتأخرة عنها • وكل حفائر جديدة تجرى فى موقع يونانى — رومانى تحتم اجراء بعض التعديل فى التأريخ المعمارى • وبينما فى هذا العصر تحل بصفة عامة النقوش ، وخاصة النقود ، محل الفخار • وتوجد حالات عديدة فى كل تنقيب تمدنا فيها الجذاذات المتواضعة بمعلومات دامغة بخصوص تاريخ الابنية اليونانية الرومانية (شكل ٢١)



شكل ٢١ — فخار هيللينستى فى متحف فلسطين

وعندما يقارن المرء بين قلة الاثار المعمارية المعروف أنها تنتمى الى خلفاء الاسكندر فى فلسطين وسوريا وبين كثرة تلك الاثار فى مصر وآسيا الصغرى ، فان المرء لييأس من وجود صورة أثرية مناسبة للعصر الهيلنستى • ولكن الحالة لا تدعو الى اليأس الشديد • اذ نظرا للاتصال المستمر بين جميع أنحاء العالم الهيلنستى وخاصة تلك العلاقات السياسية والثقافية الوثيقة بين مصر وفلسطين من ناحية ، وبين سوريا وآسيا الصغرى من ناحية أخرى ، فان بعض الاثار المعمارية القليلة فى فلسطين وسـوريا تحظى بأهميـة لا تتناسب مع الواقـع • فهـذه الامثلة القليلة تمدنا بالدليل الملموس الذى نسـتطيع منه أن نعيد تكوين صـورة كـاملة عن طـريق المقـارنة ، على أسـاس المبـدأ المشهور ex ungue leonem وهو اعادة تكوين شيئا ما من جذاذة وذلك بمقارنتها بقطعة أخرى من نفس النوع •

وبينما تثبت الادلة المستمدة من النقود والفخار على أن عددا كبيرا من المواقع التى تم التنقيب فيها كانت مسكونة خلال الفترة التى حكم فيـها بطالمة مصر فلسطين (٣٢٣ — ٢٠٠ ق•م) ، فان الاثار الوحيدة الهامة التى عثر عليهـا من هـذا العصر فى فلسـطين هى المقابر الملـونة فى مريسـة[(١)] (السندحنة) ، من النصف الثـانى من القرن الثـالث ق • م • وهـذه المقـابر التى كشـف عنهـا حـوالى ١٩٠٢ ، وقـام بنشرها تبـاعا ج • ب • بيـترز Peters وهـ • ثيـرش H. Thiersch ، قد نحتت فى صخر جبل من الحجر الجيرى الرخو ، وزينت لرؤساء جالية صيداوية كان قد أسسها فى هذا المكان أحد أتباع أبوللو حوالى منتصف القرن الثالث قبل الميلاد • وقد زينت جدران المقابر بعناية بأشكال ومناظر ملونة ، كما ملئت الاماكن الخاليـة بالنقوش والكتابات اليونانية • وعندما فتحت المقابر لاول مرة كانت ألوانها زاهية بدرجة غير عادية ، أما الان فقد اختفت ألوانها أو تلفت الى درجـة كبيرة ولم يبق منهـا مايمكن رؤيته الا القليل • ومحتويات الرسوم والنقوش ذات قيمـة تاريخية كبيرة فهى تساعدنا على وصـف احدى مراحل الاغرقة بشىء من التفصيل • ولما كانت مريسة تقع فى أدوم ، فهذه الكتابات تساعدنا أيضا على رسم صورة للحياة والدين فى

(١) هى مريشة الوارد ذكرها فى التوراة . يشوع ١٥ : ٤٤ ، وموقعها الان تل السندحنة على بعد ميل تقريبا جنوبى بيت جبرين . المترجمان .

المستعمرة الادومية جنوبى يهوذا • وأهم الصور الملونة افريز يمثل صفا طويلا من الحيوان البرى ، فى الغالب نقل من كتاب يصور الحياة البرية رسمت مناظره فى حديقة الحيوان المشهورة بالاسكندرية وان كان الفنان لم ير كل الحيوانات عيانا اذا كان بعضها محض خرافة • وهذه المقابر غنية جدا بالمادة العلمية حتى أن المؤلفين المكلفين رسميا بالنشر فات عليهم أن يكتشفوا أو يسجلوا بعض الموضوعات البالغة الاهمية ، وكان ضمن ذلك نقش أرامى طويل نوعا ما وشمعدان كانا يلقيان ضوءا أخاذا على العمودين القائمين أمام واجهة هيكل سليمان •

وأهم ما يعبر عن العصر السلوقى التالى هى الاثار ، وان كان العصر المكابى الذى يتداخل فيه جزئيا (١٦٥ — ٣٧ ق • م) يتفوق عليه فى آثاره • وأهم الاثار جميعـــا من عصر الســيطرة السلوقيــة ضريح عائلة طوبيا (الذى أسسه طوبيا العمونى) (نحميا ٢ : ١٩ الخ) فى عرق الامير فى وسط شرق الاردن حيث نجد بعض المقابر الصخرية ، التى تحمل احداها اسم طوبيا الذى حفر حفرا عميقا فى الصخر بحروف أرامية من القرن الثالث قبل الميلاد • وطوبيا هذا من سلالة عدو نحميا ومن المحتمل أنه هو نفسه طوبياس المذكور فى برديات زينو Zeno التى عثر عليها فى جرزة بالفيوم ، وكان طوبياس حاكما على عمون مثلما كان سلفه منذ قرنين مضيا • وعلى مسافة من هذه المقبرة يوجد بناء مستقل ، مبنى بكتل ضخمة من الحجر ، لها أفريز على الاسلوب الهيلنستى المبكر القوى وصور أسفل الكورنيش أسدان أجيد نحتهما • ويتقدم الاسدان عن الشمال ليقابلا أسدين آخرين آتيين عن اليمين • ويبدو أن تفاصيل التيجان الكورنثية لا تسمح بتأريخه من القرن الثالث بل تربط هذا البناء مع هركانوس Hyrcanus ، آخر عائلة طوبيا ، الذى وصف يوسيفوس ما قام به من أعمال البناء : ومن ثم يمكن تأريخ المبنى حوالى ١٧٥ق•م أى قبل بداية العصر المكابى مباشرة •

وقد كشفت أعمال التنقيب فى السامرة عن تحصينات هيلينستية أرخها كروفوت بدقة فى أحدث مؤلفاته • وأقدم هذه المبانى هى سلسلة من الابراج المستديرة التى بنيت بازاء خط جدار غرف المدافعين التى من عصر بنى اسرائيــل • وقد بنيت هــذه الابــراج بعنــاية فائقــة ، وقد اعتقــد ريزنر أنهــا تنتمى الى القــرن الثــانى ق•م ، ولــكن

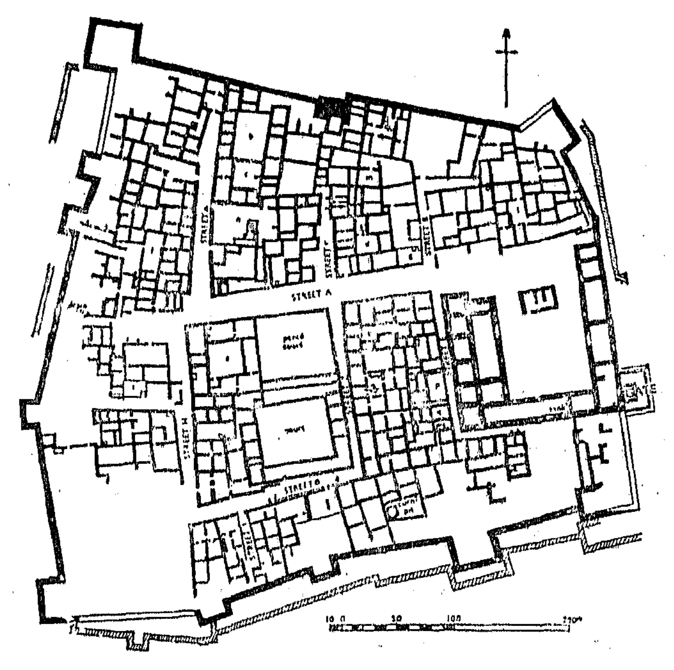
كروفوت وبندور قد نجحا فى تحديد تاريخها الهيلنستى المبكر ، تقريبا بين ٣٢٣ و ٣٢١ ق • م ، عندما أعاد برديكاس Perdiccas بناء السامرة حسب قول يوسبيوس Eusebios • وربما بعد قرن ونصف قرن ، أثناء الحرب بين السلقويين وبين المكابيين حين شيدت قلعة ضخمة لها جدران يبلغ سمكها أربعة أمتار تقريبا ، وقد أرخها ريزنر خطأ من القرن السادس ق • م •

وأهم أطلال المكابيين التى وجدت حتى الان فى فلسطين هى فى بيت زور التى تسيطر على الطريق الشمالى — الجنوبى الممتد من بيت المقدس الى حبرون على الحدود بين اقليمى اليهودية وأدوم • وعندما نقب فيها سيلرس O. R. Sellers بمساعدة المؤلف (١٩٣١) ، عثر بها على أطلال واسعة جدا تنتمى الى هذا العصر • ويوجد على القمة أساسات قلعة كبيرة ، تبين ثلاث عصور مختلفة من المبانى ، قد تهدمت جميعها لسوء الحظ حتى أصبحت تحت مستوى الارضية ، مما يجعل من الصعب تأريخها تأريخا دقيقا • ولكن لحسن الحظ عثر على حوالى ٣٠٠ قطعة من النقود أثناء أعمال التنقيب ، منها ١٢٦ تحمل أسماء أنطيوخوس ابيفانيس Epiphanes (١٧٥ — ١٦٤ ق • م) وابنه أنطيوخوس يوباتور Eupator (١٦٤ — ١٦٢ ق • م) والادلة المستمدة من النقود تتوازى بصورة مذهلة مع أدلة الكتاب الاول للمكابيين التى تذكر فيه عادة بيت زور فى موضوع الحرب بين السوريين والمكابيين • وقد أرجع المستكشفون القلعة الثانية الى القائد المقدونى باكيديس Bacchides الذى حصن بيت زور حوالى ١٦١ ق•م• (المكابيون الاول ٩ : ٥٢) ، ولكن واتزنجر Watzinger لفت الانظار الى الروح الشرقى لتصميمه ، وهى تختلف اختلافا بينا عن التصميم الهيلنستى للقلعة الثالثة الاخيرة • وهو محق فى الغالب فى نسبة القلعة الثالثة الى باكيديس • وفى هذه الحالة لابد أن الذى بنى القلعة الثانية هو يوداس مكابيوس بين ١٦٥ و ١٦٣ ق • م • ، كما قرر ذلك بصراحة عدة مرات فى سفر المكابيين الاول (١) • اذن تنتمى القلعة الاولى التى لم يبق منها الا بعض أطلال ، الى العصر الفارسى عندما تأزمت العلاقات بين يهوذا وأدومية •

---

(١) أسفار المكابيين من الأسفار المحذوفة من الكتاب المقدس العهد القديم لانها لا تتفق فى أسلوبها ولا فى حوادثها مع الكتاب المقدس .
[المترجم]

وتعرض بيت زور وجازر ومريسه جميعا آثارا هامة من هذا العصر • وقد عثر فى بيت زور على بيوت ودكاكين وحصون وخزانات ، وقد كشف فى جازر عن أطلال قلعة سيمون المكابى ، أما مريسة فقد عثر بها على مدينة كاملة من هذا العصر ، بشوارعها وبيوتها المبنية حسب القواعد الهيلنستية ، أى أن شوارعها تجرى متقاطعة متعامدة ، بما يناسب الحياة العملية بقدر الامكان ، مكونة ربوعا (أى بلوكات من البيوت) (شكل ٢٢) • ومن أهم ما عثر عليه من القطع الصغيرة ، خلافا للنقود ، فى بيت زور عشرات من أيادى الجرار المختومة باسم رودس ، وكل منها يحمل اسم صانع الفخار أو اسم الحاكم فى تلك السنة • وأيادى الجرار هذه جاءت من جرار النبيذ التى كانت تصدرها رودس وغيرها من مراكز النبيذ الايجية فى أنحاء عالم البحر الابيض المتوسط ، وهى دليل على وجود حامية اغريقية فى القصر المكابى • وقد عثر على ما يقرب من ٢٠٠٠ يد جرة تحمل أختام رودس وغيرها من المدن الاغريقية فى السامرة التى كانت بديهيا مدينة متأغرقة • والانسة فرجينا جريس عاكفة الان فى اعداد قائمة بالاختام



شكل ٢٢ — تخطيط لبلدة مريسة الهيللينستية
(القرن الثانى قبل الميلاد)

مستمدة من عشرات الالوف من أيادى الجرار التى أمكن الحصول عليها حتى الان من المواقع الاثرية فى جميع أنحاء العالم القديم ، فاذا استطاعت أن تحدد تواريخها بدقة كافية لصارت هذه الايدى لا تقل أهميـــة عن النقـــود فى استعمالها للتأريخ • وبهـــذه المناســـبة فمن المهم أن ندرك أن النقود قد تلقى ضوءا على مراحل متعددة من التاريخ القديم مثال ذلك فى البلاد الثلاثة التى ذكرت فى أول هذه الفقرة انتهت سلسلة النقود اليهودية حوالى ١٠٠ قبل الميلاد • وهذه الحقيقة تثبت أن هذه المدن الثلاثة سرعان مـــا هجـــرت بعد أن فتـــح الـــكسندر يوحنا (حكم حوالى ١٠٤ ـــ ٧٨ ق • م •) كل فلسطين وانعدم الدافع للاحتفاظ بحاميات فى هذه المراكز ، وقـــد أيدت أدلة الفخـــار أدلة النقود • وعدم العثور على قطعة واحدة من النقود البرونزية المنسوبة لسيمون المكابى (١٤٣ ـــ ١٣٥ ق • م) فى أى من المدن الثلاثة يؤيد تأييدا قاطعا رأى العلماء الذين أرجعوها الى نهاية الثورة الاولى •

فى ٣٧ قبل الميلاد خلفت المكابيين أسرة هرودس وكان أول ملوكهـــا هرودس العظيم ٣٧ ـــ ٤ ق • م • بنـــاء كبـــيرا ومحبـــا للثقـــافة اليـــونانية • وفى عصر هرودس نجد أن العمارة الهيلنستية قـــد بلغت أزهى مراحلها فى فلسطين فى بداية القرن الاخير للهيكل الثانى • وكانت عاصمته أورشليم ، التى حصنهـــا وشـــيد فيهـــا أعظم منشـــآته المعمارية • وقـــد محت أبنيته محوا تاما كل أثر للمبانى الســـابقة لهـــا لدرجة لم يستطع معها الاثريون حتى الان من العثور على أية معالم مؤكدة من هيكل سليمان أو أى تحصينات قديمة (باستثناء تلك التى على تل الاكمة (Ophel) ويرجع الفضل الى أعمال صندوق تمويل حفائر فلسطين (انظر الفصل الثانى) التى استمرت على أسس علمية أفضل بواسطة س • ن • جونسون وغـــيره من مـــوظفى مصلحـــة الاثار الفلسطينية ، فقد أمـــكن الان مطابقـــة الوصف الدقيق الذى كتبـــه يوسيفوس على الاكتشافات الفعلية • كما أصبح فى الامكان تقريبا ترسم الطول الكلى للجدار الاول لهرودس والتعرف على أطلال أبنيته • وأجمل نموذج لعمارة هرودس التى تزدان بخط مستقيم بارز محـــاذ لحافة الكتل الحجرية ، خلاف الحائط الساند لسور الهيكل ، يظهر فيما يعرف باسم برج داود فى بوابة يافا • والجزء الاسفل من هذه البوابة يمثـــل اما هيبيـــكوس Hippicus واما فزائيـــل ، وفى الاغلب

يمثل الاخير • ومشكلة الجدار الثـانى لهرودس ، التى كانت تحمى الجزء الشمالى المكشوف من المدينة لم تحل بعد ، ويعتبر معظم العلماء خط الجدار هذا من ضمن آثار هرودس التى يبدو أنها كانت تشغل مساحة تمتد من شارع داود حتى الضريح المقدس ، وبذلك يكون الضريح واقعا خارج السور • وان كان لازال من المحتمل أيضا ان حجارة هرودس التى بنيت فى الخط الهادرياني للجدار ، الممثل الان فى الجدار الشمالى من القدس التركية ، تنتمى الى نظام التحصينات التى تجرى حذاء الخط الاخير (أى الجدار الشمالى) ، وعلى ذلك فهى تمثل الجدار الثانى ، محتفظة بالضريح المقدس داخل الحائط •

والبناية البديعة للحائط الساند الكبير لساحة الهيكل اعتقد انه سليمانى عندما قام شارلز وارن Warren بالكشف عنه لاول مرة جزئيا حتى وصل الى الصخر • وحتى الان يأخذ بعض الكتاب هذا كقضية مسلم بها ، كما لا يزال بعض المتخصصين يعتقدون أن وارن قد كشف عن بعض أجزاء من المبنى السليمانى • وفى رأى المؤلف ان هذا لا يمكن أن يكون ، فبناءو هرودس قد نزلوا حتى الصخر الطبيعى ليكون لهم الاساس الذى كان عليه أن يتحمل ثقلا جبارا ناتجا من وزن المبنى الثقيل ومن الحشو الموجود فى باطن الحوائط الساندة • وحتى اذا فرضنا ان مهندسى سليمان كانوا يستطيعون تصميم وبناء مثل هذا المبنى الضخم ، فليس هناك ثمة داع لمثل هذا المشروع العظيم فى ذلك الحين • ومن المؤكد ان الهيكل الاول لم يصمم ليكون مركزا لحج حشود من الناس ، كما كان الحال فى عصر هرودس ، ومن المؤسف حقا انه لم تبق لنا حتى قطعة واحدة من هيكل هرودس نفسه • واكتشافان فقط هما اللذان يمكن الاشارة اليهما عن ثقة • احدهما نموذج كامل من نص اغريقى والثانى جزء من نفس النص ، يحذران السادة من دخول ارباض الهيكل وحتى هذين النصين ينتميان ، حسبما نفترض ، الى الاجيال الاخيرة من الهيكل الثانى وليس الى بداية عصرنا •

واذا أمكن ازالة الرديم من تحت مدينة القدس الجديدة ازالة تامة فمما لاشك فيه اننا سنعلم الشىء الكثير عن أبنية هرودس التى كانت لاتزال قائمة حتى زمن السيد المسيح • والمشكلة المحيرة لموقع برايتوريوم لبيرطى قد حلت الان بتفضيل برج انطونيا الذى قام الاب

فنسنت Vincent حديثا باعادة عمل رسومات له من الاثار التى عثر عليها فى التنقيبات المختلفة بجوار الزاوية الشمالية الغربية من سور الهيكل على الموقع الثانى بالقرب من بوابة يافا وسراى هرودس المجاورة التى تقع تحت الحديقة الارمينية (التى لم تحفر بعد) • ولكن نظرا لفقر النتائج التى أمكن الحصول عليها من أعمال تنقيب كابتن روموند فايل Raymond Weill وماكاليستر Macalister على الاكمة فى التل الغربى (صهيون التقليدى) فلا يبدو محتملا أن حفائر القدس سوف تسفر عن نتائج عديدة ذات أهمية تاريخية كبيرة • والمجسات والتنظيفات التى أجريت بالوسائل العلمية مثل تلك التى أجراها س • ن • جونس و ر • هاميلتون حول خطوط الحيطان القديمة وداخل مجمعات المبانى ، تعطينا نتائج أحسن بكثير نظرا لتحديد الاهداف تحديدا واضحا كما يمكن الحصول عليها بالوسائل العلمية الحديثة •

وهرودس وان كان قد اعتنق الديانة اليهودية فقد كان من أصل أدومى وعندما أجبر جون هركانوس الادوميين على قبول الختان واعتناق العقيدة الموسوية ، قبل ذلك بثلاث أجيال ، كان يعامل أقواما تعتبر نفسها انها مشتركة مع اسرائيل فى الجدين ابراهيم واسحق كأصل عام للشعبيين ، وسرعان ما صار الادوميون أشد تطرفا من جميع الطوائف اليهودية • وليس من المستغرب اذن أن يهتم هرودس بمثل تلك الاماكن المقدسة كحبرون (مكفيلة) وممرا (بلوطة ابراهيم) التى كانت مقدسة منذ وقت طويل عند الشعبين • والدليل المستمد من مبانى هرودس التى يزين حافة أحجارها خط مستقيم بارز والموجودة بالحرم الاكبر فى حبرون والتى لا يوجد أى شك فى صحة تأريخها ، وكذلك وجود العديد من حجارة هرودس فى الجدران الرومانية فى حرم رامة الخليل على بعد ميلين شمال حبرون ، كافيا لاثبات أصلهم الهرودسى ، على الرغم من عدم وجود أى دليل كتابى مباشر • زد على ذلك انه توجد أدلة طبقية قاطعة لمرحلة مبانى هرودس فى المكان الاخير •

ويقص علينا يوسيفوس باسهاب ، اعمال هرودس البنائية فى السامرة •

وان كانت الابحاث التى قام بها كروفوت قد خفضت كثيرا من عدد الابنية القائمة التى يمكن نسبتها الى عصر هرودس ، ولكن ما تبقى لا

بأس به من حيث الكم وقيم فى الكيف • وعلى العموم فمعظم مبانى هرودس فى السامرة تقل عن المستويات الرفيعة التى نجدها فى القدس وحبرون • والى هرودس يرجع معظم جدار سيباستى من المدينة الرومانية والقاعدة التى أقيم عليها معبد أغسطس وربما الاستاد الدورى (الذى قد يكون أقدم بعدة أجيال) • ومعظم أطلال المبانى المبكرة التى لا تزال قائمة حتى الان فوق الارض تنتمى الى فترة تقع بين ١٢٠ و ٢٣٠ م • انظر فيما بعد •

وينتمى عدد من أفخم المقابر التى تقع خارج سور أورشليم الى عصر هرودس العظيم • ويذكر نقش أرامى مكتوب على ما يعرف باسم « القديس يعقوب » عددا من أعضاء هيئة القساوسة فى بنى حيزير (أخبار الايام الاول ٢٤ : ١٥) ويبدو أن ثلاثة منهم كانوا من كبار الاساقفة فى عصر هرودس • وهرم زكريا المجاور يكون حينئذ أثرا لهم ، كما أن مقبرة ابشالوم هى النصب الجنازى الذى يرجع لمقبرة يهوشافاط وتشير كل من الحلية المعمارية وخط النقش الى عصر هرودس •

وفى ١٩٥٠ — ١٩٥١ نقب ج • ل • كلسو Kelso و ج• ب• برتشارد Pritchard فى أطلال مبانى هرودس المطلة على وادى الكلت جنوب أريحا الحديثة • وهنا قام كيلسو بتنظيم الابنية المعقدة التى تنتمى الى قصر المشتى لهرودس والتى تثبت أنها تشبه من حيث العمارة والفن الاعمال الاوغسطية فى ايطاليا •

وقلاع هرودس ومبانيه متناثرة فى فلسطين ، عادة فى أصعب الاماكن التى لا يمكن الوصول اليها مثال ذلك قصوره على قمة جبل مسده المطل على البحر الميت من الغرب • وأسهل من تلك فى الوصول اليها قلعة ماخورس Mochaerus على الجانب الشرقى من البحر الميت ، والاسكندريوم Alexandrium على قمة قرن صرطبة فى وسط وادى الاردن • وأشهر مبنى معروف عند العامة هى قمة جبل فرانك النائية جنوب شرقى بيت لحم • ولم يجر التنقيب فى أى من هذه القلاع ، فتكاليف الحفائر لن تتناسب مطلقا مع ضآلة النتائج • وخرائب قصر مسده قد قام بمسحها أدولف شولتن Schulten فى

١٩٣٢ • وان المرء ليتساءل ، وهو ليس خاليا من التأثر ، عما اذا كان ضمير هرودس هو الذى دفعه الى أن يبحث عن ملجأ فى معاقل لا يمكن الوصول اليها هربا من اشباح هؤلاء الذين قتلهم بوحشية وكذلك خوفا من المنتقمين الاحياء أقارب الاموات •

وبعد موت الطاغية انقضت ٧٣ عاما قبل أن تحل الكارثة النهائية • والى هذا العصر تنتمى خاصة الحائط الثالث لاورشليم والمقابر المتأخرة • والحائط الثالث كان قد بدأها هرودس اجريبا Herod Agrippa ثم أتمها اليهود خلال الثورة الاولى ٦٦—٧٠ ميلاديا • وفى ١٨٣٨ لاحظ ادوارد روبنصون آثار جدار ضخم يبعد بعض الشيء الى الشمال من الحائط الشمالى للمدينة التركية ، وفى ١٨٤١ نشر اكتشافه للحائط الثالث ، وفى نفس العام قام الدرسون Alderson معتمدا على نفسه بعمل خريطة أكثر دقة لنفس هذه الاثار • وقد احتدمت المناقشة أجيالا عديدة حول خط روبنصون والدرسون الذى دافع عنه بعض العلماء الامريكان من أمثال سالح مريل Selah Merril ولويس ب • باتون Paton ولكن رفضها كل الاخصائيين الاكفاء تقريبا ومنها أسماء لها قيمتها منهم ج • أ • سمث وجوستاف دلمان وعلى الاخص من ل • ه • فنسنت • وعلى العموم حدثت بين سنة ١٩٢٥ و١٩٤٠ سلسلة من الاكتشافات الطارئة التى تلتها حفائر منظمة تحت اشراف أ • ل • سوكينيك ول • أ • ماير أدت الى استعادة كل الخط الشمالى لهذا الحائط ، ولم يتبق الا بعض فجوات عند الطرفين لم يمكن ملؤها الا جزئيا • والبناء غير مهذب على الاطلاق ، فهو يتفاوت بين قطع من الحجارة الفاخرة التى زينت حافتها بالخطوط البارزة من أجمل صناعة من عصر هرودس الى قطع كبيرة غير مهذبة كبست بقطع من الحجارة الصغيرة • ومكان الحائط ومجراها يتفقان تماما مع وصف يوسيفوس الدقيق ، وقد بين م • سولومياك M. Solomiac أن وصف روبنصون ورفع الدرسون يطابقان الصورة مطابقة تامة حتى أن الشك لا يمكن الا أن يكون ضئيلا فى أنه قد وضح لدينا الان تقريبا الطول الكلى للحائط الثالث •

ويوجد حول أورشليم عدد كبير من مقابر اليهود من ذلك العصر ، كما تظهر من وقت لاخر مقابر جديدة • وبعض هذه المقابر ما هى الا نصب معمارية مثل ضريح الملكة هيلينا ملكة اديابينى Adiabene ، التى قام

بتنظيفها ف • دى سولسى F. de Saulcy فى ١٨٥٠ و ١٨٦٣ (انظر الفصل الثانى) ، ومقابر القضاة ، وتؤرخ كل هذه المقابر من العقود الاخيرة للهيكل الثانى • والكثير منها لا أهمية له فى حد ذاته ، ولكنها تمدنا بعناصر تكون فصلا كاملا فى العمارة والفن يستحق الكتابة • وأهم ما وجد فى المقابر التى لم يسبق فتحها هى صناديق من الحجر الجيرى جمعت فيها عظام الشخص المتوفى بعد أن تحلل لحمه • وكثير من هذه الصناديق يحمل نقوشا قصيرة باللغتين الاغريقية والارامية التى تعطينا اسم المتوفى ، وفى بعض الاحيان تفاصيل مقتضبة عنه أو عنها ، و • أ • ل • سوكينيك قد جعل نفسه العالم المبرز فى مقابر اليهود وصناديق الدفن فى أورشليم الذى ضاعف عددها بحفائره وأبحاثه • ولنقوش صناديق الدفن التى يبلغ عددها الان المئات ، قيمة تاريخية هامة عند طلاب العهد الجديد على الرغم من كونها مختصرة •

والمقتطف القصصى التالى عن تاريخ هذا الفرع من الابحاث الاثرية سيعطينا صورة عن طبيعتها ونتائجها أفضل من عدة فقرات من الوصف • فى عام ١٩٢٦ قام دكتور ل • أ • ماير (وكان حينذاك يعمل بمصلحة الاثار) بتنظيف مقبرة يهودية جنوب غربى القدس ، فوجد عددا من الصناديق الحجرية الخاصة بعظام الموتى وعليها نقوش أرامية ، نشرها فى ١٩٢٨ دكتور سوكينيك الذى قرأ النص الذى جاء على أحد الصناديق وترجمته : « دوسيثيوس والدنا ولارملته » • ومهما كان الامر ، فلكى يحصل المرء على القراءة « ولارملته » التى هى فى حد ذاتها غير منطقية وشاذة فى هذا المتن كان عليه أن يقرأ الكلمة العبرية « ألماناه » بدلا من الكلمة الارامية « أرملتا » • واختلاط اللغات أمر غير مألوف على الاطلاق • وفى ديسمبر من نفس السنة قدم الاب سافنياك Savignac من مدرسة الدومنيكان للتوراة فى القدس ، بحثا عند اجتماع الجمعية الشرقية الفلسطينية ناقش فيه خط هذا النقش واقترح قراءة أخرى للكلمة الاخيرة ، وقد اضطر الى قراءة حرفين قراءة مخالفة كى يحصل على هذه القراءة • وعلى الرغم من أن القراءة كانت من ناحية الكتابة أفضل من قراءة سوكينيك كما اتضح فيما بعد صحتها ، الا أن الاسم العلم الذى قرأه سافينياك لم يكن معروفا فى غير هذا الموضع • ولكن سوكينيك دافع عن تفسيره بقوة ، مبينا غرابة مثل هذا الاسم • ولكن بعد ذلك مباشرة اقترح أفينوم يلين

Avinoam Yellin اتباع قراءة الاب سافينياك على أن تقرأ الحروف كعبارة أرامية «و • لا — لى — مفتــاح » أى « لا تفتـــح » ومن الواضح أن هذه القراءة صحيحة ، وفى الحال قبلها جميع علماء فقه اللغة الذين كانوا حاضرين • ولكن سوكينيك لم يقتنع الا بعد فترة طويلة • فقد عثر فيما بعد على أمثلة عديدة من نفس العبارة ضمن نقوش المقابر وقد عثر سوكينيك على اثنين منها •

وفى ١٩٣١ عندما كان سوكنيك يدرس المجموعة التى جمعت منذ عدة سنوات فى متحف الاثار الروسى على جبل الزيتون ، عثر على قطعة حجر من المرمر منحوتة نحتا بديعا ، وعليها نقش آرامى ، وكان الاثر موجودا فى الغالب قبل عام ١٨٩٤ ، أى عندما توفى العالم الذى جمع معظم هذه الاثار • وقد ترجم النص ، بمساعدة أ • ن • ابشتين I. N. Epstein (من أبرز علماء فقه اللغــة الارامية فــى أيامنا) هنا أحضرت عظــام عــزيا ، ملــك يهـــوذا ــ لا تفتح » • وقد اعترض أحــد الثقــاة الممتازين على النقش لاســباب مختلفة ، ولكن لا صحة لاى من اعتراضاته • زد على ذلك ، ديف يستطيع مزيف أن يرى الطريق المعقد الذى أثبت قراءة العبارة النهــائية بعد ذلك بعدة سنوات •

والى جانب الاطلال الموجودة فى غرب فلسطين التى تنتمى الى عصر هرودس وما يتفرع عنه من فترات ، فان أهم آثار فلسطين الكبرى تأتى من مملكة الانباط فى شرق الاردن ، وخاصة من عاصمتها البطراء (أو البتراء أو بطرة) فمنذ أن اكتشفت بورخارد Burchhardt البطراء فى ١٨١٢ وهذه المدينة تحظى باهتمام بالغ ليس فقط من العلماء بل أيضا من السياح عامة • وكانت صعوبة الوصول اليها حتى فيما بعد الحرب العالمية الاولى سببا فى تحديد عدد الزائرين ، وان كان هذا زاد فى نفس الوقت من سحرها الشاعرى • وقد يسر مجىء السيارة زيارتها الى درجة لا تقارن • ومنذ ١٩٢٩ أجريت عدة تنقيبات فى هذه المنطقة تحت اشراف جورج هورسفيلد واجنس كونرى (التى أصبحت فيما بعد تعرف باسم مسز كونوى) ومرجريت مرى •

وقد وصف سترابو البطراء وصفا صحيحا قبيل نهاية القرن الاول قبل الميلاد • حين قال « مدينة تقع فى واد •••• تحده الصخور الشاهقة

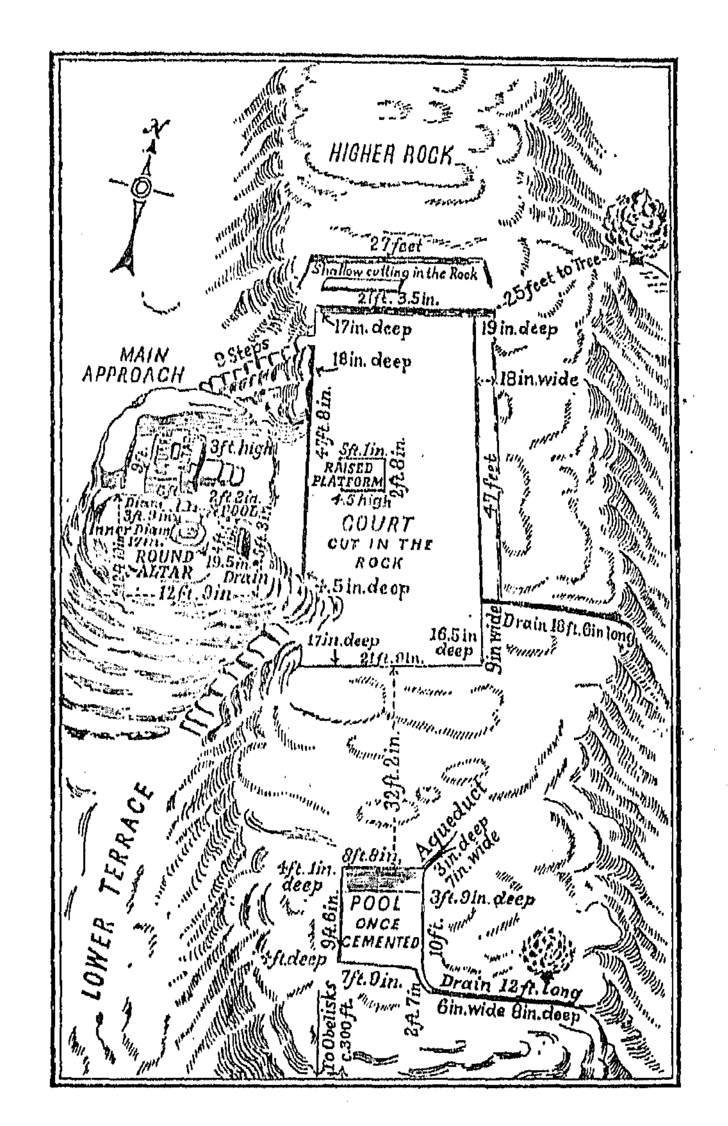
من كل جانب » • يؤدى اليها طريق دائرى بين الصخور الشامخة يدعى الزق ويبلغ طول الزق كيلو مترين ، أما عرضه فنادرا ما يزيد عن عشرة أمتار ، ويبلغ أقصى ارتفاع للصخور التى تحيط به مائة متر • والصخور الرمليه الحمراء والبنية اللون التى عششت بينها البطراء قد صفت على جانبيها المقابر ، والكثير منها عبارة عن نصب تذكارية بكل معنى الكلمة • ومن بين هذه الاضرحة يبرز ضريحان بما لهما من رونق ، هما الخزنة وقصر فرعون ، وكلاهما يمكن تأريخه من عصر أعظم ملوك الانباط جميعا (أو بعده مباشرة) وهو الحارث الرابع (حاريثه ، اريتاس) فيلوديموس Aritas Philodemos (٩ ق•م• — ٤٠م) الذى لعب فى تجديد البطراء وتجميلها نفس الدور الذى قام به معاصره الاكبر ، هرودس العظيم بالنسبة لاورشليم • وقد أثبتت أبحاث علماء تاريخ العمارة الممتازين أمثال ويجاند Wiegand وفولتزنجر Wulzinger وهورسفيلد ثبوتا قاطعاأن هذه النصب الهامة المحفورة فى الصخر ذات الواجهات المعمارية ما هى الا مقابر كرست لذكرى الموتى وطقوسهم ، ولا يوجد أى أساس متين للتفسير الشائع القائل بأن هذه العمائر كانت معابد ، وان كان من الطبيعى أن يحتوى بعضها على مقاصير لعبادة الالهة •

وقد أثبتت حفائر هورسفيلد أن هناك ثلاث مراحل من العمران بالبطراء قبل العصر البيزنطى : المرحلة النبطية الاولى من القرن الرابع قبل الميلاد ، الى القرن الاول قبل الميلاد ، المرحلة النبطية الكلاسيكية من القرن الاول قبل الميلاد حتى الاحتلال الرومانى فى ١٠٦ ميلادية ثم المرحلة الرومانية فى القرنين الثانى والثالث الميلاديين وتتميز المرحلتان الثانية وأوائل الثالثة ،أى من حوالى ٥٠ قبل الميلاد الى حوالى ٢٠٠ ميلادية ، بوجود فخار نبطى رفيع جميل اللون ، وكان يعثر عليه فى جميع مساكن هذه الفترة فى جنوب شرق الاردن • والى المرحلة الاولى ينتمى عدد من المقابر التى لها صرح ذات دخلات وخارجات (ولها واجهات تشبه واجهات الصروح المصرية ويعلوها سقف هرمى مدرج وهى خليط من الشكل المصرى والشكل الفارسى — العراقى • وفى المرحلة الثانية كانت تزدان الصروح البسيطة بالجمالون والحلية والكورنيش الهيلنستى • والى جانب هذه المقابر والاضرحة حفرت أيضا فى الحجر الرملى الناعم البيوت الخاصة والهياكل وهى تشتمل على

الاقل على معبد رئيسى واحد (الدير) • وعلى منزل واحد ملون بزق البريد يتضح من أسلوب الرسومات التى على حيطانه أنه ينتمى الى منتصف القرن الاول ق•م• أو بعد ذلك بقليل •

وتنفرد البطراء بوجود عدد من الاماكن العالية التى تميزها ، وهذه معابد مكشوفه كرست للالهة ، وتنتمى كلها الى الفترة المبكرة من تاريخ البطراء • وأقدم مكان عال مؤرخ قام المؤلف الحالى بالتنقيب فيه عام ١٩٣٤ ، ويطلق عليه « مكان كونوى العـــالى » نســـبة الى مكتشفه • وهو فى جـــوهره عبـــارة عن طـــريق دائرى خاص بالاحتفــــالات الدينية حول صخرة مقدسة • وهذا المكان العالى يقع على أعلى نقطة داخل مدينة البطراء المسورة ، ويدل الفخار والنقود على أن هذا المكان كان مستعملا منذ القرن الاول قبل الميلاد ان لم يكن قبل ذلك ، حتى الازمنة المسيحية ، حين دمر • ولما كان الانباط قبيلة عربية ، فليس من المستغرب اذن أن نجد أمثلة عربية شمالية وجنوبية عـــديدة من طـــرق الاحتفالات الدينية ، حول أشياء مقدسة • كما توجد طبقة أخرى من الاماكن المرتفعة وهى أقدم نشأة • وربما استمر فيها القيام بطقـــوس الاماكن العالية اليهودية القديمة بدقة أكثر عن أى جهاز آخر •

وقد كشف جورج روبنصون عن أول مثل من هـــذا الطراز فى عـــام ١٩٠٠ ومنذ ذلك الوقت تم الكشف عن عدد آخر • ويقع هذا « المكان العالى العظيم » المعروف باسم « روبنصون » (عند الغربيين) على أعلى قمة فى جبال زيبب عطوف Zibb 'Atuf النجر غـــربى الخـــزنة وجنوبى المسرح الرومانى • والمعالم الرئيسية للمكان العالى هى فناء مستطيل محفور فى المسطح الصخرى لعمق نصف متر ويبلغ طوله ١٥ مترا تقريبا • ويوجد غرب الفناء مباشرة مذبحان أحدهما مربـــع والثانى مستدير ، وقد نحت كل منهما من الصخر الطبيعى ، ويؤدى من الطبقة السفلى سلمان محفوران فى الصخر الى الفناء (شكل ٢٣) • وكما هى العادة فى الاماكن العالية فى التوراة كان الغرض من هذه الاماكن على الاخص هو الاحتفال بالاعياد التى تقام تكريما للالهة فى أوقات معلومة وخاصة فى الصيف • وعلى مقربة من « المكان العالى العظيم » • توجد مسلتان نحتتا بعناية من الصخر المحيط الذى كان مستعملا لاغراض البناء عند الانباط سكان البطراء ولما كان قطع وابراز هاتين المسلتين من جميع الجهات يستلزم ازالة طبقة صخرية عمقها ست أمتار على الاقل ،



شكل ٢٣ ـــ المكان العالى العظيم بالبتراء

فمن الواضح أنهما لا يمكن أن يكونا أقدم من القرن الاول قبل الميلاد عندما بدأ عصر المبانى العظيم • وعلى كل حال ، فنوع العمود المقدس الذى وجدناه فى زيبب عطوف هو انعكاس لاصل قديم جدا كان منتشرا فى شرق الاردن ، ويرجع على الاقل الى القرون الاخيرة من الالف الثالثة (قارن الفصل الرابع) •

وقد بينت أبحاث نلسون جلوك Glueck مقدار كثافة الانباط الذين استقروا بالبلاد التى كانت يوما ما عامرة بالادوميين والموآبيين ، ومدى نشاطهم فى فلاحة الارض •• وقد نقب جلوك أيضا فى المعبد النبطى القائم على قمة التل المنفرد الشامخ ، جبل التنور جنوب شرق النهاية الجنوبية للبحر الميت سنة ١٩٣٧ ، وقد أظهر جلوك شبها كبيرا بين مبانى هذه المجموعة وبين « المكان العالى العظيم » فى البطراء التى توحى بأن المعبد كان مكانا مكشوفا مثل هذا الاخير • وكما نجد فى المكان العالى فى البطراء • كان البناؤون المتعاقبون حريصين على كسوة المبانى السابقة أو تكبيرها دون هدمها واقدم هيكل فى التنور أرخه جلوك تأريخا صحيحا عند بداية القرن الميلادى الاول ، فأدلة الفخار والادلة غير المباشرة للنقش النبطى يبدو أنها قاطعة • والهيكلان الثانى والثالث كانا أكثر تعقيدا وهما مزدانان بعدد وافر من صور الاشخاص والزخارف المنحوتة والكثير منها له أهمية بالغة فى تاريخ التصوير الوثنى فى سوريا فى القرن الثانى وخاصة فى القرن الثالث الميلادى الذى يجب أن يؤرخ الهيكلان منه • وكما رأى جلوك وكان رأيه صحيحا على الرغم من تأريخه المبكر للهيكلين الثانى والثالث ان الالهين اللذين قدسا فى هذا المكان هما زيوس — هدد واتركاتيس السوريين — وليس دوسارس (ذو الشرى) النبطى وزوجه اللات وان كان يخلط بين الزوجين الالهيين فى الحياة العملية •

واقدم مبنى رومانى لازال باقيا فى فلسطين من بعد نهاية الاستقلال اليهودى فى سنة ٧٠ م • هو المعسكر الرومانى والحائط الدفاعى فى مسده على الجانب الغربى من البحر الميت « حيث قاوم بعض اليهود المتعصبين حتى سنة ٧٣ ميلادية وقد قامت البعثة الالمانية المهتمة باطلال المبانى الحربية الرومانية بالتنقيب فى هذه المنطقة بدقة فى عام ١٩٣٢ • وقد سبق لالبراخت الكشف عن جدار دفاعى مماثل فى بتير (بيت العربة) وهو آخر موقع صمد فيه باركوخفا ، قائد

الثورة اليهودية الثانية حول ١٣٥ ، وبهذه المناسبة يمكننا القول بأن التعرف على هذا المكان قد ظل فترة طويلة محل جدل ، على الرغم من وحـدة الاسم ، وكـان سـبب ذلك على الاخص ضـآلة حجم قلـعة باركوخفا ، خربة اليهود ، وعلى العموم نظرا لان معظم نقود الثورة الثانية التى كان اقليمها معروفا قد أمكن تتبعها الى بتير وبالاضافة الى وجود الجدار الدفاعى الرومانى فهذا يزيل كل أثر للشك فى تحقيق موقع المدينة .

وقد صمم الامبراطور هدريان على القضاء قضاء تاما على العقيدة اليهودية وكانت اولى خطواته فى هذا السبيل اعادة بناء اورشليم كمستعمرة رومانية ، تحت اسم ايليا كابيتولينا **Aelia Capitolina** ولم يسمح لاى يهودى بالاستيطان فى ايليا الذى بقى اسما للمدينة حتى الفتح العربى . وهذه الحقيقة تؤكد للاثريين ان كل المقابر اليهودية القديمة تسبق سقوط الهيكل الثانى فى سنة ٧٠ ميلاديا . ولما كان تخطيط ايليا قد بقى على حاله دون تغيير قرونا عديدة فيما عدا بعض اضافات للبنايات والمساكن العسكرية التى تقع خارج السور ، فقد وجد ان من اليسير اعادة عمل تصميم لها . وقد فرض ان ايليا لم يكن لها سور ، وهذا أولا وقبل كل شىء غير محتمل ، نظرا لانعدام الامان فى تلك الازمان ، وقد ثبت عدم صحة هذا الرأى من مجسات ر . و . روبنصون فلم تكن ايليا فقط مسورة ، بل لم يحدث سوى تعديلات طفيفة فى خط سور المدينة منذ الازمنة الرومانية ، والحائط التركى من اوائل القرن السادس عشر لم تخرج فى معظمها عن كونها ترميمات للجدران السابقة او مبنية بحذاء حائط ايليا القديم . ولا يعنى هذا أنه لم يحدث أى تعديل فى نظام التحصينات فمثلا قيل ان الامبراطورة البيزنطية يودوكيا قد بنت حائطا لحماية الاماكن المقدسة . وقد ظن بليس Bliss انه قد تعرف على خط الحائط اليودوكى فوق أساسات جدار هرودس العظيم جنوب تلال أوفيل وصهيون ، ولا يمكننا القول حتى الان عما اذا كان مصـيبا أو مخطئا ، والمجسات التى قام بها هاميلتون عند الحـائط الشمالى من المدينة القديمة فى اورشليم قد أقنعته بان ترميما قد حدث فى هذه الحائط فى أوائل القرن الرابع الميلادى قبل عصر يودوكيا .

وبفضل الاوصاف واعمال التنقيب قد أصبح فى الامكان الان اعادة تصميم ايليا كابيتولينا بصورة ادق مما يمكن عمله لاورشليم هرودوس ،

على الرغم من وصف يوسيفوس الكامل (وان كان عادة غامضا) كان يوجد بها شارعان رئيسيان ذوا بواك ومتعامدان • وأهمهما هو شارع دمشق الحالى ، الذى يؤدى من بوابة دمشق حتى ساحة الهيكل ، وكان على محور المدينة الشمالى — الجنوبى • وقد رسم هذا الشارع بوضوح فى خريطة اورشليم المرسومة على فسيفساء مأدبا من القرن السادس الميلادى • وكان يوجد على موقع الهيكل معبدا للاله جوبيتر كابيتولينوس حامى المدينة ، والى الشمال الغربى منه كان يوجد معبد فينوس ، الذى حل محله فيما بعد بازيليكا (كنيسة انستاسيس) الضريح المقدس ولم يعثر على أى أثر لهذين المعبدين ولابد أن المسيحيين قد دمروهما تدميرا تاما • ويوجد فى معظم حفائر القدس بلاطا مختوما باسم الفرقة العاشرة legio decima Fretensis التى عسكرت هنا فترة طويلة كحامية للمدينة •

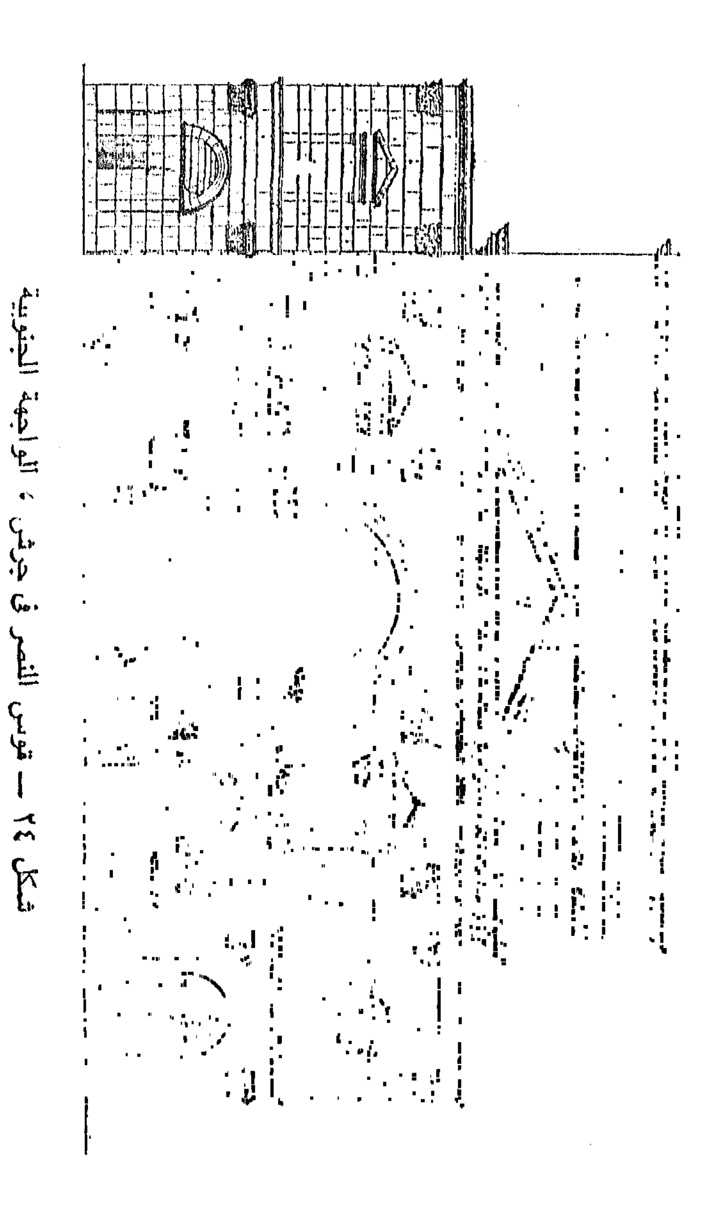
ورغم ان المدن الهيلنستية لاتحاد ديكابوليس (١) شرقى الاردن ، كانت قائمة منذ القرن الاول أو الثانى بعد غزوة الاسكندر ، الا أن توسع هذه المدن لم يبدأ بهمة ونشاط الا بعد أن ضم تراجان دولة الانباط وأنشأ مقاطعة ارابيا • والمدينة الوحيدة التى نقب فيها حتى الان (فيما عدا بعض تنظيفات بسيطة فى عمان ، فيلادلفيا الاغريقية) هى جراسا (جرش الجديدة) التى كشف عن جزء منها فى السنوات من ١٩٢٥ — ١٩٣٤ هورسفيلد واعضاء بعثة التنقيب الانجلو امريكان تحت رئاسة كروفوت ، وفيشر ، وماكون على التوالى •

وكان يقسم المدينة من الشمال الى الجنوب شارع ذو بواك ممتد على طول المحور وقد تم تنظيف الرصيف ، الذى كان لا يزال فى حالة جيدة من الحفظ ، بطول الطريق كله •

وعند النهاية الشمالية توجد البوابة الشمالية الضخمة التى بناها تراجان عام ١١٥ ميلاديا وعند النهاية الجنوبية القصوى خارج البوابة الجنوبية بنى هدريان قوس النصر (شكل ٢٤) فى سنة ١٣٠ ميلاديا • وكان من المنتظر ادخال هذا البنيان ضمن خط حائط جديد

---

(١) ديكابوليس كان اتحادا مكونا اسميا من عشرة مدن اغريقية كان منها فيلادلفيا — جراسا — جدارا — ودمشق — ومدينة واحدة بيسان (بيت — شان) — فى غرب الاردن •

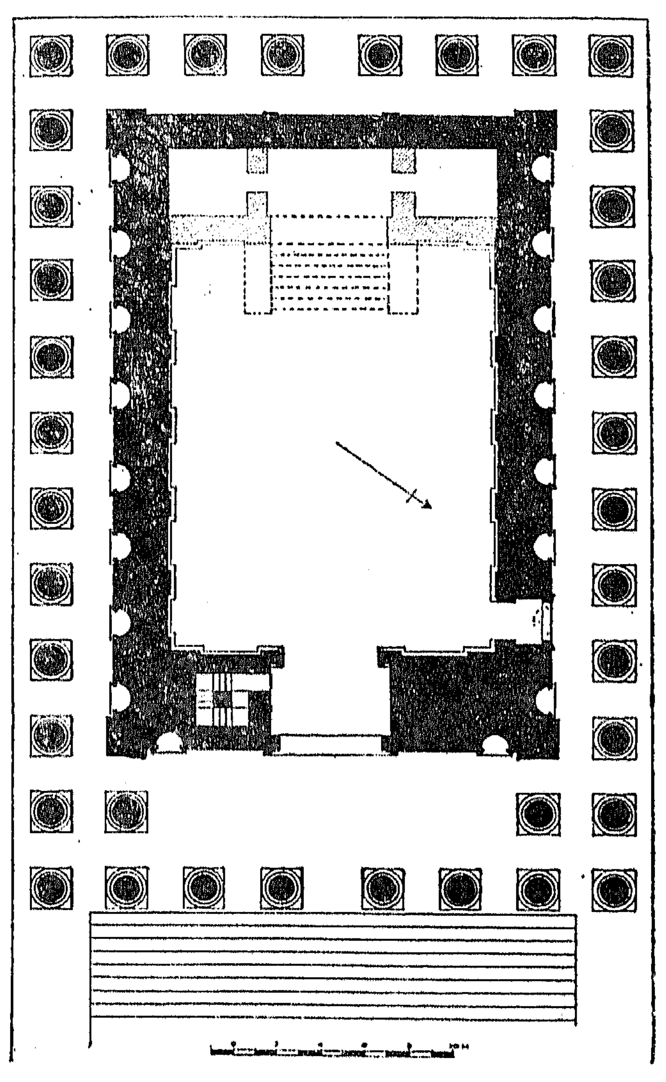


شكل ٢٤ — قوس النصر في جرش ، الواجهة الجنوبية

يحوى حيا جديدا ، ولكن هذا لم يتم • وأهم مبنى رئيسى فى المدينة كان معبد ارتميس Artemis الفاخر الذى أقيم تكريما للالهــة الحــامية لمدينة جراسا • ولابد ان العمل فيه قــد استغرق اجيالا عــديدة قبل عام ١٥٠ ميلاديــا وبعدها عندمــا كرست بوابات المعبــد الضخمــة• ويلى معبد ارتميس فى الاهمية معبد زيوس الرائع الذى بنى حوالى عــــام ١٦٣ م • (شــكل ٢٥) والفتــرة الانطونيــة التــى بنيت فى أثنائها هذه المعابد البديعة ، كانت من أزهى العصور فى نواح متعددة فى كل من سورية وفلسطين الوثنيتين ، ولكن نظرا لضيق المكان سنضطر الى ترك الحديث عن ميدان السباق أو المسارح والمبانى الاخرى فى جراسا التى من القرنين الثانى والثالث الميلادى •

وتحتوى بقية مدن الديكابوليس على أبنية رومانية عديدة ، ولكن القليل مما لازال قائما فوق سطح الارض يضارع فى حجمه مبانى جراسا • وخارج الديكابوليس نجد فى السامرة سلسلة من مشروعات المبانى العظيمة من أواخر الفترة الانطونية وفترة سيفيروس من ١٨٠ ـــ ٢٣٠ م • حسب كروفوت • والى هذه الفترة ينتمى شارع البواكى الشرقى ـــ الغربى ـــ والفسيفســاء الرومانية والاســـتاد الكورنثى • وقد بنيت جميعا من نفس المادة وبنفس الاسلوب المعمارى وقد ثبت من تفاصيل التيجان الكورنثية انها تنتمى الى العصر الــذى نتحدث عنه • وتدل النقوش على أن الســامرة قد صارت سيباستى Sebaste تحت حكم سيفيروس ، وهذه الحقيقة هى التى تفسر هذا النشاط الفجائى فى البناء ، وهذا التغيير فى المنزلة كان مفضلا فى الواقع عنــد الامبراطور الرومانى ، وقــد صرفت التــكاليف من خزينــة الامبراطورية •

وخلال القرنين الثانى والثالث ميلاديا ، بدأ عهد بناء المجامع بعد ما حاق بها من دمار على أثر الثورتين اليهوديتين • وقبل ظهور مؤلفات كول وواتزنجر Watzinger واحدث منها كتاب سوكينيك الذى يعد بسهولة الاول فى الميدان • كان عدد كبير من العلماءيعتقدون أن المجامع التى دمرت فى الجليل كانت تنتمى الى عصر الســيد المسيح قبل الثــورة الاولى ، ولا يوجد الان ادنى شك فى عدم صواب هذا الرأى ، وانه يستحيل تأريخ أى بناء قبل الفترة الانطونية على أكثر تقدير • ومجامع فلسطين التى كشف عنها وتم تنظيفها حتى الان تنتمى الى مرحلتين



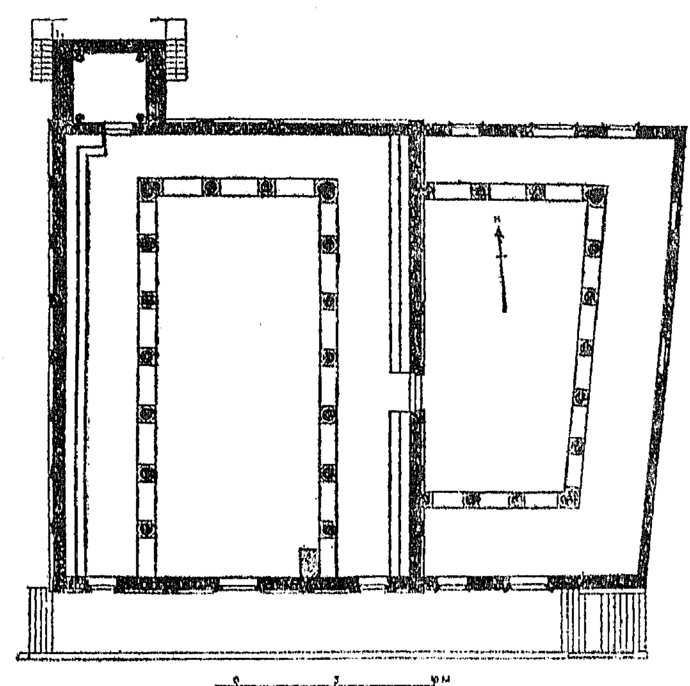
شكل ٢٥ — معبد زيوس فى جرش

رئيسيتين ، الثانية منهما تبدأ فى النصف الاول من القرن الرابع عندما اعطى ربونى (الحاخام) ابون اذنا رسميا بالسماح بادخال فسيفساء تمثل كائنات حية فى بناء المجمع • ومن الجدير بالملاحظة ان هذا القرار كان قد فقد من تلمود أورشليم حتى ١٩٣١ ، عندما نشرا • ن • ابشتين مخطوطا قديما محفوظا بلننجراد يحتوى على هذا القرار •

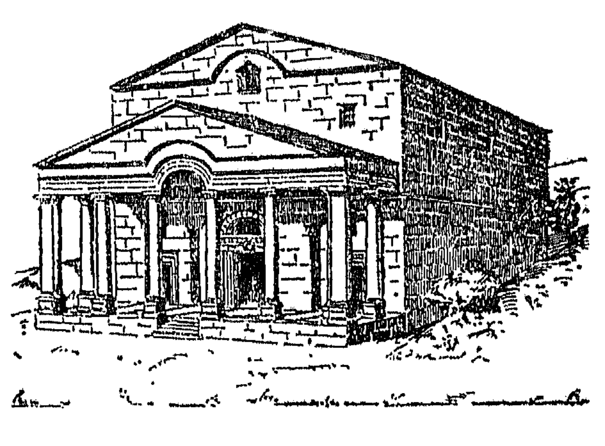
ويمكن تتبع نظام المجامع من المكتشفات الاثرية فى مصر وديلوس Delos حتى القرن الثالث قبل الميلاد ، ومن المؤكد انه كانت توجد مجامع

فى فلسطين حتى قبل ذلك التاريخ • واقدم أثر عن مجمع فى فلسطين هو نقش فى القدس • نشره مكتشفه ريموند فايل عام ١٩٢٠ وهو يذكر بناء مجمع بمعرفة ثيودوتوس بن فيتينوس ، قس ورئيس المجمع • ولما كان ثيودوتوس قد أخذ اسمه كما هو واضح ، عن عائلة فيتينى الرومانية gens Vettena فلابد أنه هو أو أحد أسلافه كان عتيقا من ايطاليا • ولذلك فهناك سبب قوى لربط هذا المجمع مع مجمع العتقاء ، المذكور فى أعمال الرسل ٦ — ٩ — أقوى أنصار الارثوذكسية كما نعرف ذلك من دورا وغيرها من المدن أما فلسطين فيوجد بها فقط الطراز المتأخر الرسمى للمجمع ، وفيه يحتوى البهو الرئيسى على صحن فى الوسط وممشيين جانبيين يفصلهما صفان من الاعمدة •

وكما ذكرنا سابقا ، لا يوجد بين المجامع القائمة فى الجليل ما يسبق الفترة الانطونية الاولى او حتى فترة سيفيروس أى حوالى نهاية القرن الثانى الميلادى • وينتمى الى هذه المرحلة الاولى على الاخص مجامع كفرناحوم وكورازين وكفر برعيم • ولما كانت المدينتان الاوليان تبرزان بقوة فى الاناجيل ، فمن المؤسف حقا الا يكشف عن آثار أقدم من تلك ، وليس من المستبعد البته وجود أساسات مجمع أقدم تحت اطلال مجمع القرن الثالث فى كفر ناحوم ، ولكن ليس من المنطق أن نهدم هذا البنيان البديع على أمل أن نجد تحته آثارا أقل قيمة منه • وقد بدأ بالتنقيب فى مجمع كفر ناحوم اثنان من الاثريين الالمان هما : كول وواتزنجرر فى ١٩٠٥ واتم عملهما فى ١٩٢٦ ، الاباء الفرنسيسكان الذين يملكون المكان ، وقد رمم جزئيا وهو من أجمل المناطق التى تستحق الزيارة فى فلسطين (شكل ٢٦ و ٢٧) وقد بني المجمع بالحجر الجيرى الابيض وهو يتباين تباينا حيويا مع اللابة السوداء التى بنيت بها البيوت المحيطة به • والبهو الرئيسى مستطيل ويبلغ طوله ٢٥ مترا وعرضه ثلاثة أرباع ذلك ، والى الشرق منه يوجد فناء ذو أعمدة • وقد زين المبنى بعناية بزخارف من الحجر المنحوت ، وربما كسيت حيطانه فى الاصل برسومات ملونة على نمط حيطان مجمع دورا المعاصر له تقريبا الذى بنى فى سنة ٢٤٤ ميلاديا • وقد كان كاملا تقريبا عندما عثرت عليه البعثة الفرنسية الامريكية التى قامت بالتنقيب فى ١٩٣٢ ، وحيطانه الغنية بألوانه قد أمدت مؤرخى الفنون بثروة غزيرة من المادة العلمية • ومجمع دورا بمعاونة الحقائق المستمدة من المقابر المنحوتة



شكل ٢٦ ــ مجمع من القرن الثالث الميلادى فى كفر ناحوم



شكل ٢٧ ــ مجمع كفر برعيم (شكل تصورى)

فى السراديب الجنازية بروما وجبانة القرنين الثالث والرابع فى بيت شـــاريم (شيخ بيـــرق) فى فلسطين ، قـــد دلت على مـــدى اعتمـــاد الفن المسيحى المبكر على الفن اليهودى فى العصر الرومانى ولما يكن هذا متوقعا من قبل . وهنا أيضا أثبتت الاثار صحـــة المثـــل الفلسفي القديم « natura non facit saltum « ان ثمة استمرارا فى كل انقطاع ظاهرى فى التاريخ » . وثمة فرق شائع بين الفن الغسولى وبين فن مجامع الجليل الا أن مفتاح اريادنى يجرى خلال المتاهة وواجب الاثرى أن يجد هذا المفتاح ..

الفصل الثامن

السكان واللغات والكتابة والاداب فى فلسطين القديمة

لما كانت فلسطين معبرا بين القارات ، كان اهلها دائما خليطا ، ولا يحتمل البته وجود فترة ما منذ بداية العصر الحجرى القديم الا مثلت فيها بفلسطين فصائل مختلفة من النماذج البشرية واللغات المتنوعة . ومن ثم فان تحديد الروابط القومية والثقافية على أساس الاجناس البشرية أشد صعوبة فى فلسطين عنه فى اى منطقة أخرى من العالم .

ومن المؤكد اننا نجد بعض النماذج البشرية سائدة فى فترة ما ثم نجد أنواعا أخرى تسود فى الفترة التالية . فأصحاب الرءوس الطويلة dalichocephalic الذين اخذوا فى الصعود فى عصر البرونز المبكر فى مجدو حل محلهم فى عصر البرنز الوسيط أصحاب الرؤوس العريضة brachycely الذين أخذوا فى الانتشار . وعلى كل حال فربما كانت الحالة تختلف باختلاف انحاء القطر ، ومن ثم لا يمكن التحدث دون الوقوع فى الخطأ عن نوع واحد معين على انه نموذج عام .

اما الحالة اللغوية فهى اكثر بساطة ، فمنذ ان كانت اللغة دائما دليلا اساسيا على الانتماء لحضارة قومية معينة ، فى حين أن شكل الجمجمة ولون الشعر عادة عديما الجدوى فى هذا الخصوص . والدليل على لغة عصر ما يستمد من مصادر مختلفة . وليس من الضرورى ان تكون اللغة المستعملة فعلا فى الكلام هى نفسها لغة الوثائق الرسمية المكتوبة ولذا لا يمكن أن نفترض دائما ان لغة الكلام كانت هى نفسها لغة الكتابة التى وجدت فى اى منطقة معينة او عصر معين ، فمثلا حوالى ١٤٠٠ ق . م . كانت اللغة البابلية المسمارية هى لغة الوثائق الرسمية فى فلسطين . وعلى الرغم من ذلك فمن المؤكد (انظر فيما بعد) ان الناس كانوا لا يتكلمون البابلية . وفى الاقليم النبطى فى عصر السيد المسيح كانت المخطوطات مكتوبة بالارامية الفصحى ، ولكن نظرا لان

الاسماء الشخصية والقبيلية التى وجدت بها كانت عربية ، فمن المؤكد ان الانباط كانوا يتكلمون العربية • وفى الواقع لا يكاد يوجد اية مخطوطات ارامية فى فلسطين وسوريا من القرنين الثالث والثانى قبل الميلاد (انظر فيما بعد) وان كنا نعلم من عدة أدلة صريحة ان الناس كانوا يتكلمون الارامية ، التى تغلبت عدة لهجات منها على الاغريقية عند نهاية عصر التوسع الاغريقى •

والدليل المستمد من اسماء الاماكن واسماء الاشخاص هو من الاهمية القصوى فى تحديد اللغات التى كانت مستعملة فى الكلام فى العهود المختلفة • وتحتوى فلسطين على تسلسل طبقى فى اسماء الأماكن • فكل مرحلة من المراحل التى سادت فيها لغة بعينها ممثلة فيها حتى الوقت الحاضر •• ولما كانت أسماء الاماكن شديدة البقاء ، كما اكتشف ذلك ادوارد روبنصون منذ أكثر من قرن مضى (انظر الفصل الثانى) • فمن المحتمل ان كل عصر من عصور العمران قد ترك عددا ضخما من اسماء الاماكن ، وكقاعدة ، فان أقدم الاسماء هى اسماء الانهار والجبال • وفى فلسطين كانت الاسماء التى اطلقت عليها فى أقدم الروايات التاريخية اسماء عربية سامية واضحة او محتملة — ولكنها من الانواع العتيقة التى لا يسهل دائما تفسيرها لغويا ، ومن الاسماء السامية [1] لبنان وشريان Sharyan (أو سريون ، لبنان الشرقى ، انتيليبانوس) والكرمل ، ومن المحتمل تابور وجلبوع وجلعاد • ومن الاسماء السامية أيضا الاردن واليرموك ، ويبوق وارنون ، حقيقة ان اسم تابور قد ارتبط باسم جبل اتابيريون Atabyrion فى رودس وان اسم الاردن يشابه اسم الترع المزعومة التى تسمى ياردانوس Iardanos فى الاليإذة والاوديسا ولكن الفقرات المذكورة شديدة الغموض ، والترع المزعومة لم يمكن التعرف عليها باى حال من الاحوال ، وان كان قد امكن اثبات وجود أمير أسطورى يحمل نفس الاسم • أضف الى ذلك ، ان اسم الاردن له صيغة وأصل ساميان صحيحان تماما •

---

(١) كلمة سامية مستعملة هذا للدلالة على اللغات او اللهجات العربية القديمة . (المترجم) .

واذا عدنا الى اسماء البلاد ، نجد ان جميع الاسماء التى حفظت لنا للبقاع الفلسطينية التى عمرت فى الالفين الرابعة والثالثة قبل الميلاد كانت سامية على الاقل فى الظاهر ولا يصبح من السهل التمييز بين اسماء الاماكن السامية وغير السامية المبكرة الا عندما ينتقل المرء الى شمال سوريا ثم تأتى الاسماء الكنعانية والامورية من الالف الثانية وأغلبها أسماء قبيليه قديمة من أصل سام فيما يظهــر ، والى هــذه المرحلة تنتمى مثلا الاسماء التى تنتهى ب عم (عامو) « ناس » مثال ذلك ابلعم ويوكنيعم . وكلا الالفين تشتركان فى أسماء البلاد التى سميت بأسماء الهياكل القائمة بهــا « بيت شيمس (الشمس) وبيت يرح (القمر) بيت داجون ، بيت عنات ، بيت حورون وبيت لحــم وبيت ايل » . وفى الازمنة الأسرائيلية نجد ان اسماء الاماكن قد أخذت من اسماء العشائر والعائلات ، بينما اخدت بعض اسماء الاماكن الاخرى من المميزات المحلية مثل الاشجار والينابيع ، وفى هذه الحالة الاخيرة يستحيل عادة تحديد الوقت الذى استعمل فيه الاسم لاول مرة. وبعد العبرية جاءت الارامية كلسان عام لفلسطين ، وقد استمر أهل فلسطين يتكلمون لغة السيد المسيح لاكثر من الف عام . ثم جاءت اللغة العربية فحلت محل اللغة الارامية تدريجيا ، حتى توفى اخر من كانوا يتكلمون الارامية فى شمال الجليل منذ أقل من خمسة قرون تقريبا . وفى بعض الاحيان بقى الاسم على مدى الاف السنين ، وان كانت صيغته تتغير لتناسب احتياجات اللغة الجديدة فى النطق ، والقواعد والمعنى ، مثال ذلك اسم بيت لحم فرغم ان نطقه لم يتغير لمدة ٣٥٠٠ سنة على الاقل فقد كان معناه على التعاقب « بيت الآله لاخمو فى الكنعانية » ، وبيت « الخبز » فى العبرية والارامية و « بيت لحم » فى العربية .

وكما سبق ان اوضحنا فى الفصل الثالث من ان الهيكل العظمى وشكل الجمجمة السائدان لانقى القبائل الحامية والسامية المعروفة الحالية كانا قد ظهرا فى العصر الحجرى الوسيط فى فلسطين ، اى منذ عشرة الاف سنة تقريبا . ودون الحاجة الى انكار لما كان هناك من تحركات عديدة لاقوام غير سامية عبر الاراضى الفلسطينية بين ذلك التاريخ وبين الالف الثالثة قبل الميلاد ، فالفرق الوحيد الذى يبدو معقولا هو ان العنصر السامى العربى قد بقى سائدا فى التكوين الجنسى فى فلسطين

منذ ذلك الوقت • والساميون ، كما تدل على ذلك لغتهم ، كانوا شعبة من الاصل الســامى الحامى واهــم اللغات الســامية القديمــة هى الاكادية (الاشورية البابلية) السامية الغربية ، والســـامية الجنوبية ، ويمكن تقسيم الســامية الجنوبية الى العربيــة الشماليــة والعربية الجنوبية والمعينية والسبئية والاثيوبية وعدد أخر من اللهجات القديمة والحديثة • مثل هذا التقسيم الفرعى هو لمجرد التسهيل فقط ، ولكنه يقل كثيرا من حيث دلالته الوراثية عن التقسيمات المماثلة فى اللغات الهندية ــ اوروبية التى وضعت نتيجة للابحاث اللغوية فى القرن والنصف الماضية • والالسن السامية القديمة ، عدا الاكادى كانت وثيقة الصلة بعضها ببعض فى القواعد والنطق ، بل ان كل لهجة كان يوجد بينها وبين جميع جيرانها كثير من الاصول المشتركة ، كما كان التحول من لهجة الى أخرى يحدث تدريجيا عادة بنفس السرعة التى تحدث بها التغييرات اللهجية الحالية فى فرنسا والمانيا • وعند بداية عصر آل يعقوب (او عصر الاباء) فى أوائل الالف الثانية كانت الاختلافات بين اللهجات السامية المختلفة نادرا ما تزيد عن الاختلافات الموجودة حاليا بين اللهجات العربية الرئيسة ، وحتى الاكادية كانت لا تختلف عن السامية الغربية أكثر من اختلاف المالطية عن العربيــة العراقية • ومن المؤكد ان الاختلافات بينهم فى ذلك الوقت كانت أقل كثيرا عن الاختلافات القائمة بين اللغات الرومانية الرئيسة فى الوقت الحاضر • واللغة الحامية تشمل اللغات واللهجات المصرية القديمة (١) والليبية (بربر) وفى الالسن الكوشية فى اعالى حوض النيـــل • ونظرا لكون اللغة المصرية قريبة من السامية جغرافيا وتاريخيا ، لذا فهى اقر باللغات الحامية الى السامية • وفى اقدم النقوش المصرية من بداية الالف الثالثة ، نجد لغة تختلف اختلافا بينــا عن الســامية • ويمكن لعلماء فقه اللغة المتخصصين ربط هذه اللغة مع السامية بنفس الدرجة تقريبا (لا تماما) التى يمكن بها ارجاع الحثية الى اللغات الهندية ــ أوروبية التى كانت معروفة من قبل ، ولكن لا يمكن للشخص السامى الغربى من فهم اللغة المصرية دون دراستها ولن يكون ذلك أسهل عليه من تعلم اللغة الانجليزية (٢) • وان كان تصريف الضمــائر

---

(١) فى رأى بعض العلماء ان اللغة المصرية القديمة تتبع شعبة اللغات الحامية ولكن الادلة على ذلك ضعيفة .

(٢) حرفيا : من اللغة الروسية للرجل الانجليزى . [المترجم]

والافعال وقوائم طويلة من الكلمات وعناصر أساسية فى النطق والنحو مشتركة فى اللغتين ولكن اللغتين تختلفان كل الاختلاف بل ويزداد هذا الاختلاف عند المتحدثين بها (١) .

وفى منتصف الالف الثانية قبل الميلاد فقدت كل اللغات السامية الشمالية نهاية الاسم غير المعرف التى كانت « م » . مثال ذلك : كلب طيب « كانت تكتب » كالبوم طابوم » فصارت « كالبو طابو » . وان كانت لا تزال تحتفظ بثلاثة نهايات للاسم من حيث موقعه من الاعراب (المبتدأ كلبٌ والمضاف اليه كلبٍ والمفعول به كلبً كما هو الحال فى العربية الفصحى (٢) وفقدان الميمية ربما كان أهم اختلاف بين لغة آل يعقوب (الاباء) ولغة موسى (٣) . وتثبت الدراسات الدقيقة للنصوص المكتشفة حديثا وهى من القرنين الخامس عشر والرابع عشر قبل الميلاد ان نهايات الاسم من حيث موقعه من الاعراب لا تزال توضع بعناية بواسطة الكتاب الذين دونوا الواح العمارنة ، ومؤلفى شعار أوغاريت ، والكنعانيين الذين سجل اسماءهم المصريون . وتدل الكتابات المصرية من القرنين الثالث عشر والثانى عشر على ان الكنعانيين كانوا يسقطون نهايات الاسم . وتثبت دراسة أقدم شعر عبرانى ان هذا التغيير قد بدأ يحدث اثناء القرن الثالث عشر واكتمل فى اواخر القرن الثانى عشر (انشودة دبورة) وفى نفس الوقت اخذت اللغة العبرانية للعهد القديم فى التكوين وقد استكملت عناصر تطورها فى القرن العاشر ، وقد بدأنا نتبين خطوات تطوراتها التالية بمساعدة

---

(١) التشابه بين اللغة المصرية القديمة واللغات السامية الحامية ضئيل جدا وربما ترجع اللغة المصرية الى اصول اقدم ومن الثابت ان الاقدمين قد هاجروا الى مصر ، فى عصور ما قبل التاريخ من جهات نائية متفرقة وكل من هذه الشعوب قد اتى معه بلغة ساهمت بقدر ما فى تكوين اللغة المصرية الفرعونية .

[المترجم]

(٢) الواقع ان اللغة العربية الفصحى لا تزال تحتفظ بالتنوين فى الاسم غير المعرف كلب ، كلب ، وكلبا ، أما الاسم المعرف فقد التنوين فيقال الكلب ، الكلب ، الكلب .

(المترجم)

(٣) لم تصلنا لغة عبرانية من عصر آل يعقوب أو عصر موسى نفسه ، اذ لم يكن لها وجود فى ذلك الوقت . (المترجم) .

النقوش ، والعبرانية الكلاسيكية تشترك مع الفينيقية والارامية فى فقدان نهاية الاسم وكذلك في نقل النبرة الى نهاية الكلمة • وهذه اللهجات الثلاث وكذلك بعض اللهجات الاخرى الاقل اهمية ، مثل الموابية ، طورت ضمير الاشارة « ها » الى اداة بالضبط كما فعلت اللغات الرومانية ، بالضمير اللاتينى القديم « ille » ، واللغتان العبرانية والفينيقية ضمتا الاداة لمقدمة الاسم كما فعلت الالسن الرومانية الغربية ، أما الآرامية فقد الحقته بنهاية الكلمة كما تفعل لغة رومانيا • وهذا الانحراف قد ادى بالتالى الى اختلاف اكبر فى النطق ، ففى العبرانية يقال « هميليخ » « ملك » بينما فى الارامية « ملكا » « ملك » ، ثانيا فى حين ان ترتيب الكلمات فى العبرانى يتجه الى اتباع نفس الاسلوب الموجود عند الالسن السامية الغربية الاخرى مثل العربى ، اتبع اللسان الارامى الاسلوب المستعمل فى الاشورى البابلى (التى كان قد وقع تحت تاثير اللغة السومرية السابقة لها ، وتساعد هذه الامثلة على توضيح كيف ان مثل هذا الاختلاف البسيط فى الاساس قد ادى الى انحراف ظاهرى كبير بين العبرانية والارامية المتاخرتين • اضف الى هذه الاختلافات النحوية ما حدث من ازدياد الاختلاف بين مفردات اللغتين العبرانية والارامية • وعندئذ يصبح من الميسور فهم كيف ان لغتين شقيقتين قد اختلفتا عن بعضهما اختلافا بينا فى مدة لا تقل كثيرا عن ألف عام •

وطوال العصور التاريخية اخذت اجناس مختلفة غير سامية تستقر فى فلسطين وحوالى القرن السابع عشر قبل الميلاد ، خلال عصر الهكسوس المضطرب (الفصل الخامس) اكتسحت البلاد حشود من الشمال ومن الشمال الشرقى ، وأسست فئة جديدة من النبلاء غالبيتها من عناصر غير سامية ، وقد حافظت على تقاليدها القديمة ، وحولت السكان الاصليين الى عبيد ، وبفضل الالواح المسمارية التى عثر عليها فى فلسطين (الفصل السادس) لدينا الآن عدد كبير من اسماء الاشخاص التى يرجع تاريخها الى القرنين الخامس عشر والرابع عشر • وثلثا الاسماء تقريبا غير المصرية الموجودة فيها والتى لاشخاص من مواليد فلسطين سامية ، أما الاسماء الباقية فكلها تقريبا (وهى ثلث المجموع الكلى) يمكن الآن التعرف عليها دون تردد بأنها هندية — ارية • وهؤلاء الهنود الاريون هم جزء من الهجرات العظيمة التى اتجهت جنوبا

والتى جاءت بالاقوام الهندية ــ فادية الى الجنوب الشرقى فى البنجاب ، وبطلائع الميتانيين الى الجنوب الغربى فى شمال بلاد الرافدين • وقد عثر على اكثر من مائة اسم شخص منهم على الالواح المسمارية من بلاد الرافدين ، وآسيا الصغرى وسوريا ، وفلسطين ، وكلها تؤرخ فى السنوات بين ١٦٠٠ الى ١٣٥٠ ق•م • وكما بين ب•١• دومونت Dumont حوالى ربع هذه الاسماء تقريبا ، مثل انتارودا وهو اسم أمير اكشابا فى ألواح العمارنة ، تطابق نفس الاسماء الواردة فى المخطوطات الهندية القديمة Vedas وغيرها من أدب السانسكرت المبكر او تطابق القاب سانسكرتية أصلية ، وتتكون بقية الاسماء من كلمات سانسكرتية مشهورة ، طبقا لقواعد ثابتة فى تكوين الاسماء •

وتمدنا الاسماءبالادلة على ان بعض الالهة الهندية امثال اندرا (اله العاصفة) ويامين ، وسوريا Surya اله الشمس عبدت يوما ما فى فلسطين لفترة قصيرة • وقد اثبتت الادلة التى سبق العثور عليها فى بوغاز كوى عاصمة الحثيين ان هؤلاء الهنود الاريين قد قدسوا أيضا المعبودات السانسكرتية المشهورة وهى مترا (مثرا) وفارونا ، والزوج اشون • ويبدو أنه كان اراؤنا Arauna اليبوسى الذى قيل ان داود اشترى منه موقع الهيكل له نفس الاسم مثل أراوانا أو أريوانا ، أمير داماسين فى أوائل القرن الرابع عشر قبل الميلاد •

ولا يظهر من الاسماء الخورية الا بضعة اسماء على الالواح المسمارية من عصر البرونز المتأخر فى فلسطين ، ورغم ما يبدو من أن الكتلة الرئيسية من الهجرة الخورية قد توقفت فى اواسط سورية ، فيمكن ان يعزى عدم وجود اسماء خورية اكثر من ذلك فى فلسطين الى ان الواح العمارنة نادرا ما تذكر اسما لشخص ما الا اذا كان من رؤساء العشائر • ورؤساء العشائر الخوريون جميعهم تقريبا من الهنود الاريين • ولم يكن الخوريون معروفين البتة لدى العلماء حتى عام ١٨٨٩ حين نشر لوح كبير من العمارنة يحتوى على رسالة كان توشراتا ، ملك ميتانى قد كتبها بالخورية • وفى سنة ١٩١٥ كشف الاسم « خورى » على لوح فى بوغاز كوى ، ومنذ ١٩٢٠ حدث تقدم سريع فى استعادة وثائق خورية

جديدة من أنحاء مختلفة من العالم القديم . وفى سنة ١٩٤١ نشر أ.
سبايزر E.A. Speisser نحوا للغة الخورية وضع الموضوع على
أسس علمية سليمة . واللغة الخورية هى لسان لسقى معقد
agglutinative (أى تكوين كلمة مركبة من بضع كلمات بسيطة
رصت الى جانب بعضها) وهى اقرب شبها الى اللغتين السومرية
والتركية منها الى السامية أو الهندية — أوربية ، ولكنها لا تنتمى الى
اى منها . ويبدو أن الخوريين كانوا اقواما جبلية ذوى رؤوس
عريضة ، هاجروا الى سهول شمال بلاد الرافدين فى الثلث الاخير من
الالف الثالثة ، ولكنهم لم يفقدوا البتة اصلهم بموطنهم الجبلى . وقد
اتضح الان انهم كانوا أحدى سبل الاتصال الهامة بين الحضارة السومرية
— الاكدية فى بلاد الرافدين وبين الغرب . ولاكثر من الف
سنة (٢٣٠٠ — ١٢٠٠) قبل الميلاد قامت تلك الاقوام بدور رئيسى
فى جنوب غربى اسيا ، ثم اخذوا فى الاختفاء تدريجيا . وفى التوراة
العبرانية يظهر الخوريون فى ادوم ، ولكن فى التوراة اليونانية هم
أيضا الفئة الجنسية الغالبة فى شكيم وجبعون (وقد حرف الاسم
الى Hivite فى التوراة العبرانية نظرا لشدة التشابه بين r و w فى
الخط العبرى المربع . ونعرف ان علاقة تكافلية قد وجدت بين الخوريين
والهنود — الاريين ، كان الخوريون فيها فى رتبة أدنى على حين كان
الهنود — الاريون هم سادتهم وذلك كلما وجدنا ما يكفى من الوثائق
للحكم . ولما كانت الكتابات الحثية لا تميز من الناحية الجنسية بين
عنصرى المملكة الخورية ، فيمكننا ان نفترض بأمان بان الاسرائيليين لم
يفعلوا ذلك ايضا .. وبعبارة اخرى فان الاصطلاح «خورى» المستعمل
فى التوراة اليونانية كان يطلق على كل من النبلاء الخوريين وعلى
رؤسائهم الهنود — الاريين . ومن الجدير بالملاحظة ان عبد — خيبة
امير اورشليم فى عصر العمارنة ، كان يحمل اسما مكونا من اسم الالهة
الخورية الرئيسية خيبة .

وفى اوائل القرن الثانى عشر (الفصل السادس) استقرت اقوام
جديدة من جزر وسواحل شمال البحر الابيض المتوسط على ساحل
فلسطين ، ونعرف عن الفلسطينيين اكثر مما نعرف عن غيرهم من شعوب
البحار ، كما يسميهم المصريون . ولا يعرف شىء أكيد عن لغتهم
وحضارتهم الاصلية الا القليل ، حتى انه من العبث حاليا التكهن عن

احداهما • ولمـــا يعرف أى أثر عن الخط أو اللغة الفلسطينية ، اللهم الا بعض أسماء شخصية كتبت فى المصرية والعبرانية والمسمارية • والدليل الـــذى قدمـــه ج• بـــــرارد J. Berard وجورجيف V. Georgiev فى سنة ١٩٥٠ــ١٩٥١ على ان الاســـم « فلسطين » Philistine هو نفســــــه « فلاسجيـــان » Pelasgian يؤيد دليـــل الفخار على انهم جاءوا من البحر الايجى • وفك رموز الكتابة الميسينية (١) الخطوطية فى عـــام ١٩٥٣ التى ظهرت عـــلى حوالى ٢٥٠٠ لـــوح وجـــدت فى كنوسوس بكريت وفى بايلوس Pylus وميسينا باليونان يجب أن يمدنا بدليل قاطع جديد عن المشكلة الفلسطينية • ونظرا للكشف عن اجزاء الواح مكتوبة بالكارية Carian والقبرصية فلا يستبعد العثور على الواح فلسطينية فى اسفل طبقات مدنهم •

وعندما نعود الى موضوع الخطوط ، تمدنا فلسطين بمجموعة متنوعة تذهلنا مثلما تذهلنا ندرة الاشياء المكتوبة عامة • ومن المحتمل حاليا ، فيما يبدو ، ان ثمة محاولات للكتابة التصويرية فى فلسطين وسورية كانت قد حدثت قبل نهاية الالف الرابعة ، وهى لا تتاخر كثيرا عن بداية الكتابة التصويرية فى مصر وبلاد الرافدين • وقد صار هذا محتملا بعدما كشف دوناند عن حوالى ثلاثين طبعة لاختام على ايدى الاوانى الفخارية فى جبـــانة من اواخـــر عصر بداية اســـتعمال المعـــادن فى بيبلوس (جبيل) ، ولا يجب خلط هـــذه مع نفس العـــدد من طبقـــات الاختام المستديرة المتاخرة الموجودة على الفخار التى سبق ذكرها فى الفصل الرابع • وتحتوى بعض الطبقات على حوالى اثنى عشر رمزا أو اكثر من الكتابة التصويرية مرتبة طبقا لنظام ثابت • وهى تذكر المرء فى الظاهر بالكتابة التصويرية المايوية Mayan ، والمستقبل وحده هو الذى يستطيع ان يخبرنا عما اذا كان هذا نوعا من الخط ام لا •

وفى الجزء الاخير من الالف الثالث يظهر لدينا خط جديد (أو خطوط) يتـــكون من رموز ذات مقاطع هجـــائية فى ســـورية وفلســـطين • وفى بيبلوس عثر دوناند على حوالى اثنى عشر نقشا مكتوبة بخط مكون من مقاطع هجائية •• لم يكن معروفا من قبل وقد أطلق عليه « شبيه الهيروغليفية » وهى تظهر على أجزاء من ألواح حجرية ، وعلى ألواح

(١) او الميكنية •

وسكاكين برونزية ٠٠ الخ ٠ وقد ظهر أحد هذه النقوش على قاعدة تمثال مصرى ، يؤرخ جوالى القرن الثانى عشر قبل الميلاد ٠ ولما كانت معظم هذه الوثائق قد وجدت فى رديم مختلط أو أعيد استعماله فى حيطان متأخرة فان تاريخها ليس مؤكدا ، ويبدو أنها تمتد ، من حوالى القرن الثامن عشر الى حوالى الخامس عشر قبل الميلاد ٠ ولكن الاكتشافات المقبلة قد تدعو الى تعديل هذه التواريخ ٠ ومما لا ريب فيه أن الخط قد تأثر الى حد ما فى شكله بالخط الهيروغليفى المصرى ، بينما توحى رموزه ذات المقاطع الهجائية بأنه قد تأثر بالخط المسمارى ، وقد أمكن حتى الان تمييز حوالى ١١٤ رمزا مختلفا ، ويمكن للمرء أن يقدر بامان العدد الاصلى للرموز بأنها كانت تتراوح بين ١٢٥ و١٥٠ — وهو رقم مناسب جدا للتكوينات المختلفة وهى بين ثمانية وعشرين الى ٣٠ من الحروف الساكنة الكنعانية المبكرة وثلاث حروف علة (أ ، ى ، و) توضع قبل كل حرف ساكن وبعده : مثال ذلك : با ، بى ، بو ، أ ب ، يب ، وب » وبما أن بعض هذه التكوينات ، فيما يحتمل ، لم تستعمل على الاطلاق ، فلن نكون مخطئين اذا قدرنا أن عدد الرموز الحقيقى كان أقل كثيرا من المجموع الكلى المحتمل ٠ وقد نشر العالم اللغوى الفرنسى الممتاز ادوارد دورم E. Dhorme ترجمة لهذه النصوص (١٩٤٧) ، ولكن نظرا لان جهوده لم تؤدى الى نتائج قاطعة فمن الافضل أن نمتنع عن اصدار حكما الى حين استكمال دراسة الموضوع ٠

ومن المحتمل أن وثيقة واحدة مكتوبة بهذا الخط قد عرفت أيضا من فلسطين ٠ والجزء العلوى من لوحة ستيلا البالوعة التى كشف عنها فى موآب (١٩٣٠) يبين عددا من هذه الخصائص ، رغم أن العوامل الجوية قد أثرت عليها لدرجة شديدة تدعو الى الحذر فى موضوع التعرف على الخط ٠ وثمة أسباب قوية تجعلنا نعتبر المنظر المحفور الذى يشغل الان معظم اللوح متأخرا كثيرا عن الكتابة المنقوشة فى أعلى اللوح ، التى حفرت فى أسلوب يختلف اختلافا تاما ، كما تآكلت بفعل عوامل التعرية بدرجة أكبر من المنظر السفلى ٠ كما يجب أن نضم الى البراهين التى أقنعت معظم العلماء الذين فحصوا الحجر فيما بعد ، الشكل العتيق للوح ، الذى لا يوجد ما يماثله من الالف الثانى أو ما بعده ، ولكن يوجد له أشباه قوية فى لوح النصر لنرام سن من حوالى ٢٢٠٠ ق ٠ م٠ وكذلك فى لوح قديم جدا من قلعة الروم فى شمال

سوريا • وقــد أرخ برزيفورســكى Przeworski هذا اللوح الاخير تأريخا صــحيحا من الالف الثالث ق • م • حسب مثيــلاته فى بلاد الرافدين • وقد أثبتت أعمال التنقيب أن البالوعة نفسها وغيرها من الاماكن كانت عامرة فى القرون الاخيرة من الالف الثالث حتى بداية الالف الثانى (أنظر الفصلين الرابع والخامس) •

وهناك خطان آخران من المعروف انهما نشآ فى فلسطين وســورية: وهما أبجدية أوغاريت (١) المسمــارية (رأس شــمرا) والابجــدية الفينيقية الخطوطية (أى المكونة من خطوط مستقيمة) ولم يكن يعرف شىء عن أبجدية أوغاريت حتى ١٩٢٩ عندما كشف س • ف • أ • شيفر Shaeffer عن الالواح الاولى وأشياء غيرها كتبت برمــوز تشــبه المسمار ، فى رأس شمرا والميناء البيضاء على الساحل الشمالى لســورية • ومنــذ ذلك الوقت عثر على مئات من الالواح التى تحمل كتابات بهذا الخط فى اوغاريت • أما فى فلسطين فقد عثر حتى الان على نقشين قصيرين بهذه الرموز أحدهما مدون حول حافة لوح طينى طويل وغير عريض من عصر البرونز المتأخر فى بيت شمس ، حوالى القرن الرابع عشر ، ق • م • والنقش الثانى على يد سكين من النحاس بالقرب من جبــل تابور يرجع تاريخــه الى نفس العصر أو بعــده بوقت قصير • ومما يدعو للدهشــة حقا أن كلا المثلين الفلسطينيين قد كتبا بنوع من الخط يختلف اختلافا بسيطا فى الشكل عن الخــط الاوغاريتى العادى •• أضف الى ذلك أن أحد ألواح اوغاريت قد كتبت بالنوع الفلسطينى من الخط ويشبه المثلين الفلسطينيين فى أنه يجرى من اليمين الى الشمال بدلا من الشمال الى اليمين كما هو الحال فى جميع النقوش الاوغاريتية العادية • ولهذا لا يوجد أدنى شك فى أن هذا الخط كان واسع الانتشار فى المكان والزمان • وتنتمى جميع النصوص المؤرخة فى أوغاريت الى الثلث الاول من القرن الرابع عشر ق •م•ولكن لابد أن الخط كان أقدم من ذلك حيث قد سبق تعديله تعديلا طفيفــا ليلائم الكتابة الخورية •

وليس هناك أدنى شك فى أن مخترع هذا الخط كان يعرف شيئا عن

---

(١) أوجاريت .

الخط المسمارى الاكدى نظرا لانه نقل استعمال اللوح والقلم عن بلاد الرافدين ، والكتابة من الشمال الى اليمين طبقا للاسلوب الاكدى الشائع كما كان على علم أيضا بالابجدية المصرية أو بأبجدية سامية ذات الحروف الساكنة المعتمدة على قواعد مصرية ، نظرا لان كل الحروف ساكنة باستثناء ثلاثة حروف ، فبدلا من وضع رمز واحد لما يعرف باسم الهمزة المحققة ذات النغمة الثلاثية (وهى الالف السامية الموجودة فى الانجليزية فى مثل هذه العبارات مثل : «her ['] aunt» فقد اخترع ثلاثة رموز ، رمز لكل من الصوت اللين أ ، ى ، و ، مع الهمزة المحققة • وقد كان يظن أن مخترع الابجدية المسمارية قد قلد رموز الحروف القديمة فى السامية الغربية أو مجموعة منتقاة من الرموز المسمارية ولكن كلماعملمن مقارنات حتى الآن غير محتمل أصلا • ولكن أفضل الاحتمالات أن المخترع قد انتقى كل مايمكن من سلسلة الرموز البسيطة للمسامير الافقية والرأسية والمائلة وكون منها مجموعات ، أعطى لها قيما صوتية حسب ما ارتأى • فمثلا ، المسمار الافقى يعبر عن (ت) ، مسماران أفقيان على خط واحد ينطقان (أ) ، ثلاث مسامير على خط واحد تكون (ن) • وبالمثل مسمار رأسى يعبر عن (ج) ، ومسماران رأسيان على خط واحد ينطقان (ز) وثلاثة على خط واحد (خ) ومسماران متوازيان فى وضع أفقى ينطقان (ف) (بP) وثلاثة تكون ب ، ومسماران فى وضع رأسى ينطقان (ش) (تس) ، وثلاثة تكون « ل » • وهذا يظهر كاختراع بارع ، وليس مجرد نقل أو تقليد •

والخط الفلسطينى الثانى الذى اخترع فى هذا العصر العام هو الابجدية الخطوطية (أى التى تتكون من خطوط مستقيمة) التى انحدرت عنها الخطوط العبرانية والسريانية والعربية ، والامهرية ، وغيرها من الخطوط الشرقية ، الى جانب الاغريقية واللاتينية وجميع الخطوط الاوربية المأخوذة عنها • وتاريخ أقدم النماذج من هذا الخط كان يرفع تدريجيا • ففى ١٨٦٨ دفع الكشف عن حجر ميشع التاريخ الى الوراء حتى منتصف القرن التاسع ، والاكتشافات التالية نقلت تاريخ أقدم النقوش المكتوبة فى صورة قديمة (أرثوذكسية) لنفس الخط ، وواضحة كلها ، الى حوالى ١٠٠٠ ق•م• أو أقدم من ذلك بقليل

تابوت احيرام ، كشف عنه مونتيـــه فى ١٩٢٣) • ثم فى ١٩٠٦ أعلن بترى عن اكتشافه لعدة نقوش فى سيناء كتبت بخط لم يكن معروفا من قبل ، وهو يشبه الى حد ما الهيروغليفية المصرية ، ولكن لا يشتمل الا على عدد قليل من الرموز المختلفة • ولهذا لا يمكن الا أن يكون أبجديا • وبعد عشر سنوات من ذلك التاريخ أعلن عالم الاثار المصرية الان جاردنر أنه قد حل جزئيا رموز هذه النصوص التى كتبت ، حسبما يعتقد ، بخط يبدو أنه هو مصدر أبجديتنا • وكان حل الرموز يعتمد على مجموعة غاية فى البراعة والحسن ، مكونة من أربعة أو خمسة رموز كررت كمجموعة عـــدة مرات فى هـــذه النقوش (عصا الراعى) بيت ، عين ، عقافة ، وصليب ، وقـــرأ كلا منها على أنه رمـــز عبرانى ، اسمه يدل على المعنى المرادف له ، أو بمعنى آخر ، قبل الاقتراح الذى سبق أن عرض منذ سنوات طويلة وهو أن الحروف العبرية قد تطورت من صـــور بسيطة لاشياء يمثل حرف الســـاكن الاول فى كـــل منهـــا القيمة الصوتية لنفس صورته ، ويطلق على هـــذه الطريقـــة اسم القـــاعدة الاكروفنية acrophonic وهى شائعة فى الكتب الابتدائية للاطفال (ق) : قط ، و (ك) كلب • الخ) وهذه المجموعة المكونة من خمسة رموز قرئت طبقا لهذه القاعدة ، « لبعلة » • وهذه القراءة تبدو مناســبة لسببين فمن المعـــروف أن الســـاميين المستوطنين كانوا يعبدون آلهـــة يسميها المصريون حتحور وهو اسم كانوا يطلقونه أيضـــا على بعـــلة جبيل • وكان الاكتشاف الباهر لسير الان جاردنر هو الاساس الذى سارت على هداه كل الجهود المتأخرة الناجحة لحل هذه الرمـــوز • والمجموع الكلى لنقوش سيناء الاصليـــة ، وأغلبـــها قصير جـــدا ، قد ارتفع الان الى حوالى ٢٥ بمعـــرفة البعثـــات التاليـــة الى سرابة الخادم فى سيناء (منها ثلاثة نشرتها جامعة هارفارد) • ونظـــرا للاخطاء التى ارتكبت فى تاريخ وتفسير الهدف من هذه النقوش لذا لم يحدث الا تقدم طفيف حتى عام ١٩٤٨ عندما اكتشفت بعثة جامعة كاليفورنيا بعض المفاتيح التى تساعد على الحلول الناجحة • فقد ثبت أن تاريخ النقوش يرجع الى ١٥٠٠ ق • م • وأنها كتبت بلهجـــة كنعانية سليمة • وبهذه المناسبة فان نتائج سير الان جاردنر كانت فى حد ذاتها صحيحة لدرجة مدهشة •

ومنذ سنة ١٩٣٠ كشف على الاقل عن ثلاثة نقوش قصيرة (كل منها يتكون من بضع حروف) من عصر البرونز الوسيط فى فلسطين • ومن

محاسن الصدف أن تاريخا لكل من الثلاث نقوش (جازر ، وشكيم ، ولخيش) من المؤكد أنه يقع بين سنة ١٨٠٠ ، ١٥٠٠ قبل الميلاد ، وتكون جميعا ١٤ حرفا منها نص واحد فقط بالتأكيد كامل ، ولذلك لا يمكن أن يتم حل رموزها الا بعد العثور على مادة أخرى • ومن التسع أو عشر رموز ، ثلاثة منهـا يد ، رأس ، وبيت ، بالتأكيد نفس رمـوز أبجدية سيناء الاصلية • كما يتشابه عدد آخر من الحروف تشابها قويا • بالاضافة الى ذلك يتفق الخطان فى كتـابتهمـا الرئيسـية ، كقاعدة • ورموز بعض الحروف فى أقدم الكتابات من فلسطين من الواضح أنها أقدم من رموز نقوش سيناء التى بدورها أقدم كثيرا من نقوش القرن الثالث عشر فى فلسطين •

وعندما نصل الى القرنين الثالث عشر والثانى عشر ، يتحسن مركزنا كثيرا • فقد أمدتنا لخيش على الاقل بنصين مكتوبين بحروف أبجدية يمكن قراءتهما جزئيـا ، على وثائق من نفس العصر تقريبا فى بيـت شمس وغيرها من المدن • كما عثر فى جبيل على جذاذة واحدة من الحجر حلها جريم Grimme بمهارة • وخط هذه النقوش يقف بالضبط حيث يجب أن ننتظره اذا كان حقا حلقة وسطى بين أبجدية سيناء الاصلية والابجدية الفينيقية المتأخرة • وطوال عشرين عاما أرخ علماء عديدون بعض نقوش جبيل المبكرة ، من مجموعة احيرام حوالى القرن الثالث عشر ، بسبب العثور على جذاذتين عليهما جزء من اسم رمسيس الثانى وألقابه (حوالى ١٣٠١ ــ ١٢٣٤ ق • م•) فى الرديم الذى كان يملأ مقبرة احيرام ومدخل بئرها • وعلى العموم كان ذلك أعلى تاريخ نهـائى terminus a quo يمكـن وضـعه للمقبـرة ، ولكن تاريخهـا الحقيقى يمكن أن يكون أقل من ذلك كثيرا • ولكن اكتشاف نقوش عديدة أخرى بنفس الخط ، محفورة على تمـاثيل الفراعنـة البوبسطيين شيشنق وأوسركون الاول (أواخر القرن العاشر) أدى بعدد متزايد من العلماء الى تأريخ كل الوثائق المكتوبة بهذا النوع الخاص من الخط الفينيقى بين ١٠٥٠ و٩٠٠ق• م• (شكل ٢٨ ــ ٢٩)• وقد اكتشفت دونانـد Dunand حديثا أن جذاذات رديم مقبرة احيرام لا يمكن أن تسبق بداية القرن العاشر ، وبذلك اضطررنا أن نخفض تاريخ المقبرة الى حوالى ١٠٠٠ ق • م • ، أو حتى بعد ذلك بقليل • وبذلك أصبح لدينا فجوة بين نقوش لخيش والنقوش الاخرى

شكل ٢٨ — قائمة بالخطوط الفينيقية والعبرية

SINAITIC SCRIPT	DESCRIPTION OF SIGN	CANAANITE SCRIPT OF 13th CENT. B.C	CANAANITE SCRIPT OF c. 1000 B.C.	SOUTH ARAB SCRIPT OF IRON AGE	MODERN HEBREW SCRIPT	PHONETIC VALUE
	OX-HEAD				א	ʾ
	HOUSE				ב	b
?					ג	g
	FISH				ד	d
	MAN PRAYING				ה	h
?					ו	w
?					ז	z
	?		"		ד	ḏ
	FENCE?				ח	ḥ
	DOUBLE LOOP		"		ח	ḫ
?					ט	ṭ
?					י	y
	PALM OF HAND				כ	k
	"OX-GOAD"				ל	l
	WATER				מ	m
	SERPENT				נ	n
?					ס	s
	EYE				ע	ʿ
?			"		ע	ġ
	THROW STICK				פ	p
?					צ	ṣ
	BLOSSOM		"		צ	ḍ ẓ
	?				ק	q
	HUMAN HEAD				ר	r
	BOW				ש	ṯ ś
	?		"		ש	š
	MARK OF CROSS				ת	t

شكل ٢٩ ـــ قائمة بخط سيناء والخطوط الكنعانية والعربية الجنوبية

التى تسبق ١٢٢٠ ق • م • وبين نقوش جبيل من القرن العاشر ، وقد ملئت هذه الفجوة جزئيا بثلاث رؤوس سهام من القرن الثانى عشر من الخضر بالقرب من بيت لحم ، نشرها فى ١٩٥٤ ت • مليليك وف • م كروس وكذلك نشرات مختلفة •

وفى الاعوام الماضية أدى اكتشاف عـدد من النقوش الجـديدة فى فلسطين وسورية ، بالاضافة الى تصحيح بعض التواريخ الخاطئـة

القديمة الى تثبيت الثبت التأريخى للخطوط بدرجة كبيرة • فكما أن خبراء الخطوط يمكنهم تأريخ وثيقة انجليزية فى حدود أجيال قليلة حسب مميزات الخط ، فان علماء الخطوط القديمة وأوراق البردى يمكنهم تأريخ نصوص العصور الوسطى أو أوراق البردى اليونانى داخل حدود ضيقة بواسطة التحليل الدقيق لاشكال الحروف والخـــواص الهجائية ، الخ • وكذلك فعلماء الخطوط الذين تخصصوا فى الخطوط العبرانية والفينيقية يتعلمون تأريخ مادتهم بواسطة استعمال وســائل مماثلة • بالطبع ، لابد أن يعمل الخبير حسابا للاختــلافات المحليــة وأنواع الخطوط المختلفة ــ المحفورة على الحجر أو المكتوبة بريشة بالحبر ، ولكن الاسس تبقى واحدة •

ومن أهم القضايا التى اقتربت كثيرا من الحل بسبب التحسن المستمر فى الثبت التأريخى للكتابة ، بعد أن ظلت موضع جدال فترة طويلة هو التاريخ الذى استعار فيه الاغريق أبجديتهم عن الفينيقية • وهـــذا الادعاء بأنهم قد استعاروا فعلا أبجديتهم عن الفينيقية كان مثار نزاع ، وان كان الان قد أصبح مؤكدا • فالامر لا يقتصر فقط على أن الحروف الاغريقية ليس لها أى تاريخ سابق ، بل الحــروف الفينيقية التى أخــذت عنهــا الحــروف الاغريقيــة ، لهــا تاريخ قــديم طويل يسبق بقرون عديدة أقدم تاريخ محتمل لهذه الاستعارة • وقد دفع اكتشاف تابوت احــيرام العالم الفرنسى الممتــاز ، رينى دوســود Ri Dussaud الذى كان من أشد المتحمسين للنظرية الايجية فى كونها أصل الابجدية الفينيقية الى أن يغير موقفه تماما • أضف الى ذلك ، أن اسماء الحروف الاغريقية ، التى ليس لها معنى باللغة الاغريقية نفسها مأخوذة كلها تقريبا عن اسماء سامية ذات معنى ، بل أهم من ذلك أن الحروف تتبع نفس الترتيب • ومما يثبت أيضا قدم اسماء الحروف هذه أن كثيرا من الحروف الاثيوبية تحمل نفس الاسماء ، وان كان الترتيب يختلف ، ولابد أن الابجديات الاصل قد اختلفت بعضها عن بعض قبل القرن الثالث عشر قبل الميلاد على أكثر تقدير •

وأهم زعماء الجدل حول التاريخ الذى نقل فيه الاغريق الابجدية همــا : برتهولد أولمـــان B. Ullman وريس كاربنتر R. Carpenter فقــد قام الاول بمقــارنة حروف مفــردة باحثا عن أمثلــة لها حيثما يجد ، وقد أرخ استعارة الاغريق للابجدية الفينيقية فى وقت ما حوالى

القرن الثانى عشر ق • م • أو حتى قبل ذلك • أما الثانى فقد صمم على مقارنة الابجديات كاملة (أى أن يأخذ أشكال الحروف التى فى النقش بأكمله وبذلك يضمن تاريخا واحـدا لكل حرف فيـها عن أن يفحص حروفا مبعثرة • وقد قرر تاريخا قبيل نهاية القرن الثامن قبل الميلاد باعتباره أفضل الاحتمالات • وتاريخ أولمان قد صار فى الواقع مستحيلا لان الاشكال العتيقة لبعض الحروف مثل « م » و « ك » التى لا يمكن أن تكون الاصل الاول للاشكال الاغريقية ، قد بقيت فى جميع النقوش التى كشفت حتى الان فى الابجدية السامية حتى القرن التاسع قبل الميلاد ، وخلال هذا القرن حلت محلها أشكال متأخرة فى فلسطين وأيضا فى سورية وفينيقية • وبناء على ذلك فالابجدية الاغـريقيـة لا يمكن أن تكون قد أدخلت قبل القرن التاسع • وهذه النتيجة تتفق مع الدليل السلبى من المصادر الاغريقية ، اذ لم يعثر على أى نقش اغريقى يسبق القرن الثامن قبل الميلاد ، بالرغم من كل حفائر القرن الماضى • أما ريس كاربنتر فيفرض حجته بتخفيض ، حسبما يرى ، تاريخ أولى النقوش الاغريقية الى القرن السابع ، ويصر كاربنتر أن آخر أشكال الفخار الذى على شكل الصرح المزدوج وآخر أشكال الفخار الهندسى يجب أن تؤرخ من هذا القرن ، بالاضافة الى أنه يصمم أن الاغريق قد نقلوا خطهم عن أصـل فينيقى مكتوب على الحجر ، وليس عن كتابة بالحبر ، أى من كتابة يدوية جاسئة (بالحروف المفردة) من النوع الشائع استعماله عند التجار لتدوين مبادلاتهم التجارية على شقفة أو كسرة حجـر • وكمـا هـو معـروف فـان النقش على الحجـر اكثر تقيدا وأشد تحفـظا على التقاليد القـديمة من كتـابة الحبر المختصرة وان كان غير سلسلة للاستعمال اليومى • وفى رأى المؤلف الذى ظل يتمسك به منذ أمد بعيد ، والذى يعتمد على مقارنة الابجديات التى وجدت فى نقوش واحدة وليست مبعثرة فى صور شتى ، فان الابجدية الاغريقية قد نقلت عن الفينيقيين أما فى أواخر القرن التاسع ق • م • بل ربما الافضل أوائل القرن الثامن قبل الميلاد •

عندما ننتقل من أساليب الكتابة الى محتويات السجلات المكتوبة ندخل فى دائرة فقه اللغة ، ودراسة الوثائق المكتوبة والمؤلفات الادبية • وهذا الحقل من البحث قد تطور الى درجة كبيرة من الكمال بفضل علماء اليونانية واللاتينية فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ميلاديا ، وقد أستنهج علماء السامية سبيلهم بدقة عند دراستهم للغات السـامية

المعروفة كالعربية ، والارامية ، والعبرية والاثيوبية • ومنذ قرن مضى ، عندما كان علم الآثار فى الشرق الاوسط والادنى لا يزال فى مهده كان يوجد بالفعل معاجم وكتب نحو جيدة لتلك اللغات • وقد حدث تقدم كبير نحو الهدف لوضع دراسة الاداب السامية على نفس المستوى من الدقة والمنهاج القويم الذى بلغه علم فقه اللغات الكلاسيكية (اذا قبلنا تلك الاوهام مثل التصحيحات الخاطئة للفقرات الغامضة) وكما أن لغات النقوش التى كشفت حديثا ، والتى اندثر عدد كبير منها نهائيا ، قد فكت رموزها ، بدأ علماء فقه اللغة — وغالبيتهم من الالمان — يستعملون تلك المناهج التى وصل بها علماء الدراسات الكلاسيكية الى درجة الكمال لاستنتاج قواعد ومعاجم للالسن الجديدة : المصرى والاكادى ، والسومرى ، والحثى ، والفينيقى والعربى الجنوبى ، والعيلامى ، والخورى • واليوم قد أمكن العلماء الاكفاء من فهم اللغات التى توفرت لها أكثر الوثائق مثل المصرية ، والاكادية ، والسومرية ، وتتبع تفسيراتهم مناهج تشبه تلك التى اتبعها علماء اللغتين الاغريقية واللاتينية ، ولا تختلف الحثية كثيرا ، أما الخورية فيرجع سبب تخلفها لعدم وجود نصوص كافية ، والفينيقية والاوغاريتية فتكادان تكونان مفهومتين فهما تاما كعبرية التوراة القديمة •

ومعظم النقوش تدور حول مبادلات تجارية أو وثائق رسمية ذات طبيعة دينية أو سياسية • ولدينا أدب دينى مصرى وسومرى ، أكادى ورسائل أدبية ، وقد بقى ما يكفى لاثبات أنه كان يوجد يوما ما لكل من الحثية والخورية أدب كثير ، مدون بأدق معنى الكلمة • وقد ظل الامل مفقودا مدة طويلة فى العثور على أى شىء من الادب الكنعانى الذى ضاع منذ أمد بعيد والذى كان يوما ما مزدهرا فى فلسطين وفينيقية ثم حدثت المفاجأة المدهشة — وان كانت سارة — عندما اكتشف س• ف• أ شيفر ألواحا من الصلصال فى أوغاريت تحتوى على مقتطفات لا حصر لها من الادب الاسطورى والدينى الكنعانى منذ بداية القرن الرابع عشر قبل الميلاد وقد قام شارلز فيرولود C. Virolleaud بنشر أجزاء من أربعة ملاحم على الاقل التى عكف على دراستها عشرات من علماء السامية شيوخا وشبانا ، وثلاثة من هذه الملاحم التى تدور حول أفعال الاله العاصفة بعل وأخته عنات ، وحول مآثر ومآسى الملك كرت وحول موت بن دنيال أكحات (أقهات) وبعثه ، لابد أنها كانت طويلة جدا ، ولدينا عدد من الالواح عن كل منها • ولقد ظل

بعض العلماء يعتقدون لسنوات عديدة أن هذه الملاحم قد نشأت فى جنوب فلسطين غير أنه قد صرف النظر عن هذا الرأى الآن • ويدل ما بها من اشارات على أنها نشأت فى فينيقية الاصلية ، فى منطقة صور ، وصيدا ، وجبيل بالاضافة الى لبنان وسـيريون (لبنان الشرقى فى الخلف) • ومعبودات هذه الملاحم هى الالهة الكنعانية فى فلسطين وفينيقية ، والنقوش الفينيقية المتأخرة ، رغم كونها رسمية ، تحتوى على آثار أدبية عديدة من الادب الاوغاريتى • أضف الى ذلك ، اننـا نعرف الان أن الشعر فى التوراة العبرية ، وخاصة الجزء الاقدم منه ، مكتظ بالاشارات الى الشعر الكنعانى الذى تدل عليه الملاحم الاوغاريتية فهى مجرد نماذج له • وكما سنرى فى الفصل العاشر ، فان اكتشاف الادب الاوغاريتى قد أجبر العلماء على تغيير بعض نظرياتهم بالنسبة لتاريخ أدب التوراة العبرية تغييرا شـاملا • وفى نفس الوقت ، فهـو يوضح كثيرا من معـانى الكلمات والفقرات الغامضة فى شعر العهـد القـديم • وحتى الآن ، لم يعثـر على أية ألواح أدبية كنعـانية فى فلسطين ، وان كان لدينا نقشان صغيران بالخط المسمارى الابجـدى الخاص بالملاحم ، وفى أى لحظة — على كل حال قد يتبدد هذا السكون فجأة مثلما حدث فى أوغاريت • ولما كانت فلسطين عادة جزءا فقيرا من كنعان ومتخلفا فى حضارته عنها ، فليس لدينا أى ضمان ان مثل هذا الكشف سيتحقق • كما أنه من المحتمل أن النصوص الادبية لم يتم نسخها على لوحات مسمارية الا فى أوغاريت فقط فى أوائل القرن الرابع عشر ق • م • ولما كان هذا يبدو مستبعدا فلا زلنا نأمل فى العثور على أشياء جديدة من نفس النوع •

ونظرا لصغر حجم الكتاب فسنقتصر فى حديثنـا على مثـل واحـد من نوع الضوء الذى ألقاه علم الآثار على الآداب القـديمة وان كـان الامر سيحتاج الى بعض الشرح التفصيلى • ففى ١٨٩٧ كان اكتشاف جرنفل Grenfell وهونت Hunt فى البهنسا فى الفيوم لكمية من أوراق البردى اليونانية ، ومنها عدد من النصوص الادبية ، مما ركز اهتمام العلماء على موضوع لغة العهد الجديد • وخلال النصف قرن الماضية كان علماء البردى يعملون بجد ونشاط كبيرين ، وثبت أن عددا كبيرا من الكلمات والاستعمالات النحوية التى كانت غامضة حتى ذلك الحين فى العهد الجديد ، كانت عامية (كوينى Koine) جيدة جدا ، وكوينى هى اللغة اليونانية التى استعملها الرجل العامى فى جميع أنحاء

العالم القديم حيث كانت الاغريقية لغة الكلام آنذاك ، وفى البداءة دفع الحماس علماء من أمثال أودلف ديسمان Deissmann الذى صار زعيما لهذا الفرع الجديد من البحث ، الى قمة النصر ، وقد أصبح من المعتقدات الشائعة أن يونانية العهد الجديد هى اللغة الدارجة العادية للقرن الاول الميلادى وان الاختلافات القوية بينها وبين اللغة اليونانية التى استعملها مؤلفون من أمثال ديودور وبلوتارخ أو فيلو ويوسيفوس، كان سببها ببساطة أن كتاب العهد الجديد كانوا أميين • ولكن هذا غير صحيح البتة فقد بقى اختلاف كبير قائم بين يونانية العهد الجديد ولغة الخطابات والوثائق التجارية للاغريق الاميين المقيمين بمصر • وقد كتب حديثا أرثر دربى نوك Arthur Darby Nock أحد الثقاة الممتازين الذين ما زالوا عائشين : « أى شخص يعرف مؤلفيه الاغريق الكلاسيك ويقرأ العهد الجديد ثم ينظر فى البرديات يندهش من المشابهات التى يجدها • وأى شخص يعرف أولا البرديات ثم يعود الى (بول) يندهش من المفارقات فهناك مغالاة كثيرة عن عنصر العامية (كوينى) فى العهد الجديد » •

ونظرا لهذه الحال ، فليس من المستغرب اذن أن العلماء بدأوا يتراجعون• فطالما بقيت اللغة اليونانية للعهد الجديد دون مثيل لها بسبب عدم وجود أى كتابات من عصر عيسى عليه الصلاة والسلام خلا بعض مؤلفات أدبية فلسفية مثل فيلو وبلوتارخ ، فمن الصعب الوصول الى أى نتائج غير متحيزة وقد أصبح واضحا الان أنه لابد فعلا من وجود تأثير عبرى وآرامى على لغة العهد الجديد اليونانية حتى يمكن تفسير التأثير السامى الواضح فى العهد الجديد الذى يكون عنصرا مميزا عن العامية (كوينى) وعلى العموم فان كتاب العهد الجديد (ويكاد يكون من المؤكد أن لوقا كان منهم أيضا) كانوا يهودا ، وكانت الارامية لغتهم الاصلية • وكان يفترض عادة ان الافتقار الى الفصاحة الاغريقية الموروثة والتعليم الهيلينى هى التى حالت بين كتاب العهد الجديد وبين كتابة لغة يونانية جيدة • أما الان فقد أخذ اقتراح آخر يزداد انتشارا وهو أن هذه اللغة اليونانية الغريبة التى ليست بالادبية وليست بالعامية (كوينى) ما هى فى الواقع الا لغة آرامية مترجمة ، ويدعى علماء من أمثال س • ن • برنى C. Burney وس • س • تورى C. C. Torrey مقتفين اشارات عابرة لمن سبقهم من الدارسين ، ان الجزء الاكبر من الاصحاحات وأعمال الرسل قد ترجم عن مصادر

آرامية مدونة • وبعبارة أخرى هم يعتقدون أن التأثير العامى لا يرجع الى نقص فى التعليم عند الكتاب الأقدمين بل كان نتيجة لتمسكهم الشديد بالاصل الارامى الذى كانوا يترجمونه • ومن ١٩١٢ الى ١٩٤١ نشر تورى سلسلة مقنعة من الكتب والابحاث ، التى حاول فيها تدعيم حجته باثبات وجود أخطاء فى ترجمة النصوص الاصلية الارامية المدونة • وفى ترجمته للاناجيل الاربعة من العهد الجديد The Four Gospels, 1933, A New Translatio n ترجم تورى جزءا من العهد الجديد مبدلا ما اعتبره ترجمة خاطئة للاصول المزعومة بترجمته الشخصية للارامية كما يراها هو • وليس هناك داع للقول ، بأن الكتاب قد آثار ضجة ، لان تورى عالم ثقة من الدرجة الاولى فى الارامية وفقيه ممتاز فى اللغة وليس مجرد دعى من أمثال هؤلاء العلماء العديدين الذين يثيرون الضجيج يوميا فى الجرائد •

والمنهاج الاساسى كان سليما • وقد بدأ تورى بتحليل نماذج من اليونانية المترجمة التى اعترف بها جميع العلماء ، مثل الترجمة السبعينية Septuagint (وهى الترجمة اليونانية للعهد القديم ، التى تمت فى القرنين الثالث والثانى قبل الميلاد) • وبعض من كتب أبو كريفا (١) Apocrypha (وبسودابيجرافا) وما يشبه Pseudepigrapha • وبمقارنة تلك الامثلة من اليونانية المترجمة مع اليونانية الادبية العامية (كوينى) لم يجد صعوبة فى تبيان أن أجزاء من العهد الجديد تظهر نفس خصائص السامية ، التى يمكن ملاحظتها فى النحو وترتيب الكلمات ، واستعمال الكلمات ، الخ • أضف الى ذلك أن هذه الكتب المترجمة تظهر حالات عديدة من الترجمة الخاطئة ، حيث أساء الكاتب فهم الاصل العبرانى أو الآرامى ، بسبب قراءة الكلمة قراءة خاطئة ، أو اختيار معنى خاطىء عندما توجد معان مختلفة ومحتملة • ولكن كلنا على علم بمثل تلك المسائل • وعلى ما أذكر فقد رأيت فى ترجمتين انجليزيتين مستقلتين لكتاب الالمانى هذه العبارة الغريبة أن الحلاق المصرى القديم يقضى جزءا كبيرا من وقته متنقلا لاستقصاء الاخبار • واعطاء وظيفة الصحفى الحديث الى الحلاق القديم

---

(١) أبو كريفا : قصص كتبه جماعة من المؤرخين المعاصرين للعصور المسيحية الأولى والبعض اعتبره من الاناجيل ولكنها لا تدخل ضمن الاناجيل المقدسة التى كتبها الرسل • المترجم •

كان سببها أساسيا هو الخلط بين الكلمة الالمانية Kunden بمعنى « زبائن » وبين نفس الكلمة بمعنى « أخبار » ، وكل التراجم الحديثة تقريبا تعطينا أمثلة فكاهية من هذا النوع من الاخطاء • والقارىء المدقق الذى يجيد معرفة اللغتين لا يجد صعوبة فى تصيد مثل تلك الاخطاء •

ولكن لا تزال هناك صعوبة واحدة باقية وهى أننا لا نعلم تمام العلم مدى امكانيات اليونانية والهيلنستية المتأخرة المستعملة فى المقاطعات • اذ لا يوجد أية مؤلفات أدبية كتبت بالاغريقية المعاصرة عدا أسلوب الاسكندرية الخطابى المنمق وأسلوب الفصحى الخاص بأثينا ومقلدية ، كما يبدو أن استعمال العامية كان قاصرا على الحديث والكتابة اليومية عند أنصاف المتعلمين • ولكن المشكلة الاشد تعقيدا هى عدم وجود أدب أرامى معاصر • وأرامية التوراة ، وأرامية أوراق بردى الفنتين (التى كشف أغلبها بين ١٩٠٣—١٩٠٧ فى جنوب مصر) ، ولغة النقوش النبطية والتدمرية (من القرن الميلادى الاول حتى القرن الثالث الميلادى) تعكس جميعا درجات عديدة متفاوتة من اللغة الارامية الادبية الفصحى السائدة فى الامبراطورية الفارسية ، كما أوضح ذلك أ • ساشو Sachau وشيدر H. H. Schaeder وغيرهم • والارامية اليهودية كما هى موجودة فى التلمود الفلسطينى وفى أقدم تراجم للتوراة (Targums) ، تعكس لغة الكلام فى القرن الثالث الميلادى وما بعده • واذا كان هناك ثمة شك فى تاريخ الارامية اليهودية التى وجدت فى فلسطين ، فقد انقشع هذا بعد اكتشاف نقوش المجامع العديدة بين القرن الرابع حتى القرن السادس الميلادى وقد دونت كلها بهذه اللغة • ولهجة السامرة الارامية ، على الرغم من سوء حفظها فى نسخ العصور الوسطى والحديثة ، ترجع على الاقل الى عصر مركة فى القرن الرابع الميلادى • وأرامية التلمود البابلى كانت فى بيتها فى بابل خلال نفس القرن ، والمندعية هى فى الواقع نفس اللهجة فى صورة أخرى متأخرة ، والسريانية كانت لغة شمال بلاد الرافدين ، وخاصة ايدسا (الرها) فى القرنين الثانى والثالث الميلادى وما بعد ذلك • وأخيرا توجد الارامية المسيحية الفلسطينية ، ومعلوماتنا عنها تعتمد بصفة خاصة على المخطوطات التى كشفت عنها سيدتان انجليزيتان هما أجنس سميث لويس Agnes S. Lewis ومارجريت دنلوب جبسون Margaret D. Gibson فى سيناء ، ويبدو أنها كانت

مستعملة فى الكلام فى فلسطين فى القرون : من السادس حتى التاسع أو العاشر ميلاديا •

وضد آراء نورى تقف عقبتان يصعب تذليلهما : أولا ، فما من لهجة أرامية من التى لخصناها آنفا كانت لغة الكلام فى عصر السيد المسيح • ثانيا : لا توجد أية مؤلفات أدبية أرامية من الفترة الممتدة من القرن الثالث أو الثانى قبل الميلاد حتى القرن الثانى أو الثالث بعد الميلاد ، وهى فترة تزيد على الثلثمائة عام • وليس ثمة شك فى أنه كان يوجد اختفاء حقيقى للارامية خلال عصر الامبراطورية السلوقية (٣١٢ ق • م الى أوائل القرن الاول الميلادى) ، اذ يندر اكتشاف نقش أرامى واحد من هذا العصر الا فى شرق الاردن وفى الاجزاء المجاورة من جزيرة العرب ، التى كانت خالية نسبيا من مؤثرات الحضارة الاغريقية عن غرب فلسطين وسوريا الاصلية • وبعد هذا الانقطاع فى سلسلة الخطوط ، بدأت تظهر النقوش التدمرية فى النصف الثانى من القرن الاول ق • م • وقد أظهرت التنقيبات الحديثة نقشا يؤرخ من السنة ٤٤ ق • م • وظهرت النقوش المدونة بالارامية اليهودية لاول مرة حوالى منتصف القرن الاول قبل الميلاد ثم ازدادت — خلال عصر هرودس العظيم ، قبل العصر المسيحى مباشرة (أنظر أعلاه) • ومن ثم فهى تساعد على توضيح الارامية الفعلية لفلسطين فى عصر عيسى والحواريين • واذا كانت مجلة تعنيت أو ملفات الصوم وهى قائمة بأيام الصيام اليهودية الرسمية مع ملاحظات تاريخية ، تسبق فعلا السنة ٧٠ ميلادية ، كما يعتقد بعض العلماء ، فهى تنتمى الى عصرنا ، ولكن من الافضل تأريخها فى القرن الثانى الميلادى ، بما يتفق مع محتوياتها الزمنية الحالية •

ويدهش المرء لقلة الادلة التى تشير الى وجود أساس أرامى وثنى للادب السريانى المسيحى ، الذى بدأ فى أواخر القرن الثانى الميلادى على يد يعقوب البردعى (أو البردعانى) • وبالطبع كانت توجد وثائق سريانية وثنية ، ومن ذلك وثيقة من ٢٤٣ ميلادية عثر عليها حديثا فى دورا • والنقوش السريانية الرسمية يمكن تتبعها حتى العهد المسيحى • ولكن المؤلف الادبى الوحيد الذى نقله المسيحيون بالتأكيد عن مصادر وثنية هو أمثال أحيقار ، وأحيقار السريانى يمكن مقارنته الان بدقة كبيرة مع جذاذات أرامية كثيرة من القرن الخامس الميلادى عثر عليها فى الفنتين فى مصر العليا • وهاتان النسختان القديمتان تختلفان

اختلافا بينا كل عن الاخرى حتى أنه لا يمكننا فقط الا التحدث عن أصل متواتر عام ، وليس عن نقل سرياني لاحيقار الارامى من صحف مدونة . ويبدو من ذلك ، أن الادلة قد ازدادت فى الواقع ، ضد استمرار الادب الارامى المدون خلال العصور الهيلنستية ، عما كانت عليه قبل الاكتشافات الاثرية الحديثة ، وليس من المستبعد اذن ، أن الملوك السلوقيين ، فى تحمسهم للهيلنستية ، قد أمروا بحرق جميع الكتب الارامية . وملفات البحر الاسود ، التى كشف عنها منذ سنة ١٩٤٧ ، تكاد تكون جميعها مدونة بالعبرية ، والوثائق الارامية القليلة ، من أمثال كتاب لامك قد كتبت بخط متأخر ، ومن المحتمل أن تاريخها يرجع الى ما بعد العهد المسيحى . ومن الجدير جدا بالملاحظة أن الغالبية العظمى من الجذاذات التى ليست من التوراة والتى وجدت حتى الان ، مكتوبة بالعبرية .

والدليل الاثرى كما يرى المؤلف ، لايؤيد الرأى القائل بأن الاناجيل قد كتبت بالارامية . بالاضافة الى هذا ، أنه عندما كشف عن نص طويل نسبيا مثل الاشارة الخطية الى عظام عزيا المزعومة ، نجد أن اللغة تحتوى على عناصر غير متوقعة مثل الصورة السامرية لكلمة عظام بدلا من الصورة الارامية القديمة أو الجديدة العادية ، ونظرا لان الصورة القديمة للفعل « أحضر » (أو احضروا) لم يعرف لها سابقة الا من كتاب دنيال . ومن ثم يزداد خطر ارتكاب الاخطاء ، فى محاولة اعطاء « اعادة تكوين اللغة الارامية الاصلية » التى استعملها عيسى عليه الصلاة والسلام ، أكثر من أى وقت . كما تعزز أدلة أخرى الاحتمال بأن العنصر الارامى فى الاناجيل قد جاء نتيجة لترجمة وثائق كانت قد رويت شفويا ، أى تسجيلات أرامية متواترة لكلمات عيسى وأعماله ، وعندما نتذكر مدى ما وصلت اليه الرواية الشفوية لكلمات الربابنة من تأكيد فى المدارس اليهودية المعاصرة والمتأخرة فهذه الرواية الشفوية تبدو معقولة ، وقد سبق أن أوضحنا أن ما ألقاه علم الاثار الحديثة من ضوء على الرواية الشفوية لامثال احيقار يقوى قضيتنا . ومن ثم يستطيع المسيحيون الاستمرار فى قراءة الاناجيل اليونانية دون خشية أخطاء خطيرة وقعت فى الترجمة (على الرغم من وجود الكثير من التغييرات الطفيفة فى المعنى أثناء الترجمة من الارامية الى الاغريقية) كما لا يخفى .

الفصل التاسع

الحياة اليومية فى فلسطين القديمة

لما كان حجم الكتاب لا يسمح البتة فى الدخول فى تفاصيل ، لذا سنكتفى بمقارنة الاحوال البسيطة للبيئة فى ثلاثة عصور مختلفة : عصر آل يعقوب (١) الذى سنحدده تحديدا جبريا الى حد ما حوالى ١٧٥٠ قبل الميلاد فى عصر البرونز الوسيط الثانى (، وعصر ايليا) أو عصر الحديد الثانى ، حوالى ٨٥٠ قبل الميلاد وعصر العهد الجديد (وهو القرن الاخير للهيكل الثانى ، من حكم هيرودس العظيم حتى سقوط بيت المقدس فى ٧٠ ميلادية) .

عصر آل يعقوب

عصر البرونز الوسيط الثانى

الافضل أن نؤرخ عصر الاباء الذى ينتمى اليه آل يعقوب حوالى القرن الثامن عشر أو السابع عشر قبل الميلاد وللسهولة سنؤرخه حوالى ١٧٥٠ قبل الميلاد . وهذه كانت فترة استقر فيها سريعا الساميون الغربيون البدو (أى العرب). انظر الفصل الخامس والتى أخذت اثناءها فلسطين فى النماء بخطى واسعة بأهلها وثرواتها . وبلغت العلاقات التجارية مستوى عاليا لم يعرف فى القرون السابقة وألف الناس السفر بحرية من قطر الى قطر ، كما نعرف من الواح كبادوكيا) (كبادوشيا) (بين ١٨٥٠ الى ١٧٥٠ ق . م ووثائق من لارسا وبابل ، وبخاصة من نصوص ماري (بعد حوالى ١٧٥٠ قبل

---

(١) لا يعرف العصر الذى عاش فيه آل يعقوب على وجه التحديد ولكن هذا محض اجتهاد من المؤلف .

[المترجم]

الميــلاد) (١) وليس ثمة عائق لغوى جدى فى أى بقعــة من الهــلال الخصيب ، منذ كانت اللغة السامية الغربية مفهومة فى كل مكان كما كانت قرينتها الاكادية البابلية هى اللغة الدولية ، لغة الدبلوماســية الخارجية والتجارة ، وفوق ذلك ان العلاقات السياسية والحضارية بين مصر وفلسطين استمرت وثيقة . وكانت اللغة المصرية مفهومة فى كل المراكز الفلسطينية الهامة ، كما أن اللغة السامية الغربية كانت لغة الكلام فى أنحاء شتى من شمال مصر[٢] .

ولما تكن التحركات الهندية ـ أرية بلغت بلاد الرافــدين بعد ، والمركبات التى تجرها الخيل كانت لا تزال جد نادرة ، وفى الغالب بطيئة اذا قورنت بسرعتها بعد قرنين أو ثلاثة قرون ، ومن ثم لم يكن هناك أى لون من ألوان الاقطاع كالذى انتشر فى الهزيع الاخير من عصر البرونز الوسيط الثانى . ولم يظهر بعد فى فلسطين أى تباين واضح بين السكان الذين استقروا استقرارا كاملا وبين السكان البدو . وقد بدأت عملية الاستقرار المتكررة مرة أخرى منذ قرن أ وأكثر . وصارت فلسطين الغربية الان مليئة بالقلاع التى يسكنها رؤساء العشائر، على حين كان معظم رعاياهم يعيشون حتما فى كفور مبنية حولها ، تتكون من مجموعات صغيرة من الاكواخ أو الخيام . وفى وقت الخطر يدخلون قلعة رئيسهم أو قلاعه . وفى فصل الشتاء كان عدد سكان القلعة بلا شك يزداد زيادة كبيرة عنه فى فصل الصيف ، حين يستطيع الناس العيش فى مآوى وقتية مصنوعة من الحجارة وافرع الشجر بلا خوف من المطر . وقد استمرت عادة العيش فى مثل تلك العشش المؤقتة فى فصل الصيف خاصة خلال موســم العنب فى الازمنة القديمة ، وهى ميــزة « عيــد المظــال » حرفيا (العشش) ولايزال يحتفل به حتى الان بين العرب الفلاحين الذين استقروا فى فلسطين فى العصور التالية .

والقصص المتوارث عن عصر آل يعقوب كما حفظ لنا فى التكوين يصــورهم أشــباه بدو يوزعون وقتهم بين العناية بالقطعان من جهــة ،

---

(١) تواريخ بلاد الرافدين التى وضعها المؤلف تقل فى المتوسط ٦٤ سنة عن تواريخ سيدنى سميث بالمتحف البريطانى .

(٢) يتضح من هــذا مدى الصلة الوثيقة بين مصر وفلسطين خاصــة والشام عامه منذ أقدم العصور . المترجم .

وبين النشاط الزراعى من جهة اخرى • وهم فى ذلك يشبهون الى درجة كبيرة العرب أشباه البدو فى فلسطين حتى وقت قريب والاختلاف الجوهرى فى الاسلوب الظاهرى للحياة هو أن العرب الجدد (وهم فى منتصف الطريق بين البدو الحقيقيين والفلاحين الذين استقروا استقرارا كاملا) يخيمون فى النقب (الاقليم الجنوبى) والسهل الساحلى ، ومرج بن عامر ، ووادى الاردن والصحراء الشرقية من فلسطين ، والاجزاء البرية من الجليل ، بينما القبائل القديمة صوروا وهم يجوبون تلال أواسط فلسطين وجنوبها ولا يأتون النقب الا أحيانا قليلة • ورأى النقاد المتطرفون من القرن التاسع عشر الذين ادعوا أن حياة الآباء العبرانيين هى قصة من نسج خيال كتاب عصر الملكية الاسرائيلية ، استوحوها من حياة البدو المعاصرين لهم ليس سليما فى رأى المؤلف ، وان كانت بعض التفاصيل قد أضيفت دون ريب عن طريق الرواية لتوافق بين الصورة الموروثة وحقائق الحياة فى العصور التالية • وبعد ما يقرب من ثلاثة قرون منذ عصر آل يعقوب (كما وضع هنا) تعرض علينا ألواح العمارنة صورة شبيهة فى بعض نواحيها بصورة عصر آل يعقوب (الآباء فى التكوين) • وفى هذه الوثائق كان الـ « عابيرو » (الخابيرو) أنصاف البدو يظهرون كمجموعات تجوب المناطق الجبلية ، مثلما صور آل يعقوب يفعلون فى التكوين • اما عن كون العابيرو هم أنفسهم عبريم (العبرانيين) فى التكوين فهذه مشكلة عويصة لسنا بحاجة الى الخوض فيها فى هذا المجال • وبغض النظر تماما عن هذا التطابق بين الاسمين ، ترجع أهمية الارشادات الكتابية الى « العابيرو » الى ما تلقيه من ضوء على الدور التاريخى لآل يعقوب •

وفى القرن الثامن عشر قبل الميلاد كان الحمار هو الحيوان الرئيسى للحمل • ونسمع من ألواح كبادوكيا ومارى عن قوافل الحمير ، وما سمعنا قط عن قوافل الجمال ، واقدم اشارة نشرت عن الجمل يرجع تاريخها الى القرن الحادى عشر ق • م • وفوق هذا لا تمدنا الكمية الضخمة من الادلة الاثرية التى تحت أيدينا الان الا بصورتين او ثلاثة فقط عن الجمل ، مشكوك فى صحتها ، خلال الفترة كلها منذ بداية الالف الثالث حتى نهاية الالف الثانى ق• م• كما فشلت الجهود التى بذلت حتى الان فى نسبة المزيد من صور الجمل الى هذه الفترة الطويلة • ومن





شكل ٣٠ — تصوير مجيء الآسيويين الى بني حسن حوالي ١٨٩٢ ق. م.

البديهى الا يوجد أى شك فى أن الجمل البرى كان منتشرا فى شمال افريقيا وجنوب غربى آسيا فى العصر الحجرى الحديث وعصر بداية استعمال المعادن ، فقد عثر على صور له منحوتة على الصخور التى تحد وادى النيل وفى كلوة فى شرق الاردن ، كما ان صور تماثيل الجمل لم تكن نادرة فى أواخر عصر ما قبل التاريخ فى مصر ، ويبدو أن الجمل البرى المبكر قد ابيد تقريبا فى المناطق التى تحد الهلال الخصيب خلال الألف الثالث ، وقد استؤنس ببطء فى اقاصى شبه الجزيرة العربية خلال الالف الثانى ، ثم ظهر فجأة فى قطعان كبيرة قبيل نهايتها وليس من المحتم أن تثبت هذه الحقائق .

ولوحة بنى حسن المشهورة المؤرخة من ١٨٩٢ قبل الميلاد ترسم لنا صورة لا تنسى عن عائلة صغيرة من البدو انصاف رحل من فلسطين فى أوائل عصر آل يعقوب[1] (شكل ٢٩) بقيادة شيخهم الذى يحمل الاسم السامى المختصر ابشا ، سبعة وثلاثون منهم ، رجال ونساء وأطفال قيل أنهم يحضرون الكحل الاسود من شوتو فى وسط شرق الاردن الى بلاط حاكم الاقليم (فى مصر الوسطى ، شمال العمارنة) . ويلبس كل من الرجال والنساء عباءة من الصوف صنعت من قطع مستطيلة من القماش المنسوج بزخارف زاهية الالوان ، والعباءة كانت تلف حول أحد الكتفين ويترك الكتف الاخر عاريا ، والاختلاف الوحيد بين عباءة الرجل وعباءة المرأة الذى أوضحه الفنان هو أن عباءة المرأة تصل الى منتصف المسافة بين الركبة والرسغ ، بينما عباءة الرجل لا تتعدى الركبة ، وعلى العموم ، كان بعض الرجال يلبسون عباءات (من تيل) بيضاء طويلة ، بينما يلبس البعض الاخر عباءات قصيرة (ازارا) تصل من الوسط حتى الركبة . ويلبس أكثر الرجال صنادل ، بينما صورت النساء لابسة أحذية من الجلد . أما السلاح فهم يحملون أقواسا مركبة ، وعقافات ، وسهام ، كما نرى ضمن الامتعة أشياء كان يستبعد وجودها ، وهى القيثارة يحملها أحد الرجال ومنفاخان كانت تحملها الحمير مع غيرها من

(1) لا يجب أن يفهم من هذا ان هذه اللوحة لها صلة بآل يعقوب او بالعبرانيين وان كانت تدل على وصول بعض العرب الساميين الى مصر ولكن لم تكن هذه هى المرة الاولى او الاخيرة او انها تمثل العبرانيين وخاصة أن تاريخ هذا العصر ملىء بالغموض . المترجم .

الأشياء • ومن الواضح اننا نرى هنا عمال تعدين جوابين يشبهون عمال العصور المتأخرة الذين كانوا حتى ذاك الوقت شيئا عجيبا فى مصر يستحقون أن يصورهم أمير المقاطعة للاجيال المقبلة (١) وهذه المجموعة ككل ، توضح لنا توضيحا كاملا قصة التوراة القديمة فى سفر التكوين ٤ : ١٩ — ٢٢ حيث وصفت عائلة لامك بأنه كان من بين أفرادها من اهتم بالرعى ، أو بالعود ، أو بتعدين الحديد والنحاس (٢) ولما كان من المستبعد أن يكون قد طرأ تعديل كبير على لباس انصاف البدو الفلسطينيين لمدة قرن أو قرنين ، فاننا لا نخطىء كثيرا اذا تصورنا آل يعقوب متدثرين فى نفس هذا الاسلوب من اللباس • وعلى كل حال ، فقبيل نهاية عصر البرونز الوسيط تغيرت الملابس الكنعانية تغييرا كليا نتيجة لادخال طراز بلاد الرافدين وشمال سوريا •

---

(١) ليس هذا صحيحا على الاطلاق فالتعدين معروف فى مصر قبل ذلك التاريخ بألف عام على الأقل .

[المترجم]

(٢) هذا لم يكن قاصرا على هذه العائلة فقط كما يفهم من كلام المؤلف فلدينا من الدولة الوسطى نماذج تبين عائلة كانت تملك كل ما تحتاج اليه من شئون الحياة وهذا واضح من النماذج التى عثر عليها فى مقابر «مسكتى» و « مكت رع » وغيرهما وقد كان هذا شائعا منذ أوائل الدولة القديمة فى مصر بل وحتى بلاد الرافدين وجميع انحاء الشرق الاوسط . (المترجم) .

عصــر ايليا ـ الحديد الثانى

مر مايقرب من ألف عام بلغ فيها عصر البرونز ذروته ثم اضــمحل ، ليحل محله عصر الحديد ، والشعوب السامية كانت قد تعرضت بلادها لغــزوات قبــائل غــير ســامية[1] التى ابتلعتهــا ـ ولكن سرعان ما طــردها بدورها أو ابتلعهــا الاسرائيليون والفلســطينيون ، وقــد أعقب أيام الغزو الاسرائيلى فــترة تأقلم طويلة وقاســية عانى فيــها الاسرائيليون من هجمات جيرانهم المحاربين [2] ، ثم جاءت أيام المملكة المتحدة الزاهية التى اعقبها مرة ثانية عصر فوضى • وبعد جيلين من تقسيم المملكة (حوالى ٩٢٢ ق • م) ظهرت الشخصية الفريدة للنبى ايليــا الذى أتى من بساطة الريف فى جلعاد الى الحضارة العالمية فى السامرة • ولقد أصبحت الحياة أكثر تعقيدا فى منتصف القرن التاسع قبل الميلاد عما كانت عليه منذ ألف سنة مضت وقد حل محل الحمير التى كانت من مميزات عصر آل يعقوب قوافل الجمال التى كانت تجلب توابل الجنوب العربى ومنتجــات الواحات الشماليــة الى مــوانىء البحــر المتوسط • والمركبات التى تجرها الخيل حلت محل المشاة بدرجة كبيرة ، ولكن سرعان ما حل محلها هى الاخرى فيلق الفرسان ، والاساطيل الصغيرة المــكونة من فلك تهاب البحار والتى كانت تجوب مياه البحــر الابيض المتوسط حتى قبرص وكريت ، حل محلها أساطيل أضخم من السفن الفينيقية العظيمة التى كانت وجهتها شطر ورش تنقية النحاس فى سردينيا وثروة اسبانيا المعدنية ، كما انبثقت فنون وحرف جديدة فى كل اتجاه •

ولم يعد النساء يعتمدن فقط على مياه اقرب جدول أو غدير ، بل كان لكل بيت تقريبا فى القرن التاسع صــهريج خاص به حيث كــانت تخزن امطار الشتاء لاستعمالها طوال العــام • كمــا ازداد الان الإهتمــام بالنظافة والصحة العامة • والى جانب شريعة مــوسى ، التى اهتمت

---

(١) هى شعوب البحار التى جاء ذكرها فى نصوص رمسيس الثالث • [المترجم]

(٢) هم الفلسطينيون والممالك الارامية مثل صوبة ودمشق • المترجم •

بالصحة الشخصية وبتحريم العادات والاطعمة التى تساعد على نشر الاوبئة ، توجد ادلة مستمدة من الاثار • فلم تكثر الصهاريج فحسب بل كانت تزود أيضا بأحواض ترسيب لتمنع أكبر ما يمكن من الطين والمواد الدخيلة خارجها • وهذه الصهاريج كانت تتلقى مياه نظيفة نسبيا من السطوح — لا مياه قذرة من الشوارع وافنية البيوت ، ومعظم أفراد الاسرة العادية كانوا يقطنون فعلا فى الدور العلوى من بيتهم ، وليس فى الدور الارضى كما كان يفعل الناس فى العصور الاولى ، اما الدور الارضى فكان يستعمل للتخزين وللورش ، كما ازداد استعمال البالوعات [1] فى باطن الارض بمرور الوقت حتى يمكن المحافظة على وسط المدن جافا بقدر المستطاع •

وكان الفلاح وأصحاب الحرف من هذا العصر احسن حالا ممن سبقوهم من حيث نوع الادوات التى تحت ايديهم استعيض عن منجل الحصاد الخشبى المبطن بحافة ظرانية بمنجل حاد مصنوع من الحديد كان يمكن به جمع ضعف القمح على الاقل فى نفس المدة المحددة المستعمل فيها المنجل القديم • وان كان من الصحيح ايضا ان هذا المنجل الحديد كان قصيرا ، وان عامل الحصاد كان عليه ان يجذب سنابل القمح باحدى يديه بينما يحصدها بالاخرى ، (كما نرى تماما فى رسومات المقابر المصرية فلا زال يوم المقضاب الطويل بعيدا فى المستقبل) • وكان لدى النجار أدوات حديدية من كل نوع سهلت عمله الى درجة كبيرة وفؤوس وقواديم حديدية كبيرة ، كان يقطع بها الشجر ويسوى بها الواحه وعوارضه ، ومناشير رفيعة من الحديد محاطة باطارات مكنته من نشر الخشب بتكاليف اقل من نشره بمنشار النحاس ، ومطارق كبيرة وازاميل صغيرة مقعرة (مقاور) •

والثروة التى كانت تتدفق من جميع أنحاء العالم القديم فى المدن الكنعانية (الفينيقية) الواقعة على ساحل فلسطين الشمالى ، جعلت فى الامكان تطوير نوع من الانتاج بالجملة وكان هذا تقدما كبيرا يفوق الحرف اليدوية القديمة يشبه فى ذلك ما لسير النقل الحديث من فضل على انتاج الماكينات القديمة • ومقارنة الفخار من عصر

---

(١) عرفت البالوعات فى مصر منذ الأسرة الرابعة على الأقل فى المعابد الجنازية لخفرع ومنقرع . المترجم .

الحـديد الثانى مع فخـار عصر البرونز الوسيط جد مفيد فى هـذه الناحية • فرغم كل العناية والمهارة الفنية التى كرست لصناعة القطع الفرادى فى عصر البرونز الثانى ، فان الفخار المصنوع على عجلة الفخار بالورش من القرن التاسع حتى السابع كان يفضل كثيرا الفخار القديم من حيث ملاءمته لصالح العمل • ومن المفيد موازنة قـائمة الادوات المعـدة لاسـتعمال سـيدات القـوم فى موقـع من هـذا العصر مع مثيلاتها من موقع من بداية الالف الثانى • نجـد عادة أن الحـلى كانت فى الالف الثانى رديئة ومصنوعة محليا ، بينما فى عصر الحديد الثانى كانت الحلى المماثلة مصنوعة من مواد أرخص ، ولكن بواسطة عمال مهرة • وعلى هذا نجد صلايات مستديرة صغيرة من الحجر الجيرى الصلد لتحضير الوان الوجه ودهاناته ، وقد كسيت حافتها بزخارف هندسية دقيقة احسن بكثير من حيث المهارة فى التنفيذ من الزخارف الرديئة المحفورة باليد على فخار العصور المبكرة الرخيص ، ويوجد عدد كبير من الدلايات الكبيرة الرخيصـة وان كانت رشيقة الصنع • ومن الجلى انه يمكن شراء كميات كبيرة منها باسعار رخيصة • وتعرض علينا النقوش الاشورية ملابس الاسرائيليين فى ذلك الوقت فعلى المسلة السوداء لشلمنصر الثالث التى نقشت بعد بضع سنوات من وفاة ايليـا ، نرى قافلة ملك اسرائيل يهـوذا حاملا الجزية الى الملك الاشورى (وقد انبطح يهوذا على وجهه ليقبل الارض بين يدى ملك اشور) وقد صور الاسرائيليون يلبسون نفس ملابس رجال شمال سوريا وجنوب ارمينية ، ولما كانت هذه الملابس تختلف اختلافا كليا عن ملابس رجال جنوب الامبراطورية الاشـورية وشرقها ، فيمكننا أن نأتمن فى سلام الفنان الاشورى على قدر من الدقة (وان كانت لا تبلغ الدرجة التى عليها الفنان المصرى) • وكان يلبس الرجال قمصانا طويلة ذات هدب ، ومن فوقها عباءة ذات هدب ايضا وهى مصنوعة من الصوف على ما يعتقد ، وعلى رؤوسـهم قلنسوة قصيرة مربوطة برباط يلف حولها كالعمامة ، وفى ارجلهم احذية ذات رقبة طويلة ومقدمتها كانت مرتفعة على الطريقة الحثية • وبعد قرن ونصف قرن ، احتفل الفنانون الاشوريون باستيلاء سنخاريب على لخيش فى يهوذا ، وقد ظهر هنا رجال يهوذا بملابسهم مرفوعة حتى الركبة ومربوطة حول نفسها بحزام بينما صورت النسـاء لابسـات قمصـانا وعبـاءات طويلة •

ازمنة العهد الجديد

ثم مرت تسعة قرون تقريبا أتت بتغييرات كثيرة فى طريقة الحياة وبتحسينات عديدة فى المدنية • فقد تخلت الامبراطوريتان الاشـــورية والبابلية عن مكانهما للامبراطورية الفارسية الاكثر اتساعا ، التى غزاها عندئذ اسكندر المقدونى • وقد شاهد العصر الهلينستى عدة تغيرات فى القوى السياسية • ففى ٦٣ ق•م • ضم بومبى فلسطين الى الامبراطورية الرومانية التى بلغت مساحتها حجما تضاءلت الى جانبه الامبراطورية الفارسية ، كما صار الان عالم البحر المتوسط وحدة واحدة ، واصبحت طرز اثينا والاسكندرية تقلد فى غرب البحر الابيض المتوسط ، بينما الحياة الرومانية العامة كانت قدوة المقاطعات الشرقية ولا تقص علينا نتائج الحفائر الاثرية فى فلسطين نفســـها عن حياة عامة الشعب فى عصر السيد المسيح الامانذر • ومن ناحية اخرى توجد اطلال بومبى (التى دمرها ثوران البركان فيزوف فى ٧٩ م •) والتى حفظت لنا فى حالة جيدة لتكون لنا دليلا • ومما يساعد على فهمها مجموعة كبيرة من الادب المعاصر • وقد اسهم العهد الجديد ويوسيفوس ، وخاصة مشنا بنصيبيهم فى المعلومات المباشرة القيمة ، وهى تعبر عن وجهـــة نظر اليهود • وبالطبع يجب استعمال كل ذلك بمنتهى الحذر ، فبومبى كانت فى أيطاليا ، وليست فى الجليل ، ومشنا جمعت بعد قرن من هذا العصر •

واهم تغيير عميق كان عقليا وقد صاحبه ايضا تغييرات ملحوظة عديدة فى المدنية • وست قرون من الجدل الفلسفى علمت الاذكياء من البربر والاغريق ان يفكروا بطرق منطقية فى الظاهر وان يستعملوا افكارا مجردة فى مناقشاتهم ، والحكم التجريبية الصريحة من عصر ايليا كثيرا ما استعيض عنها بعبارات منمقة من علم الكلام • وقد صار من الميسور الان استغلال التعليم لستر العقل بل اسهل من ذلك ان يخفى المـــرء اغراضه الحقيقية وراء اساليب خطابية منمقة • اما عن المدنية المادية فقد دخل الحساب والعلوم الميدان • ونتائج اعمال المهندسين والفلكيين قد وضحت من طرق حسابات الزمن والمســـاحة التى تحسنت الى درجة

كبيرة • كما اعطت الخرط الدقيقة نسبيا رجل الشارع فكرة اكثر وضوحا عن العالم الذى يعيش فيه عما كان ممكنا فى عصر ايليا • وعلوم الطب والجراحة ، وان كانت لا تزال بدائية من وجهة نظرنا ، تقدمت تقدما كبيرا ، اما استعمال المواد المعدنية والعضوية فى الفنون والحرف فقد اتسع نطاقه الى درجة كبيرة حتى انه لم يحدث بعدها الا تقدم بسيط فى هذه الاتجاهات حتى اواخر العصور الوسطى (١) •

وقد استمر التقدم فى التعدين ، ولم يستعمل الصلب الا فى القرن الاول الميلادى • كما اكتشف الرومان خلال القرن الاول قبل الميلاد كيف يصنعون الخرسانة الحقيقية ، وهذا الاختراع قد احدث ثورة فى فنون البناء والهندسة • وكان العلماء من امثال أرخميدس من سرقوسة بصقلية (القرن الثانى ق • م) وهيرو Hero السكندرى (القرن الاول الميلادى) ، يطبقون المعلومات الرياضية لاختراع وسائل ميكانيكية افضل • فالساقية خفضت تكاليف الرى ، والطاحونة التى تديرها الحمير أراحت النساء من العمل المرهق وهو طحن الدقيق بواسطة الرحى التى كانت لا تزال مستعملة فى عصر ايليا (عصر الحديد الثانى) •

وبفضل الاكتشافات فى بومبى وغيرها من المواقع الرومانية الاقل اهمية ، يمكننا أن نكون فكرة طيبة عن كيفية معيشة اثرياء القوم فى هذا العصر • ومحل الاقامة لا يؤثر كثيرا على حال الطبقة القادرة ، اذ انهم كانوا دائما يحاولون تتبع أحدث الطرز فى بناء بيوتهم وزخرفتها، وفى الملابس التى يلبسونها وفى مرحهم ومشاغلهم • والبيت الرومانى (domos) هو مجرد مرحلة متاخرة للبيت الهيلينى الذى سبقه ، ومن مميزاته جزء شبه عمومى محيط بالفناء الخارجى ، ويعرف باسم اتريوم atrium ثم الجزء الخاص المحيط بفناء ذى عمد وكان يطلق عليه باليونانية peristyle والانزيوم (وقد عثر على عدد منها فى قصر كبير) ربما كانت من اصل توسكانى ، وفى هذه الحالة كانت تغطى تقريبا بواسطة مد الواح السقوف الملاصقة ، تاركة فى وسطها مساحة

---

(١) هذا كان فى أوربا فقط اما فى الشرق الأوسط فقد تقدمت العلوم والفنون فى عهد العرب تقدما ضخما حتى ان الكثير من الكتب العربية ترجم الى اللغات الأوروبية وظل يدرس بمدارسها قرونا عديدة .

[المترجم]

مفتوحة يدخل منها النور (اى منور) ، واسفل هذه الفتحة يوجد حوض يعرف باسم امبلوفيوم impluvium حيث تجمع فيه مياه الامطار النازلة من السقف لتمد الخزان بالمياه • والاتريوم قد يكون أيضا عبارة عن تترا استايل tetrastyle وفى هذه الحالة كان يحاط بطنوف ، تعتمد على عمود فى كل ركن من اركان الفناء الصغير او ربما كان من طراز بريســتايل اتريوم peristyle atrium) اى فناء من طراز الاتريوم محاطا بالاعمدة) مثل البريستايل المقام حوله الغرف الداخلية للبيت •

فمن البديهى انه يجب علينا الا ننتظر وجود شبه كبير بين بيوت الفقراء فى انحاء الامبراطورية الرومانية المختلفة ، والمميزات العامة الوحيدة هى صغر حجمها وبساطتها • وفى فلسطين ظل الحجر واللبن هما مواد البناء مثلما كانا فى العصــور الاولى • ومن الخطأ الجسيم حقا ان نفترض ان بيوت عامة الشعب فى فلسطين القديمة كانت تسقف بقباب من الحجر والملاط او اللبن ، كما يحدث اليوم (بعد قرون عديدة من ازالة الغابات المستمر) وقد انتقل كثرة استعمال القباب الى فلسطين من ايران والعراق فى العصور الوسطى • اما البيوت المبــكرة فــكانت تسقف عادة باسقف مسطحة مبنية بعروق الخشب ، وكان يوضع عليها ألواح ومن فوقها عساليج صغيرة وعصى ، ثم تغطى بطبقة سميكة من الطين الرملى (مرل) وكان يجب لف السقف المرل بعد كل مطر غزير حتى يبقى جافا ، وقد بدأ فى استعمال بكرة السقف الحجرية الاسطوانية لهذا الغرض فى عصر الحديد الثانىوقد استمر استعمالها مع ادخال تعديل بسيط عليها حتى اليوم • والبيوت ذات السقــوف الخشبية كانت النار تشب فيها تسببا بسهولة اذا ما قيســت بالصعوبة البالغة ان لم تكن الاستحالة التامة — فى تدمير قرية عربية حديثة بالنار •

كان اليهود فى زمن العهد الجديد ينامون عادة على أسرة [1] سرير

(١) عرفت الاسرة والكراسي فى مصر منذ عصور ما قبل التاريخ ، بل كلنا نعرف أن عظماء مصر منذ أيام الدولة القديمة — مثل مقبرة حتب حرس — وكذلك فى أيام الدولة الحديثة مثل مقبرة توت عنخ آمون وغيرها من المقابر — كانوا ينامون على سرر مغشية برقائق من الذهب . كما استعملوا مراوح من ريش النعام وقفازات من الجلد أو التيل ، كما كانوا يتناولون طعامهم على الموائد كما صور ذلك بكل وضوح على جدران المقابر منذ أيام الدولة القديمة . ففى مصر بل فى جميع بلاد الشرق الاوسط القيم وهى عربيــة

مرتفع اذا كان المرء غنيـا أو على فراش وطىء ، اذا كان فقيرا [٢] .
وفى الأزمنة الاسرائيلية كان الناس يجلسـون على كراسى أو مقاعد وكانوا يتناولون طعامهم عادة على المائدة . وفى زمن العهـد الجديد انتشرت العادة الاغريقية من الاضطجاع عند الاكل ، وكان الضيوف تضطجع وكان ذلك كذلك دائما فى المآدب الرسمية .

فى تلك الازمان كان الناس يغسلون أيديهم قبـل الاكل ، بدلا من الانتظـار الى ما بعد تنـاول الطعام . ثم أن عـادة الاسـتحمام المستمر[٣] أو على الاقل غسل الاطراف فرضتها الشريعة على جميـع اليهود ، بينما العادات الاغريقية من غسل كل الجسم لابد أنهـا قـد تغلغلت فى كل طبقـات المجتمع فى ذلك الوقت . هـذه بعض أمثلة على المستوى العالى نسبيا للنظافة العامة والخاصة التى كانت فى ذلك الوقت .

والملابس والحلى وقص الشعر وكل وسائل التجميـل كانت تتبـع المودات ، المنتشرة فى تلك الايام ، وكان زى اليهودى يتكون بصفة

سامية كان الاثرياء يعيشون عيشة رغدة لم تصل اليها أوروبا الا فى القرن الثامن عشر . وتكفى زيارة واحدة للمتحف المصرى للدلالة على المسـتوى الرفيع الذى بلغه قدماء المصريين فى مضمار الحضارة فى جميع الوانهـا ، والحضارة اليهودية ما هى الا حضارة منقولة عن الحضارة المصرية . فقد نشأ اليهود فى مصر وعاشوا فيها وتعلموا حضارتها وتكلموا لسانها وليس لهم أى فضل فى تطوير الحضارة فى هذه المنطقة بل على النقيض من ذلك فقد نقلوا آداب وعلوم هذه الحضارات الى آدابهم حتى ما يسمى باللغة العبرية ما هى الا لهجة عربية سامية تعلمها اليهود عند دخولهم فلسطين بعـد خروجهم من مصر . (المترجم) .

(٢) الواقع ان الاسرائيلى العادى كان يلتف بعباءته ويفترش الارض أو على قطعة من القماش . أنظر : المجتمع الاسرائيلى ، تأليف الدكتور فؤاد حسنين على ص ٤٤ . المترجمان .

(٣) هذا ليس صحيحا على الاطلاق ، فالدين الاسلامى يفرض على المسلمين الوضوء خمس مرات فى النهار بالاضافة الى ضرورة الاغتسـال بصفة مستمرة . بل من الثابت أيضا ان قدماء المصريين كانوا يملكون حمامات خاصة فى بيوتهم ، كما كانوا يهتمون بغسل اجسادهم حتى عند الوفاة . بل ان أول من اخترع الدش هم قدماء المصريين ، وقد صور على أحـد جدران مقابر الدولة الحديثة بطيبة ، ولكن الدعاية الغربية دائمـا تحاول الاساءة الى الشعوب العربية . وبهذه المناسبة اذكر ان كثيرا من البيوت الاوروبية كانت خالية من حمام حتى أوائل هذا القرن . وكثير من الاوروبيين من الجيل الماضى كانوا لا يستحمون اطلاقا . وهم حتى الان لا يغسـلون ايديهم طول النهار لا قبل الاكل أو بعده . المترجم .

اســاسية من نفس الملابس قميص وعبءة وحــذاء أو صــندل وقبعة او طاقية من نوع ما لتحمى الرأس التى كان يرتديها الاغريق المعاصرون • وليس من الصواب تصوير رجال تلك الازمنة لابسين نفس ملابس عرب اليوم • قميص وعباءة وكوفية وعقال فوق الرأس ، أما العمامة العربية أو الطربوش التركى فلم يعرفا بعد وان كان الكهان الوثنيون فى تلك الازمنة كانوا يلبسون التاج المثلث المخروطى المرتفع •

وطعام عامة الشعب فى فلسطين تعددت أنواعه وتنوعت أطباقه أثناء القرون التسعة التى فصــلت بين ايليــا (عصر الحــديد الثانى) وبين عيسى والحواريين • ومن بين الحبوب ، كان الارز يزرع آنذاك فى الاراضى المغمورة بالمياه ، ولكنه لم يحل كطعام محل الانواع الاخرى من الحبوب بنفس الدرجة التى وصل اليها فى العصور العربية التاليةولم نسمع بعد عن البلاف الريان وهو يصنع من اكوام من الارز الطرى الذى يوضع عليه الزبد المذاب (السمن السائح) والمرق ليكسبه طعما لذيذا ثم يعلوها أكوام من الضأن المشوى ، وقد قطع الى قطع صغيرة مناسبة للاستهلاك الفردى ثم تتوج بقطع صغيرة بيضاء لذيذة من ليــــة الخروف • وبدلا من الارز كان يطبخ فريك القمح أو الشعير مع القطع الطرية من الضأن وخضروات من مختلف الانواع • وكثير من أنواع الخضار الشائعة اليوم لم تكن معروفة آنذاك فبدلا من الفاصوليــا والبسلة المعروفة الان كان الفول والعدس اللذيذ ، وحل الحمص محل الفشار والفول السودانى ، وكانت أنواع مختلفة من الخيار وقرع كوسى مستعملة بدلا من القرع العسلى أو المغربى المستعمل اليوم ، ولم تكن الطماطم قد عرفت بعد • ومن ناحية أخرى لعب البصل والكرات والثوم دورا كبيرا فى طعام شعوب البحر الابيض المتوسط كما هو الحال اليوم ، ولم يدرك علماء الغرب قيمتها الغذائية التى لا تضارع الا أخيرا فقط •

واذا ما التفتنا الى الفواكة والنقل نجد ايضا كثيرا من التباين والتشابه بين أزمنة العهد الجديد واليوم•فالموز والموالح(باستثناءالليمون) لم تــكن معروفة فى فلســطين • وبالتأكيد لم يدخــل التين الشــوكى البلاد • ومن ناحية أخرى كانت أشجار الزيتون تنمو فى كل مكان أكثر مما هى عليه اليوم ، بعد ما مرت قرون كان يدفع فيها عن كل شجرة زيتون ضرائب للخزانة الجشعة ولا يزال العرب يطلقون على أشجار

الزيتون الضخمة القديمة اسم « زيتون رومى » • كما كانت الكروم أكثر كثيرا مما هى عليه اليوم ، وعصارات الخمر التى قدت من الصخر الصلد هى من أهم دلائل أثرية المكان ، نظرا لان غالبية الفلسطينيين طوال الثلاث عشر قرنا الماضية لم تسمح للخمر أن تمس شفاههم ، واستعمل العنب كفاكهة فقط • وكان الزبيب والتين وعسـل النحل والبلح تستعمل بدلا من قصب السكر الذى لم يدخل المنطقة قبل العصـور الاسـلامية • وعلى العموم فان أنواعا عديدة من الفواكه التى أصبحت غير شائعة اليوم كانت تستطاب لانه لم يوجـد مايفضلهـا فى ذلك الوقت • فاللوز والجوز (الذى أدخل فى العصر الفارسى) ، والتفاح والكمثرى وهمـا من نوع أقل جودة ، والرمان ، والجميز (الذى لا يأكله الا أفقر النـاس ولـكن فى تلك الايام كـان يثقب حتى ينمو الى حجم أكبر من حجمه الحالى) كانت من المواد الغذائية الرئيسية فى ذلك الوقت •

والتغيير الهام الوحيد الذى حدث فى مواد الغذاء فيما بين زمن ايليا (عصر الحديد الثانى • أ) وبين أيام العهد الجديد كان ادخال الدجاج المستأنس والبيض فى الحيـاة اليومية • وأول صورة مؤكـدة لديك هى تلك التى وجدت على خاتم من تل النصبة عثر عليه و • ف بـادى W.F. Badè ويرجع تاريخهـا الى بداية القرن السـادس قبـل الميـلاد وفى العصر الفـارسى عـرف الدجاج المستأنس أيضـا عنـد الاغريق وكان ادخال الطيـور الداجنـة وما كان لانتاجهـا من فائدة على الاقتصاد المنزلى أمر فى غاية الاهمية العملية • وكان الاوز معروفا من قبل ، ثم أخذ البط فى الانتشار فى هذا العصر • اما الديك الرومى فطبيعى انه لم يدخل الا بعد الف وخمسمائة سنة •

وكما لاحظ القارىء فثمة تغييرات عديدة حدثت فى الحياة اليومية أثناء تلك الفترة الطويلة منذ بداية عصر الحديد الثـانى (عصر آل يعقوب) حتى سقوط الهيكل الثانى ونهاية عصر العهد الجديد • وعلى الرغم من تعدد هذه التغيرات فهى تبدو باهتة اذا قورنت بالتغيير الذى طرأ على عالم الروح ، سواء من الناحية العقلية أو الخلقية •

الفصل العاشر

العهد القديم والآثار

فى حماس المرء للبحوث الاثرية ما يدفعه فى بعض الاحيان للتغاضى عن الدافع الدائم لاى اهتمـــام خاص بفلســـطين ــ فتقريبـــا كل العهد القديم العبرى من نتاج الارض الفلسطينية والكتاب الاسرائيليين ، كما أن أغلب الحوادث التى تكون صلب العهد الجديد المكتوب باللغـــة اليونانية وقعت فى نفس تلك البقعة المقدسة • ورغم ان العهد القديم يحتوى على تجميع خير ما أسهم به الشرق القديم فى الدين (قبل ظهور الاسلام) فقد تحول بفضل الشريعة الموسوية الى عقيدة دينية يسمو سموا عظيما عن كل نظائرها فى مصر وبلاد الرافدين (١) وبالمثل فالعهد الجديد ، وان كانت محتوياته تعكس خلاصة العقيدة والفكر اليهودى بعد مزجهما بالمنطق والجمال الاغريقى ، فهو يدور أصلا حول أمور حدثت فى فلسطين وحول كلمات معلم قضى فى الواقع كل حياته هناك •

وكثيرا ما يدعى أن الناحية العلمية من حفائر فلسطين قد أصابها ضرر بليغ بسبب المعتقدات الدينية التى كان يعتنقها العلمـــاء الذين قـــاموا بالتنقيب فى الارض المقدسة ، وقد قابل المؤلف عددا كبيرا من هؤلاء العلماء ولكنه نادرا ما يتذكر حالة واحدة كان فيها لارائهم الدينية تأثير خطير على أبحاثهم • وكان بعض هؤلاء العلماء نقادا متطرفين بينما كان البعض الاخر أشد تحفظا فى نقده ، مثل ارنست سيلن ، أما غيرهم فكانوا جد محافظين • ولكن ما توصلوا اليه من نتائج أثرية كان مستقلا الى درجة كبيرة عند الجميع عن أرائهم النقدية • وقد كانت هناك بعض المشكلات مثل مشكلة سر شارلز مارستون Marston الذى دفعه

---

(١) الحديث هنا خاص بالمقارنة بين الديانة السماوية التى بشر بهـــا موسى وبين الديانات الوثنية القديمة • [المترجمان]

حماسه غير المهذب الى تفسير بعض اكتشافات جارستنج وستاركى Starkey تفسيرا خاطئا • ولكن الدمار الذى أصاب الحياد العلمى من هؤلاء المنقبين الفلسطينيين بسيط فى الواقع اذا ما قورن بالخسارة الفادحة التى اصابت علم الدراسات المصرية نتيجة للنهب والسلب العام الذى قام به بلزونى وباسالاكوا Passalaqua والاحتكار التام لجميع أعمال التنقيب الذى فرضه ماربيت ، أو نهب وتخريب المقابر الملكية بلا رحمة كما فعل اميلينو [1] • ويجب ألا ننسى ان ما ناله بعض العلماء الاوائل من أمثال بترى Petrie وريزنر Reisner من اكاليل النصر الممتازة يرجع الفضل فيه لفلسطين • وكمثل على الحذر الذى رعاه الاثريون فى فلسطين ، يجدر بنا ان نذكر بترى وبليس وماكاليستر ، وواتزنجر ، وتبعهم تقريبا كل الاخرين ، فقد كانوا غالبا ما يضعون تواريخ منخفضة جدا ، على حين كانت التواريخ فى مصر عادة مرتفعة جدا • ومن ثم نرى منظرا عجيبا فالتواريخ الاثرية كانت تأخذ فى الارتفاع تدريجيا فى فلسطين ، بينما فى مصر تأخذ فى الانخفاض تدريجيا •

---

(١) لم يكن الاوربيون امثال بلزونى وباسالاكوا فى الاصل من علماء الاثار ، انما اهتموا بالاثار سعيا وراء سرقة الكنوز التى تملأ مقابر المصريين القدماء ، ولم يكن لهم اى فضل فى الكشف عن الحضارة المصرية بأية صورة من الصور ، انما يرجع الفضل فى ذلك الى علماء آخرين اشتغلوا بالدراسة فقط . اما ماربيت فلم يكتف بما نهبه من آلاف القطع الاثرية التى اخذها من سقارة الى بلده ، بل لكى يرضى جشعه انشأ مصلحة الاثار حتى يستطيع تحت ستار السلطة الرسمية السيطرة على جميع آثار البلد والتحكم فيها ، وتحت هذا الشعار وهو قانون حماية الاثار اخرجت اثار لا تحصى ملأت متاحف العالم ، بعضها لا نظير له اطلاقا ، تارة باسم القسمة ، وتارة باسم هبات ، وتارة باسم التجارة . ومن اشهر ما سرق بطرق لولبية خبيثة الملوك بالدير البحرى التى نقل جميع ما وجد بها من اثار دون استثناء الى متحف اللوفر ولندن نظير ثمن بخس دفع للصوص الذين عاونوهم فى هذه العملية . ولم يكتف اميلينو وبلزونى وغيرهم بنهب الاثار التى يمكن نقلها بل عمدوا الى تقطيع جدران المقابر والمعابد لسرقة اجمل نقوشها فشوهوا اثارا اكثر من تلك التى سرقوها . بل قد عمدوا أيضا الى نقل مقابر ومعابد باكملها الى بلادهم ولولا اعلان استقلال مصر فى سنة ١٩١٩ ، والخلاف الذى نشأ بين الفرنسيين والانجليز حول سرقة مقبرة توت عنخ امون ، لنقلت هى الاخرى الى الخارج ، وقد استطاع مكتشفها رغم ذلك من سرقة الجواهر النادرة ومنها التمثال الذهبى الوحيد الذى يمثل الاله امون اله طيبة ، وهو المحفوظ حاليا بمتحف المتروبوليتان بنيويورك ، ولا تزال المقصورة الذهبية لهذا التمثال محفوظة بالمتحف المصرى . المترجمان .

بيد انه لم يعثر فى فلسطين حتى الان ، على قطعة واحدة من بردية او استراكا تحتوى على جزء من التوارة من عصر ما قبل المكابى • فان النقوش التى أشرنا اليها وخاصة فى الفصل الثامن تعطينا فكرة واضحة جدا عن الزمن الذى ظهرت فيه الكتابات المدونة الاصلية للعهد القديم • ولذلك فان أشكال الحروف والهجاية فى تقويم جازر من أواخر القرن العاشر تبين لنا الخصائص الظاهرية لانواع الانشاء النثرى المبكر فى التوراة مثل قصة الوقائع التى سبقت موت داود وتتويج سليمان فى صموئيل الثانى • والهجاية فى تقويم جازر والنقوش الفينيقية المعاصرة تساعدنا على تحديد تاريخ فى نفس القرن للقصائد المبكرة مثل صموئيل الثانى ٢٢ (مزمور ١٨) ، كما تساعدنا على اثبات أن القصائد الاسبق مثل تنبؤات بلعام لا يمكن ان تكون قد كتبت فى تاريخ متأخر مناسب • واستراكا السامرة من أوائل القرن الثانى ، تعطينا فكرة دقيقة جدا عن الكتابة وأشكال الحروف التى استعملت فى عهد النبى هوشع • ونص سلوام من حوالى ٧٠٠ قبل الميلاد هو صورة صادقة لكتابة اشعياء وهجائه (رغم انه كان يستعمل ، على ما يحتمل فى كتابة رسائله الخاصة : خطا مختصرا الى حد ما) • وأهم من هذا كله وهو الضوء الذى ألقته استراكا لخيش على الكتابة والهجاء ولغة عصر ارميا •

والنقوش السابقة كلها كتبت بالعبرية وبعد النفى كانت النقوش اليهودية فيما عدا بعض نقوش قصيرة جدا على الاختام والنقود ، تكتب بالارامية • وقد امدتنا فلسطين نفسها بعدد من الاستراكا الارامية من السامرة ، تل الفرعة وفى غيرها من الاماكن ، كتبت بنفس كتابة ولغة البرديات والاستراكا اليهودية من القرن الخامس قبل الميلاد التى عثر عليها فى مصر • وكما سترى فيما بعد فهذه النصوص كتبت بنفس لغة عزرا الارامية (اذا وضعنا جانبا الهجاية المنقحة تنقيحا بسيطا ، كما فى عبرية ارميا) • وارامية دنيال هى فى جوهرها نفس الشىء ولكنها تدل على تاريخها المتأخر فى التفاصيل النحوية والكلمات الاغريقية الدخيلة •

وحتى عام ١٩٤٧ كانت مصر أكرم من فلسطين مع طلاب نص التوراة العبرية • وقبل أن تبدأ قصاصات البردى العبرية فى الظهور بمصر منذ بضع سنين ، كان أقدم مخطوط عبرى مؤرخ لاى جزء من العهد القديم هو كتاب بتروبوليتانوس Codex Petropolitanus من السنة ٩١٦

ميلادية • وقد أرخ بول كحلا P. Kahle عددا من البرديات غير المؤرخة بتاريخ يسبق ٩١٦ ميلادية ، ولكن الادلة الخطية غير كافية لاثبات تاريخ لا يشوبه الشك • وقد عثر فى البهنسا بالفيوم بمصر على بعض أجزاء من التوراة مكتوبة بالعبرية من العصر البيزنطى ولكن لا يبدو أى منها يسبق القرن الرابع الميلادى • وفى ١٩٠٢ عثر فى الفيوم على جذاذة ناش Nash التى تشتمل على الوصايا العشر وعلى الـ « شمع » (اسمع يااسرائيل) وقد أرخت فى أول الامر فى القرن الثانى الميلادى ، أو ربما الاول ، ولكن ما كان لازدياد معلوماتنا فى الوقت الحاضر زيادة كبيرة عن الكتابة الارامية — العبرية المعاصرة يثبت الان أنها تسبق عصر هرودس ويجب أن نضعها فى عصر ما قبل المكابى • والى نفس هذا العصر تنتمى جذاذة فؤاد عن التثنية الاغريقية ، وقد ترك فيها كاتبها أماكن خالية فى كل موضع وجد فيه فى النصوص الاغريقية المتأخرة كلمة Kyrios ، « الرب » ، وفى هذه الاماكن أضاف كاتب يهودى فيما بعد الاربع حروف الارامية (العبرى المربع) للاسم المقدس يهوه (الله) التى لم تعد تلفظ الان انما كانت تكتب فقط ويستعمل بدلا منها فى القراءة الكلمة «adonai» « ربى » • والحروف الارامية — العبرية التى استعملت فى كتابة كلمة « يهوه Tetragrammaton هى نفسها بالضبط تلك التى استعملت لنفس الغرض فى بردية ناش وهى قرينة تضيف اثباتا قويا جديدا للتاريخ المبكر للبردية الاخيرة •

وهذه الاكتشافات وان كانت تبشر بالخير ، الا أن أهميتها قد تلاشت الى جانب الاكتشاف الذى حدث عام ١٩٤٧ ، للمخطوط الذى صنع تاريخا • ففى ذلك التاريخ اكتشف بعض البدو كهفا قديما فى الصخر فوق النهاية الشمالية للبحر الميت • وقد عثر به على عدد من قدور كبيرة مهشمة ، حفظت بها بعض ملفات ثمينة من البردى فى أمان ، وكانت ملفوفة بقماش من التيل ومختومة بعناية • وقد أمكن الحصول على حوالى اثنى عشر ملفا من الجلد والرق التى بيعت لرهبان دير سانت مارك الارثوذكسى السورى فى القدس وللجامعة العبرية بالقدس • وقد بيعت — للاسف — أربعة ملفات منها كان قد أحضرها الى الولايات المتحدة البطريك السورى فى القدس الى اسرائيل ، وبهذا صارت كل ملفات البردى التى عثر عليها فى أول كشف محفوظة الان فى القدس المحتلة • وقد تم نشر جميع هذه الملفات باستثناء ملف واحد من الكشف

الاصلى ، بين ١٩٥٠ و١٩٥٤ • وقد خلقت ثورة فى معلوماتنا عن النقد النصى للعهد القديم العبرى ، ولطائفة الاسينيين Essene [1] ، وعن نشأة العهد الجديد • والمعارضة الأولى لقدم مادة قمران الجديدة وأصالتها سرعان ما انقشعت أمام ضخامة الادلة المؤيدة ، ولا يوجد الان أى شك فى أن تاريخها يرجع الى ما قبل الاحتلال الرومانى للمنطقة فى سنة ٦٩ ميلادية وتقريبا كل ملفات قمران سابقة للعصر المسيحى •

وفى تنقيب أول كهف فى قمران عثر ج • ل • هاردنج G.L. Harding ، ود • دى • فو R. de Vaux على جذاذات من أكثر من أربعين قدرا حفظت بها ملفات البردى ، كما عثر أيضا على كميات من التيل التى لفت بها الملفات • والفخار هيلنستى — رومانى ، من القرن الاخير للهيكل الثانى ٣٠ ق• م• — ٧٠ م • وقد أرخ التيل بواسطة الكربون المشع من عصر السيد المسيح ، مع وجود هامش كبير للخطأ لعدم التأكد من دقة الحساب • كما عثر على أشياء أخرى فى غاية من الاهمية فى كهف بالقرب من الكهف الاول يقع مباشرة أسفل مستعمرة الاسينيين أرخت بواسطة النقود من نفس العصر • وقد زودتنا أعمال التنقيب التى أجريت داخل هذا الكهف الجديد فى سنة ١٩٥٢ بكميات من جذاذات من ملفات البردى ، وهى تحتوى على أجزاء من كل سفر تقريبا من التوراة العبرية ، بالاضافة الى أسفار الاسينيين الاصلية • ومقتطفات من مؤلفات أبو كريفا وشبيهتها • وهى تمدنا ، بالاضافة الى القيمة الجوهرية لهذه الاكتشافات ، بأدلة خطية قاطعة على قدم ملفات البردى • وقد عثر فى ١٩٥٢ الى الجنوب منها ، بالمربعات ، على عدد من الوثائق والجذاذات بخط متأخر يؤرخ من عصر باركوخفاه (١٣٠—١٣٥ م •) ، وهى تؤيد أيضا تاريخا مبكرا لملفات قمران •

---

(١) الاسينيون جماعة من حملة الاسرار الصوفية العريقة الضاربة فى القدم الى ابعد الازمان ، وقد عاشوا فى وسط اليهود كأنهم يهود وهم فى الحقيقة ليسوا بيهود ولكنهم حملة أسرار باطنية قديمة غير مفهومة بل غير معروفة اطلاقا الا لفئة قليلة على وجه الارض . ولو ان غالبية الباحثين يظنون أنهم يهود الا انهم اقدم كثيرا من اليهود . (المترجم) .

ويفوق هذه الملفات كثيرا فى الاهمية ملف كامل لسفر أشعياء ، وهو سليم باستثناء ما تلف منه بفعل عاديات الزمن • وقد كتب هذا الملف ، حسب خطه ــ وهو أقدم بكثير ، فى نواحى عديدة من خط جذاذة ناش ــ فى وقت ما فى الهزيع الاخير من القرن الثانى أو الجزء الاول من القرن الاول قبل الميلاد ــ أى حوالى ١٠٠ ق • م • تقريبا • ومن ثم فهو أقدم بألف سنة من وثيقة بتروبوليتانوس كما هو أقدم أيضا بما يقارب ذلك من أقدم ملف للتوراة العبرية التى كان معلوما بوجودها قبل ذلك •

وخلافا لجذاذة فؤاد للترجمة الاغريقية (السبعينية) للتثنية يوجد جذاذة ريلاندس Rylands التى اكتشفت حديثا ، والتى تؤرخ من القرن الثانى ق • م • وهى بذلك أقدم ، فيما يحتمل ، من أى جذاذة من مخطوط تورانى كشف حتى الان • ويلى تلك فــى القــدم برديات شستربيتى التى يمكن تأريخها من القرن الثانى أو الثالث قبل الميلاد ، وهى أقدم بقرن أو قرنين عن أقدم رق مدون من التوراة الاغريقية ، التى تعرف فى الشائع باسم فاتيكانوس (نسبة الى الفاتيــــكان) Vaticanus وسيناتيكوس Sinaiticus (نسبة الى ســيناء) • وقــد سدت الاكتشافات الحديثة تقريبا الفجوة بين الترجمة الاصلية للتوراة العبرية الى اللغة الاغريقية خلال القرنين الثالث والثانى قبل الميلاد وبين آقدم اثبات مخطوط للترجمة السبعينية • وبهذا صرنا قادرين تقريبا على اعادة تركيب الكتابة والهجاء اللتين استعملتا فى كل عبارة تقريبا فى تاريخ التوراة العبرية وترجمتها الاغريقية • وعلى ضوء هذه الحقيقة ، فثمة اختلاف شاسع عما كان يحدث منذ قرن مضى ، عندما كان العلماء الاوروبيون المغامرون يؤرخون بجد تأليف جزء كبير من التوراة العبرية من أوائل العصر الرومانى • وحتى لا يبدو هذا الرأى لاذعا فى غير محله ، يمكن أن أضيف أن بعض العلماء الممتازين فى ذلك الوقت قد أرخوا جزءا من الاسفار أو حتى أسفارا بأكملها من التوراة العبرية فى القرن الاول قبل الميلاد ، وفى الفصل التالى سنلاحظ مثل تلك السخافات فى تاريخ أجزاء من العهد الجديد •

وعندما نتساءل الان عن كيف اتخذ العهد القديم شكله الحالى ، ننتقل الى حقل ساده ، دون منازع ، النقد الادبى المبنى على أدلة داخليــة حتى وقت قريب • أما الان فنرى أدلة خارجية تتدفق من الاكتشافات

الاثرية من كل البلاد المحيطة بفلسطين ، وخاصة مصر ، وسوريا ، وبلاد الرافدين وآسية الصغرى • وباضافة هذه الادلة الى الاكتشافات الاخرى بما فى ذلك الادلة على وجود العلاقات الثقافية التى أمكن الحصو لعليها من تلال فلسطين كما سبق أن أوضحنا ذلك فى فصولنا الاولى ، نستطيع الان أن نكون صورة مرضية الى حد ما للحالة على حقيقتها • وقد أحضر العبرانيون معهم من موطنـــهم الاصلى فى بـــلاد الرافدين[1] القصص المقدس الخاص «بنشأة العالم» الذى تعلموه فى هذه البلاد [2] • والى هذه القصص القديم الذى تواترته الرواية قرونا لم تعد ، أضيفت الروايات الشعرية عن آل يعقوب التى صيغت فيما بعد فى قالب القصص التاريخى النثرى الذى عاش فى التوراة • ثم جاءت الحوادث الخاصة بالخروج والتجوال التى هزت الروح والتى توارثتها الاجيال شعرا ونثرا ، مع تعاليم موسى وشرائعه • وبعد مـــا كانت وثائق العصر الموسوية مجموعة فى مصنفات مختلفة ، وضعت تدريجيا فى مؤلف واحد ، اســـتكمل شكله الحالى قبل عصر النهضـــة عند نهـــاية القرن السادس قبل الميلاد • وأسفار موسى الخمسة ، بصفة عامة ، أقدم كثيرا عن التاريخ التى نشرت فيه فى صـــورتها النهائيـــة • والاكتشافات الجديدة لا تزال تثبت الدقة التاريخية أو قدم التراث الادبى لفقرة بعد فقرة منه ، وحتى عندما يقتضى الامر فرض اضافات متأخرة للنواة الاصلية للرواية الموسوية فهذه الاضافات تعكس النمو الطبيعى للشرائع والتقاليد القديمة ، أو المجهود الذى بذله الكتاب المتأخرون للمحافظة على كل ما يمكن للروايات التى كانت ما تزال باقية عن موسى • ومن ثم فمن الرياء المحض أن ننكر الشخصية الموسوية الجوهرية فى الرواية المتواترة للاسفار الموسوية •

---

(١) لا توجد اى ادلة اثرية ثبتت هذا الزعم بأنهم جاءوا الى مصر من بلاد الرافدين ، وانما ذكر هذا فى التوراة فقط بمعرفة كتاب متأخرين اذ مر أكثر من الف عام بين رحيلهم من بلاد الرافدين كما يزعمون ومجيئهم الى مصر ثم ذهابهم الى فلسطين وبين الزمن الذى دون فيه أول جزء من التوراة .
المترجم

(٢) كان هذا القصص شائعا فى جميع أنحاء الشرق القديم ، وربمـــا نقله العبرانيون بعد دخولهم فلسطين اثر رحيلهم عن مصر ولو كانـــوا يعرفون هذا القصص قبل مجيئهم الى مصر لتركوا اثرا منه هنا واغلب الظن انهم تعلموه اثناء فترة النفى فى بابل • انظر صفحة ٢٤٦ . (المترجم) •

وبينما النواة القديمة للتوراة الاسرائيلية كانت تنمو فى شكلها الحالى أضيف اليها أجزاء أخرى • فأولا جاء الجمع التاريخى الكبير الذى قام به ما يعرف باسم مؤلف سفر التثنية ، وهو عالم متدين جدا ، برع غالبا قبيل نهاية القرن السابع ق • م • وقد جمع هذا المؤلف كمية ضخمة من المادة العلمية وبدأ بسفر التثنية (الذى نقل فيما بعد من مجموعته ووضع مع الاسفار الموسوية اذ هو ، طبقا لمحتوياته ، ينتمى اليها) ، وينتهى بالملوك الثانى ، وكل هذه الوثائق التى لا تقدر بثمن نسخت أو اختصرت بعناية فائقة ، وبعضها كتب كلمـة كلمة • ويتخلل كتاب مؤلف سفر التثنية اضافات مبعثرة وتعليقات بخطه كتبت بأسلوب متميز جدا يشبه الاجزاء النثرية من أرميا ورسائل لخيش فى بعض النواحى الهامة • ويمتاز هذا الاسلوب بأنه خطابى الى درجة كبيرة ولكن يغلب عليه الوضوح التام ، على الرغم من نحوه المعقد • وتعكس محتويات الاضافات التى كتبها مؤلف سفر التثنية النظرة التنبئية عن الصلة الوثيقة بين الخطيئة والعقاب ، وكذلك شعور المؤلف بالمصير المسلط على رءوس العباد •

وبعد مرور قرنين تقريبا على العمل التاريخى لمؤلف سفر التثنية جاءت المجموعة التى وضعها مؤلف « أخبار الايام » ، وهى مكونة من أخبار الايام الاول ، وأخبار الايام الثانى (Paralipomena) ، عـزرا ونحميا • ونجد هنا أيضا عناية مضنية وانتـاجا دقيقا لـمادة الجامع ، الذى اتبع مصادر مثل كتاب التكوين ، صموئيل والملوك ، وكـذلك مذكرات عزرا ، ونحميا • وبقية مادة مؤرخ أخبار الايام جاءت من وثائق أقدم مدونة ومن الرواية الشفوية ، ومن المدهش حقا أن هذه المادة المضافة على نمط واحد فى الاسلوب واللغة ، وتبين تأثيرا أراميا قويا على العبرية المنمقـة التى تبين أصـل مدرسى • زد علـى ذلك أن هذه المادة الاضافية تتفق فى الاسلوب واللغة وبعض النواحى الخاصة ، مع مذكرات عزرا المكتوبة على لسان المتكلم • واستنتج البعض من هـذه الحقيقة (مثال ذلك س • س • تورى) أن مذكرات عزرا متأخرة وليست أصلية (أبو كريفا) ، بينما استنتج البعض الاخر (ومنهم المؤلف الحالى) أن عزرا نفسه هو كاتبها • والحقيقة أن كل الاعتراضات المادية تقريبا للرأى الاخير ثبت عدم صحتها ، أو أنها فى الطريق الى دحضها بواسطة الاكتشافات الحديثة •

وقد وزعت الرواية المدرسية القديمة الادب الشعرى للعهد القديم على جميع مراحل التاريخ اليهودى تقريبا ، بينما كان علماء النقد الحديث يميلون الى تاريخ معظمه (فيما عدا نواة الاسفار النبوية القديمة) الى عصر ما بعد — النفى • وتتجه الاكتشافات الاثرية الى تكييف كل من الاتجاهين المتطرفين ، كما سنوضح ذلك فيما بعد بأمثلة معينة • فعلى ضوء المخلفات الاوغاريتية عن الادب الدينى الكنعانى ، يجب أن ينقل عدد كبير من المزامير الى الوراء ، أى الى أوائل الازمنة الاسرائيلية فى القرن العاشر على أكثر تقدير • وعلى هذا الاساس لا يوجد ما يدعو لرفض تاريخ داودى لهذه المزامير • ومن غير المحتمل فى نفس الوقت أن يخفض تاريخ أى واحد منها الى ما بعد القرن الرابع قبل الميلاد • والزعم القائل أن ثمة مزامير مكابية مؤرخة من القرن الثانى قبل الميلاد أو أوائل القرن الاول قبل الميلاد قد أصبح الان بعيدا كل البعد عن الصواب • وهذا الوضع نفسه نجده فى الامثال فاكتشاف مجموعات أمثال مصرية وسومرية من الالف الثالث قبل الميلاد جعلت قدم هذه الامثال أمرا محتملا ، بينما يوحى التشابه الموجود بينها وبين الادب المصرى والاكادى والكنعانى المتأخر (١) بأن الجـزء الاكبر من التوراة ينتمى الى عصور — ما قبل — النفى • ومن ناحية أخرى يوجد الان سبب أضعف من أى وقت لتأريخ أيوب والجامعة قبل القرون السادس والخامس ، والثالث قبل الميلاد على التوالى •

سنحت الفرصة فى الفصول السابقة لان نذكر أمثلة عديدة لاتفاق الحقائق التى كشفت عنها الاثار الفلسطينية مع نقط خاصة فى تاريخ التوراة • كما أشرنا أيضا الى قوة المقابلة العامة بين الدلائل الاثرية والادبية • ونظرا لندرة النقوش الفلسطينية المبكرة ، فلابد من تركيز اهتمامنا على أدلة ذات طبيعة أثرية بحتة • ومن الخدمات الرئيسية التى قدمها الاثرى الى عالم التوراة هو التعرف على المواقع الحديثة للبلاد القديمة المذكورة فى العهد القديم • ومما سهل هذا فى بعض الاحايين وحدة الاسماء القديمة والجديدة ، والتى تؤيدها المقابلة الموجودة بين التاريخ الاثرى والادبى لنفس الموقع ، والمثل الواضح

---

(١) ما يدعيه المؤلف من أن الادب المصرى والكنعانى والاكادى متأخر غير صحيح فالثابت أن بعض القصص يرجع الى عصور سحيقة فى القدم تسبق التوراة بقرون عديدة ولذا فعبارته غير واضحة . [المترجمان]

لخطوط الادلة المتقابلة هو موضوع جازر فقد تعرف كلير مونت ـ جانو Clermont-Ganneau (الفصل الثانى) على جازر التوراة فى تل جازر الحديث على أساس قوة الاسم الذى وجد أنه لا يزال محفوظا حتى الان ، وقد سبق أن سجل فى كتاب عربى من القرن الخامس عشر الميلادى • ثم اكتشفت بعد ذلك بوقت قصير عدة نقوش حفرت حفرا غائرا فى الصخر خارج المدينة القديمة ، وعليها الكلمتان الاراميتان « حدود جازر » مكتوبة بحروف من القرن الاول قبل الميلاد • وتؤيد حفائر ماكاليستر التالية التى يمكن الان تأريخ نتائجها تأريخا أدق مما كان ممكنا عند وقت الحفائر ، اكتشاف كلير مونت جانو تأييدا كاملا • بل أحدث من ذلك هو التعرف على لخيش فى تل الدوير ، الذى اقترح بعد مطابقة مادة التوراة وكتابات يوسبيوس فى القرن الرابع الميلادى ، على نتائج دراسة سطح الموقع ، والذى أيدته حفائر ستاركى تأييدا مدهشا • والاستراكا التى نشرها تورشينار Torczyner تذكر البلد فى متن يجبرنا فعلا على تحديد موقع لخيش فى تل الدوير ، ولكن هذا التحديد مؤكد حتى بدون هذا الدليل الكتابى •

وقد أمكن أيضا تحديد مواقع أثرية عديدة أخرى دون أدنى دليل من النقوش • فمثلا فى سنة ١٩٢٨ اكتشف جارستانج بلدة الجليل القديمة حاصور فى تل القاضى جنوب بحيرة الحولة Semechonitis بعد ماكد فى البحث عنها عدد من العلماء ، ومنهم المؤلف لمدة سنوات دون جدوى • ومكانها الاثرى يتفق اتفاقا تاما مع الدلائل الطبوغرافية من التوراة والمصادر الكتابية الاخرى ، ولا يوجد أى مكان آخر محتمل لحاصور • ولذا ليس من المستغرب ان كل طالب كفء رحب فى الحال بالتعرف على انه نهائى • وكثيرا من المواقع التى سبق التعرف عليها قد أجريت فيها بعد ذلك اعمال تنقيب أيدت التعرف تأييدا تاما • ومن الامثلة التى كان المؤلف على صلة بها فى عمله ، هى شيلوه وجبعة شاؤول (تل الفول) وبيت ايل ، وبيت زور حيث ثبت أن تاريخ الموقع الأثرى يتفق اتفاقا تاما مع الأدلة المستمدة من التوراة ويوسيفوس • وقد ازدهرت شيلوه فى عصر القضاة ثم هجرت بعد لحريق التى دمرها فى وقت لا يتأخر كثيرا عن منتصف القرن الحادى عشر قبل الميلاد • وهذا التدمير يتفق مع الحوادث التى ذكرت فى

صموئيل الاول • وبعد تدمير فلسطين ، بقيت شيلوه خربة قرونا عديدة كما ذكر ذلك مرارا فى ارميا • وقد سكنت جبعة أثناء عصر القضاة ودمرتها النيران على الاقل مرة واحدة فى ذلك الوقت ، كما روى فى القضاة : ٢٠ ، وقد بلغت ذروة ازدهارها فى العصر الذى تلا تدمير شيلوه مباشرة عندما توجت قمة التل بقلعة متينة البنيان تؤرخ من عصر شاؤل الذى سكن هناك حسب رواية التوراة • وقد أعرب علماء مختلفون عن شكهم فى أن بيت ايل هى بلدة بيت الدين Beitin الجديدة على الرغم من اتفاق الموقع الجديد اتفاقا تاما مع كل المستلزمات غير الاثرية ، لانه لا يوجد على ما يبدو أى أدلة أثرية على سكناها منذ وقت مبكر ، وعلى العموم ، فقد أثبتت أعمال التنقيب أن التاريخ الاثرى لبيت الدين يتفق مع الادلة الادبية من بيت ايل اتفاقا كاملا منذ أيام يشوع حتى أيام فسباسيان Vespasian وفى خربة الطبايقة ، شمال حبرون ، حيث حدد عدد من العلماء ، كل على حدة ، مكان بيت زور ، كشفت أعمال التنقيب عن اتفاق كامل مع بيانات المكابيين الاول • والمؤلف كان مديرا أو مستشارا أثريا للبعثات التى نقبت فى الاربع مدن الاخيرة التى ذكرناها ، ومن الطبيعى أن تترك نتائج هذه التنقيبات أثرا فى نفسه لا يمحى ، وهو أثر أيدته اكتشافات الاثريين الاخرين التى لا حصر لها • والحقائق التاريخية فى التوراة دقيقة الى درجة تفوق كثيرا آراء طلاب النقد المحدثين ، الذين كانوا دائما عرضة للوقوع فى الخطأ بسبب تطرفهم فى النقد •

وبفضل التحديد الاثرى لمواقع معظم الاماكن المقدسة ، فمن الممكن اثبات عمر قوائم عديدة للبلاد فى التوراة وأهميتها الاثرية • ومن خير الامثلة على ذلك قائمة مدن الهلال الخصيب فى يشوع : ٢١ والاخبار الاول : ٦ ، التى اعتبرها فلهاوسن ، وتبعه فى ذلك معظم النقاد الذين جاءوا بعده ، انتاج مصطنع من خيال أحد كتاب عصر ما ـ بعد النفى • وقد أكدت دون شك الدراسة الدقيقة لكل الحقائق الاثرية المعروفة ، ان القائمة أقدم كثيرا وأن الزمن الوحيد الذى كانت فيه كل البلاد المذكورة فى القائمة فى أيدى بنى اسرائيل كان ذلك فى عهد داود وسليمان ، ولم يمكن اثبات ان مدينة واحدة من مدن القائمة كانت قد تأسست فى عصر يلى منتصف القرن العاشر قبل الميلاد ، ولو ان عددا منها لا يمكن أن يسبق هذا التاريخ بوقت طويل ،

ويمكن أن يحدد تاريخا يقع بين ٩٧٥ و ٩٥٠ ق • م تقريبا للنسخة الموجودة من القائمة التى كان لها ، على ما يظهر ، تاريخ قديم ، يمتد حتى الغزو •

وآثار فلسطين قلما تساعدنا فى القاء ضوء مباشر على شخصيات التوراة ، ويرجع ذلك على وجه أخص الى ندرة النقوش • وفى الواقع ذكرت شخصيات من التوراة فى النقوش التى عثر عليها خارج فلسطين أكثر مما ذكرت فى الوثائق التى عثر عليها فى فلسطين ، وان كان يوجد ضوء كثير غير مباشر • فقد أصبح من الميسور الان تقدير تاريخ حياة آل يعقوب (الاباء) ، ويشوع وجدعون وشمشون وصموئيل ، وشاؤل ، وداود وسليمان عما كان عليه فى الماضى • والضوء البسيط الآن على أعمال البناء التى قام بها شاؤل وداود ، والمعلومات الجديدة الغزيرة الخاصة بمبانى سليمان (الفصل السادس) هى عون لنا ، نحن بحاجة اليه ، لفهم تطور الحضارة المدنية الاسرائيلية تحت حكم هؤلاء الحكام لاسرائيل المتحدة الذين صاروا بذلك أشخاصا لهم كيان أكثر مما كانوا فى الماضى • وقد صارت حوادث الاسرة العمرية (آل عمران) وعصر يربعام الثانى أكثر وضوحا الان اذ نعرف ما كانت عليه حضارة السامرة فى أيامهم • وهذا ينطبق أيضا على أيام عزيا وحزقيا فى يهوذا • ونهاية مملكة يهوذا قد صار واضحا بفضل اكتشافات لخيش وتل بيت مرسيم وغيرهما من المواقع ، حتى ان العلماء الاكفاء لا يمكن أن يخطئوا الان خطأ كبيرا فى ترجمة حياة ارميا وأيامه •

سنحت لنا الفرصة فى الفصلين الخامس والثامن أن نذكر الاكتشافات المثيرة للنصوص الادبية الكنعانية التى عثر عليها فى أوغاريت (رأس الشمرا) على ساحل سوريا الشمالى • تقع أوغاريت عند النهاية الشمالية لكنعان ، التى كانت تشمل كل غرب فلسطين ، وكان أهلها يتكلمون لهجة كنعانية ، وكتابهم ينسخون الملاحم الكنعانية ، التى تدور حول الاعمال الخرافية للالهين بعل وعنات ، وحول المغامرات الاسطورية للبطلين كرت واقحات (ابن دانيال المذكور فى حزقيال : ١٤ و ١٨ بين نوح وأيوب على انه أحد أحكم الحكماء القدامى) • يمكن أن يظهر من محتويات كل هذه الملاحم أنها نشأت فى قلب الحضارة الكنعانية ، أى فى فينيقية ، ولابد انها عرفت أيضا فى البلدان

الكنعانية بفلسطين حوالى ١٤٠٠ ق. م. مثلما كانت معروفة فى أوغاريت ، والنقوش الفينقية من جبيل فى القرن العاشر قبل الميلاد تذخر بالذكريات الادبية لهذا الادب الملحمى .

النصوص الدينية من أوغاريت كان قد كشفها كلها تقريبا س . ف . أ. شيفر Schaeffer بين ١٩٢٩ و ١٩٣٣ ، ومنذ ذلك التاريخ لم يعثر على أى ألواح ذات طبيعة دينية الا نادرا . وقد لاحظ فى الحال شارلز فيرولود C. Virolleaud الذى نشر هذه الوثائق ، أمثلة عديدة للتماثل الموجود بين الاسلوب والمتن الادبى الاوغاريتى والعبرانى ، ولكن فى عام ١٩٣٦ فقط أبدى هـ . ل جينزسبرج H. Ginsberg بعض ملاحظات عن العناصر التكوينية المشتركة كان لها تأثير واسع . فقد بين ان فى الشعر العبرى نجد أحيانا صيغة مميزة جدا تكررت فى الادب الاوغاريتى ، أ ــ ب ــ جـ : أ ــ ب ــ د ، التى يمثل كل حرف فيها كلمة مستقلة ، أو كلمتين قصيرتين ، وقد كررت الكلمتان الاولتان فى النصف الثانى من البيت الشعرى . وللسهولة يمكن أن نطلق على كل نصف بيت شطرا وكل بيت شطرين ، والاصطلاحان stich و distich) أو hemistich و stich استعملت للدلالة على نفس وحدات الشعر . وقد بين جينزبرج أيضا أن هذه الصيغة الاصلية كانت تمتد عادة فى كل من الادبين الى ثلاث سطور ، كانت تختلف فيها صيغ التكرار الى حد ما . والشعر الكنعانى كان فى الاصل يعتمد على النبرة ، أى أنه كان يتكون من أربع أو خمس أو ست تفاعيل كل منها منبورة . وهناك ما يدعو للاعتقاد بأن الحروف الساكنة كانت فى الاصل أيضا تعد ، ولكن الادلة غير كافية ، وان كنا متأكدين تمام التأكد ان الحروف الساكنة غير المنبورة لم تكن تعد فى الشعر العبرى الكلاسيكى . ومن أجود الامثلة لهذه الصيغة الاسلوبية الخاصة وفى نفس الوقت من خير الاثباتات عن استمرار العناصر الادبية الكنعانية فى الادب العبرى ثلاثة شطور من لوح من ملحمة بعل ، التى تصف المعركة بين اله العاصفة ووحشى البحريام (الذى يظهر أيضا فى الشعر العبرى) :

هوذا ، أعداؤك ، يا بعل

هوذا ، أعداؤك يبيدون

هوذا ، أنت تقضى على أعدائك .

وفى مزمور ٩٢ تتكرر هذه الفقرة مع تغيير بسيط كالاتى :

هوذا ، أعداؤك يارب
هوذا ، أعداؤك يبيدون
كل فاعلى الاثم يتبددون .

والثلاث شطور تظهر فى ملحمة اقحات (دانيال) مرارا ، ومن خير الامثلة ما يأتى :

هل تسأل عن الحياة ، أيها الولد اقحات ؟
هل تسأل عن الحياة ، وسأهبها لك
حياة أبدية ، وسأمنحها لك .

ووجدنا فنون أسلوبية مشابهة فى نشيد دبورة القضاة : ٥ ، ٣٠

غنيمة ثياب مصبوغة لسيسرا
غنيمة ثياب مصبوغة مطرزة .
مصبوغة ومطرزة من أعناق الغنمان (١) .

ومدى اختلاف الاساليب في هذا النوع من صيغ الشعر كبير جدا ، ولكن التكرار الايقاعى للكلمات شائع لدى الجميع ، ونعرف الان انه كان شديد الانتشار فى الشعر الاسرائيلى خلال القرنين الثالث عشر والثانى عشر ق . م . ولكن سرعان ما أهمل بعد ذلك ، ثم ترك نهائيا فى القرن العاشر ، الا فى حالة استخدام قصائد كنعانية قديمة لاغراض اسرائيلية أو حيث أعيد استعمال أبيات أو فقرات شعرية فردية فى الشعر تقليدا للقديم . والازدواج (٢) هو من خصائص نشيد مريم (الخروج ١٥) الخاص بخروج بنى اسرائيل من مصر[٣] ، وفى نشيد دبورة المتصل اتصالا وثيقا بالموضوع نجد وصفا لانتصار اسرائيل على سيسرا قبيل القرن الثامن عشر . وفى هذين النشيدين نجد ازديادا فى الازدواج فاق كل ما وجد حتى الان فى

---

(١) فى النسخة العربية ترجم الشطر الاخير على الوجه الآتى :
« ثياب مصبوغة مطرزة الوجهين غنيمة لعنقى » . المترجم
(٢) الازدواج : الاتيان بعبارات مترادفة جنبا الى جنب . المترجم .
(٣) قصة خروج بنى اسرائيل من مصر المذكورة فى القرآن . المترجم .

الادب الاوغاريتى أو فى الشعر الاسرائيلى المتأخر (باســتثناء مزمور ٢٩ ومزمور حبقوق الذى اتبع فيه الاسلوب القديم) • وهذه الحال لا يمكن أن تكون محض صدفة ، وخاصة ان الاسلوب الادبى لقصيدة النصر ، التى تحتفل بانتصار حربى ، كان فى ذروة شعبيته فى العصور القديمة ، والامثلة غير الاسرائيلية من هذا العصر هى القصائد المصرية التى تصف انتصار رمسيس الثانى على الحثيين ، ثم قصائد انتصار ابنه منفتاح على الليبيين والاسرائيليين، وانتصار رمسيس الثالث على شعوب البحار، وكذلك قصيدة النصر الكبيرة للملك الاشورى توكولتى — نينورتا الأول تخليدا لانتصاره على البابليين • ولو كان لدينا قصائد نصر كنعانية أصيلة من نفس القرنين الثامن عشر والثالث عشر لوجدنا بكل تأكيد ازديادا مماثلا فى الازدواج •

وفى هذه المناسبة فمن المفيد ان نبين أن نشيد دبورة ينسبه كل علماء النقد عادة الى الفترة الاولى من عصر القضاة ، على حين أن نشيد مريم ، رغم شدة التشابه فى الاسلوب بينه وبين النشيد السابق يعتبر متأخرا عنه كثيرا حتى ان جزءا منه ينسب الى عصر ما بعد النفى • ويرجع هــذا التاريخ المتأخر الى حد كبير الى ماذكر فى الخروج ١٥ : ١٧ عن جبل ميراثك « على انه مكان سكن يهوه على الارض » • فليس غريبا اذن أن يؤخذ هذا التعبير على انه اشارة الى جبل صهيون وهيكل سليمان (أو زر بابل) • ولكن مما يناقض هذا الجدل المقنع أن بيت بعل فى الملحمة الكنعانية ، التى ألفت قبل عام ١٤٠٠ قبل الميلاد ، قيل أيضا انه كان على « جبل ميراثك » • ونتيجة لهــذا ، ولغــيره من الحقائق المشابهة ، لا يوجد سبب واحد صحيح لتأريخ نشيد مريم الى ما بعد القرن الثالث عشر قبل الميلاد • وهذا بالطبع لا يعنى أن كل عبارة أو بيت هى من نفس القدم حيث ان هذه القصائد القديمة رويت أجيالا عديدة بواسطة الكلام الشفوى •

وثروة الادلة الكنعانية الجديدة على الكلمات أو العبارات النــادرة والقديمة فى عبرية التوراة مذهلة ، وهذه تساعد اللغويين تدريجيا على ايضاح كثير من المسائل الغامضة التى حيرت المترجمين منذ زمن أوائل المترجمين الاغريق فى القرنين الثالث والثانى قبل الميلاد • هاك بعض الامثلة فى مزمور ٦٨ : ٤ يوجد التعبير الغريب الذى كان يترجم عادة

ترجمة حرفية هكذا » « الراكب على المغارب » (١) أو حسب تخمين معقول « الراكب على السماوات » • وهذه العبارة تتكرر مرارا فى اللغة الاوغاريتية مع اختلاف بسيط جدا فى الحرف الساكن من الهجاية العبرية المتواترة هكذا : « الراكب على السحب » مشيرا بذلك الى اله العاصفة بعل • وقد أطلقت هذه التسمية الجميلة فى الشعر العبرى على يهوه ، دون أن تحمل معها أى معنى من القصة الخرافية • وفى مزمور ٨٩ : ١٩ نجد الترجمة الاتية فى التوراة : « جعلت عونا على قوى ، رفعت مختارا من بين الشعب » ، بينما تثبت الوقائع الاوغاريتية أنه يجب أن يترجم كالاتى : لقد عينت فتى على الرجل القوى ، ورفعت شابا على الشعب » ويدل سياق الكلام على أن المقصود هو داود •

وثمة كلمات جديدة كثيرة يجب ضمها الان الى القواميس العبرية التى ستعمل فى المستقبل من بينها الكلمة الدالة على « الترجيج » : الذى تعرف عليها أولا هـ • ل • جينزبرج Ginsberg والان ربطت مع كلمة تظهر فى كل من الادب الاوغاريتى والحثى • أمثال ٢٦ : ٢٣ فى ترجمة التوراة المعترف بها : « فضة زغل تغشى شقفة هكذا الشفتان المتوقدتان والقلب الشرير » ، وهو تعبير يستحيل فهمه من الناحية الاثرية الى جانب غموض معنى كلماته ، ويجب أن نترجمه الان كما يلى : « ترجيج متيبس على فخار هـكذا الشفتان الملساوان والقلب الشرير » • وتعبير آخـر غير مفهوم حتى الآن فى الامثـال (٢١ : ٩ و٢٥ : ٢٤ « بيت حبر » فى الترجمة الانجليزية « بيت كبـير » (فى التـرجمـة العـربية) بيت مشـترك » فى اللغتين الاوغاريتيـة والاشورية يوجد هذا التعبير ، ونطقه الصحيح « بيت خوبورى » ، وقد كان يترجم « بيت الخزين » ولكن نصا للملك الاشورى القديم اريشـوم نشره لاندزبرجر Landsberger أثبت الان أن معناه خمارة ، أو بيت الخمور أو البيرة » (٢) • ومن ثم يصير معنى شـعر التوراة : « السكنى فى ركن سطح خير من العيش مع امرأة صـاخبة فى خمارة » ـــ المعنى المراد واضح •

---

(١) فى الترجمة العربية للتوراة : « الراكب فى القفار » . المترجم •

(٢) خوبورى اذا كتبت بالطريقة العربية الحديثة المختصرة تصـبح خبر والياء انقلبت ميما ، فتصبح هى نفس الكلمة العربية خمر وخمور • المترجم •

وقد ألقى الضوء على مئات من الكلمات الاخرى ، بما فى ذلك الكلمات التى أمكن استنتاج معانيها ، دون امكان اثبات ذلك ، وكذلك على كلمات كثيرة لاتزال معانيها مشكوكا فيها ، ومن الامثلة الواضحة أشعياء ٢٧ :

حيث تعطى ترجمة التوراة المعترف بها : « فى ذلك اليوم يعاقب الرب بسيفه القاسى والعظيم الشديد لوياثان الحيـة النفـاذة حتى لوياثان ، تلك الحية العاقة [1] ويقتل التنين الذى فى البحـر » • ملحمة بعل فى أوغاريت تدعو لوياثان (لوتان) بالافعى ، مستعملة تماما نفس الصفات التى ترجمت أعلاه « نفاذة وعاقة » ، والهجاية والمعنى الجديدان اللذان وجدت فيهما هاتان الكلمتان تساعدان كثيرا على تفسيرهما ، كما يشير هذا الشعر أيضا الى التنين فى البحر ، ونفس هذا الوحش قد ذكر فى النصوص الاوغاريتية •

وفى أحيان أخرى تؤيد الادلة الجديدة الترجمـة القديمـة ضد التجديدات التخمينية الحديثة فمثلا فى التكوين (١) : ٢ فالكلمـات « وروح الله يرف (فى النص الانجليزى يتحرك) على وجه المياه ، حاول بعـض العلماء المحـدثين أن يفسروها على أن « ريحا عاتيـة « حرفيا ريحا الهيا » هب على ميـاه المحيط الازلى » ، بينما علمـاء آخرون اعتمدوا فى تفسيراتهم على الخرافات الفينيقية ، ترجموها وروح الله رخمت (مثل الطير الراخم) على المياه (لتفقس الحياة من الهيولى » • وفقرات عـديدة من ملحمـة أقحات تؤيد بوضـوح المعنى المقترح من التثنية ٣٢ ـــ : ١١ « يحوم بجناحيه كالنسر » [2] • ومن هـذا أصبح من المؤكد أنه يجب أن نعـرب التكوين ١ : ٢ وروح الله يرف على وجه المياه » •

وكما هو الحال فى كثير من الاكتشافات الاثرية المثيرة الاخرى ، ففى بادىء الامر غالى بعض الثقاة الممتازين فى الاهمية التاريخية لهذه المادة الجديدة وكانوا يعتقدون أن الادب الاوغاريتى قد ألقى ضوءا مباشرا على بداية تاريخ اسرائيل وعلى عصر آل يعقوب • واسم تارح أبو ابراهيم وكذلك أشخاص غيرهم فى التكوين أخطىء فى الكشف عنهم فى

---

(١) النص الانجليزى يختلف اختلافا بسيطا عن النص العـربى . المترجم •

(٢) فى النص العربى للتوراة : كما يحرك النسر عشه وعلى فراخه يرف ويبسط جناحيه ويأخذها ويحملها على مناكبه • المترجم..

الوثائق الجديدة الغامضة • وقد ظن أن بداية تاريخ كنعان قد تداخل بصورة ما مع تاريخ بنى اسرائيل المبكر وان قصص آل يعقوب فى التكوين وحكايات أوغاريت هى فى بعض أجزائها نسخ مختلفة من نفس الحكم الاصلية ، وهذه الاراء غير الناضجة قبلها كتاب كثيرون ، كما وجدت طريقها الى كتب يكثر تداولها • أما الان فقد تركها فى الواقع كل طلاب الادب الاوغاريتى ، نظرا لانهم لم يستطيعوا تتبع معلوماتنا التى تتزايد بسرعة عن قواعد هذه اللهجة الكنعانية الجديدة ومعجمها • وان كان سيمر وقت طويل قبل أن تمحى الاثار الباقية لامثال تلك الشوارد من الكتب الحديثة المتداولة التى تعالج تاريخ التوراة •

ومن ناحية أخرى ، فالاكتشافات العظيمة التى قام بها أندرية باروت André Parrot فى مارى فى أواسط الفرات (الفصل الخامس) منذ ١٩٣٥ ، هى على وشك تزويدنا بأخبار حقيقية عن عصر آل يعقوب وألواح مارى هذه وما يكملها من اكتشافات معاصرة أو متأخرة عنها التى قام بها مالاوان Mallowan فى جيكى بزار فى شمال غرب بلاد الرافدين والتى قام بها شيرا Chiera وغيره فى نوزى (يورغان تبة) فى شمال شرق بلاد الرافدين ، ستوضح كل نواحى العصر الذى نتحدث عنه • ويتولى دوسن Dossin وجين Jean نشر الالاف من ألواح مارى • وكل كتاب جديد ينشر يساعدنا على تفهم حياة وأزمنة آل يعقوب • فابراهيم واسحاق ويعقوب لا يظهرون الان كأفراد معزولة أو انعكاسات ضعيفة للتاريخ العبرى المتأخر ، بل هم يظهرون الان كأبناء حقيقيين لعصرهم ، يحملون نفس الاسماء ، ويجوبون نفس البقاع ، ويزورون نفس البلاد ، خاصة حاران وناحور ، ويمارسون نفس العادات مثل معاصريهم • وبمعنى آخر فقصص آل يعقوب يعتمد على نواة تاريخية فى كل أجزائه ، وان كان من المحتمل أن الرواية الشفوية طوال أجيال عديدة للقصائد الاصلية والحكم النثرية المتأخرة التى تكون أساس النص الحالى للتكوين قد كانت سببا فى تحريف الحوادث الاصلية تحريفا كبيرا • وهذه الطريقة وهى رواية الحوادث القديمة شفويا من جيل الى جيل أدت الى ضياع كثير من التفاصيل التى قد تهم المؤرخ الحديث ، ولكنها فى الوقت نفسه قد أعادت صياغة الرواية فى صورة درامية ، مؤكدة القيم الدينية والتعليمية بها • وهذا الكسب يفوق كثيرا أى خسارة محتملة •

ومثل جدير جدا بالاعتبار يبدو أنه الفصل الرابع عشر الغامض من سفر التكوين الذى يصف انتصار ابرام (ابراهيم) على ملوك بلاد الرافدين وعلى رأسهم كدر لعومر ملك عيلام • ومنذ جيل مضى كان معظم النقاد يعتبرون هذا الفصل متأخرا جدا ، ولا يوجد له أى سند تاريخى اطلاقا • أما الان ، فلا يمكننا قبول مثل هذا الحل السهل للخروج من المعضلات التى يقدمها هذا الفصل منذ أن كانت بعض توريياته سحيقة فى القدم ، اذ تنقلنا مباشرة الى عصر البرونز الوسيط • فمثلا الكلمة الغريبة الدالة على « الاتباع » : المستعملة فى البيت ١٤ ، والتى لم تتكرر مرة ثانية فى أى مكان آخر فى التوراة ، يعرف الآن أنها كلمة مصرية استعملت فى نصوص اللغة من آواخر القرن التاسع عشر قبل الميلاد للدلالة على « اتباع » رؤساء العشائر الفلسطينيين ، واستعملت فى نفس المعنى بعد أربعة قرون فى احدى ألواح طاناش (تاعاناكا ، تعنك) وعدد من المدن المذكورة فى هذا الفصل ثبت الآن أنها شديدة القدم ، والكلمات والتعبيرات الشعرية القديمة التى يذخر بها الفصل هى دلالات واضحة على صيغ شعرية قديمة كانت أساسا للنص الحالى •

ومثل آخر هو قصة الخروج التى أدت أهميتها الدائمة الى روايتها قرونا فى صيغ شعرية ونثرية ، وقد جددت وحرفت أثناء ذلك ورغم هذا فقد بقيت قصة التوراة فى صلبها تاريخية • فمثلا بعثة جامعة كاليفورنيا الى سيناء فى عام ١٩٤٧ — ١٩٤٨ التى اشترك فيها المؤلف أثبتت تفاصيل جغرافية كانت دائمة تنكر • وبالمثل ، فقد أثبتت دراسة المؤلف لقائمة هيز Hayes عن الاسرى الاسيويين فى سنة ١٩٥٤ ، أنه حتى مثل تلك النقاط التافهة مثل أسماء القابلات (الخروج ١ : ١٥) كانت صحيحة فى القرون الوسطى من الالف الثانية ، بالرغم من التأكيد السابق على عكس ذلك •

الفصل الحادى عشر

العهد الجديد والاثار

ان تطبيق نتائج الابحاث الاثرية فى فلسطين على العهد الجديد لاشد صعوبة عنه فى حالة العهد القديم • فبينما جزء كبير من محتويات الكتب التاريخية من العهد القديم قومى فى نظرته ، اشترك فى الحوادث التى رويت فى العهد الجديد ، كقاعدة ، فقط فئة صغيرة من أفراد غير رسميين • كما أن تأثير علم الاثار على دراسات العهد الجديد لا يبدو واضحا ايضا ، لان معلوماتنا عن العصر اليونانى ــ الرومانى من تاريخ البحر المتوسط احسن نسبيا من المرحلة الشرقية القديمة السابقة لها قبل بدء اعمال التنقيب الحديثة • وعلى الرغم من ذلك فللاثار فى هذه المرحلة من تاريخ التوراة اهمية عظمى لا تزال تنمو سنة بعد اخرى •

لا يوجد اى مؤلف من العصر اليونانى ــ الرومانى القديم مدعم بالوثائق مثل العهد الجديد ، اذ توجد وثائق مبكرة عديدة للعهد الجديد اكثر مما يوجد لاى مؤلف كلاسيكى آخر ، واقدم بقايا كبيرة منها تؤرخ حوالى قرنين فقط بعد التأليف الاصلى لها • والمخطوط الوحيد للعهد الجديد الاغريقى الذى يسبق القرن الخامس او السادس الميلادى الذى عرف بوجوده منذ قرن مضى هى وثيقة الفاتيكان (Codex Vaticanus) وهو نص مكتوب على رق محفوظ فى مكتبة الفاتيكان ، ولكن فى ذلك الحين كان يستحيل على العلماء الوصول اليه ، ونادرا ما استعمله نقاد النص على الاطلاق • وفى ١٨٥٩ اكتشف العالم الالمانى قنسطنتين تيشندورف C. Tischendorf وثيقة مكتوبة على رق من نفس التاريخ القديم فى دير سانت كاترين بسيناء ، وقد امكنه الاستحواذ على هذا النص الثمين لحساب قيصر روسيا (١) •وفى ١٩٣٣ اشترت الحكومة

---

(١) هذا مثل واضح يبين كيف عمد الاوربيون الى سرقة كل الوثائق الهامة من بلادنا . المترجم .

البريطانية وثيقة سيناء هذه (Codex Sinaiticus) التى اصبحت اهم كنز فى المتحف البريطانى ، الذى يحتـــوى الان على اثنين من أهم ثلاث مخطوطـــات للانجيل الاغـــريقى فى العـــالم (والثانى هو وثيقـــة الاسكندرية Codex Alexandrinus من القرن الخامس) • ونظرا لانهما مؤرخان من النصف الاول من القرن الرابع الميلادى ، فوثيقة الفاتيكان ووثيقة سيناء تمثلان الان اقيم مصـــدرين فى الوجود لنص العهد الجديد •

وبعد حوالى سبعين عاما من اكتشاف وثيقة سيناء ، اعلن فى ١٩٣١ عن كشف لا يقل اهمية عن الكشف السابق : اوراق بردى للعهد الجديد ضمن مجموعة شستربيتى ، حوالى ١٢٦ ورقة غير كاملة تنتمى الى اسفار العهد الجديد وجدت مشتملات هذه المجموعة ، وجميعها قد نسبها سر فردريك كنيون F. Kenyon وزملاؤه الى أوقات مختلفة من القرن الثالث الميلادى • ويعتقد ان جذاذات الاناجيل ترجع الى النصف الاول من نفس القرن • وفى ١٩٣٥ نشر س• هـ روبرتس C. Roberts جذاذات من بردية من انجيل يوحنا الذى كان قد وجده ضمن كنز مكتبة جون ريلاندس فى منشستر ، وعلى الرغم من انها قصاصة ، فلها اهمية قصوى ، لانها كتبت بخط ينسب الى عصر تراجان او على وجه اكثر احتمالا الى هدريان (توفى سنة ١٣٥ م) • وفى نفس السنة نشر هذا هـــ • ى • بل H. I. Bell ، و •ت • سكيت Skeat جذاذة كبيرة من بردية بالمتحف البريطانى تحتوى على جزء صغير من قصة حياة السيد المسيح معتمدة على الاناجيل الاربعة جميعا ، بما فى ذلك انجيل يوحنا • وقد عالج المؤلف الاصلى مصادره بحرية اكثر عما كان يعتبر مسموحا به من الموفقين المتاخرين ، مثل تاتيان Tatian ، الذى كتب فى أواخر القرن الثانى (جزءا من رق عن « توافق الاناجيل الاربعة » ، من اوائل القرن الثالث الميلادى ، عثر عليها س • هـــ • كريلنج فى دورا ونشرها أيضـــا فى ١٩٣٥) • والذى يثبت التاريخ المبـــكر لنسخة التوافق المحفوظة بالمتحف البريطـــانى خطهـــا الذى يرجعـــه المتخصصون الاكفاء الى النصف الاول من القرن الثانى الميلادى •

وهذه الاكتشافات الهامة قد وجهت الضربة القاضية الى الاراء النقدية المتطرفة للعهد الجديد من امثال تكهنات مدرسة توبنجن Tübingen

التى اسسها ف • س • باور F. Baur ، والمدرسة الهولاندية التى يرأسها فان مانن Van Manen وحسب رأى مدرسة توبنجن فان أقل من ستة أسفار من العهد الجديد قد كتبت فى القرن الاول الميلادى ، أما انجيل يوحنا فقد كتب متأخرا فى النصف الثانى من القرن الثانى ، كما انكر فان مانن ، ولومان Loman واتباعهم، صحة كل رسائل بولس التى يرجعونها أيضا الى القرن الثانى • وتاريخ ليوحنا فى النصف الاول من القرن الثامن قد ظل شائعا فى دوائر التوراة المتطرفة حتى وقت قريب جدا • وقد حدث تحت ضغط الاكتشافات الجديدة ، رد فعل قوى كان له سند مادى فيما ذهب اليه س•س• تورى وهو ان انجيل يوحنا هو ترجمة لنص ارامى كتب قبل عام ٧٠ ميلاديا بالتاكيد • ويعتبر الان بعض العلماء المتطرفين (منهم اروين جود — انف E. Goodenough انجيل يوحنا على أنه أقدم الاناجيل بعد ما كان يعتبر آخرها •

سبق ان ناقشنا فى الفصل الثامن النظرية القائلة بان مصادر الاناجيل كانت مكتوبة بالارامية بشىء من الاسهاب ، مدللين على ان الادلة الاثرية لا تؤيد هذا الرأى • ومن ناحية أخرى ، أوضحنا ان مسألة المصادر الشفوية الارامية قد قويت بدرجة كبيرة بناء على الابحاث الحديثة • وبعبارة اخرى فروايات الاناجيل قد نشأت فى مجتمعات تتكلم الارامية فى فلسطين ، ولم تنتقل الى اللغة الاغريقية الا بعد تشتيت المسيحيين الذين من اصل يهودى من فلسطين خلال الثورة الاولى ٦٦ — ٧٠ ميلادية ، وافترض احدث علماء العهد الجديد انه لم يحدث الا اضطراب بسيط نسبيا فى حياة المجتمعات المسيحية فى فلسطين نتيجة للثورة الاولى • وقد اثبت علم الاثار عدم صحة هذا الراى على الاطلاق تماما كما سبق أن وجدنا ان هذا صحيح ايضا عن افتراضات حديثة مشابهة فى نتائج الغزو الكلدانى ليهوذا فى اوائل القرن السادس قبل الميلاد (الفصل السادس) • ولما كانت هذه الحقيقة غير معروفة بصفة عامة ، لذا يلزم بعض الايضاح •

فبعد سنوات من جمود متزايد من جانب السكان اليهود فى فلسطين تخللتها اضطرابات متكررة كانت تخمد بقسوة ، قامت الثورة الاولى فى ٦٦ م • واستمرت أربع سنوات • وخلال هذه الفترة قاسى اليهود

فى الجليل والقدس أكثر من غيرهم منذ ان كان فيهما المركزان الرئيسيان للثورة • ومعظم السكان اليهود الذين نجوا من الموت بيعوا رقيقا • ومما يوضح اكتمال هذا القصاص انه لم يعثر حتى الان على مجمع واحد من أوائل العصر الرومانى فى أى جزء من فلسطين• وكل اطلال المجامع المعروفة تنتمى الى نهاية القرن الثامن الميلادى او بعد ذلك (انظر أعلاه فى الفصل السابع) والدمار الذى نشرته الجيوش الرومانية ازاء هذا ، زاد عليه كثيرا السكان الوثنيون الاصليون الذين ذبحوا اليهود ودمروا منازلهم وابنيتهم العامة • وبعد اخماد الثورة الاولى ، ظلت حال اليهود فى غاية من البؤس وانتقل المركز الرئيسى للحياة اليهودية فى فلسطين الى السهل الساحلى حول يافا واللد • وقد افترض فى وقت ما ان اليهود قد عادوا الى بيت المقدس واستمروا فى القيام بشىء من الحياة الاجتماعية هناك ، ولكن الادلة الاثرية تقف ضد هذا الراى تماما • اذ لا يمكن تاريخ مقبرة واحدة من مقابر اليهود العديدة التى نقب فيها فى منطقة القدس الى ما بعد عام ٧٠ تقريبا ميلاديا ، وكل صندوق عظام مكتوب كشف عنه حتى الآن بالقرب من بيت المقدس ينتمى الى القرن الاخير من الهيكل الثانى (٣٠ ق • م • — ٧٠ م •) •

وقد قاسى المسيحيون أكثر مما قاسى بقية السكان اليهود ، نظرا لان جيرانهم الوثنيين قد عاملوهم على أنهم يهود ، كما كرهتهم عشيرتهم لكونهم دعاة سلام وهزيمة ، بالاضافة الى كفرهم أيضا • وفى احدى حوادث انفجار الشعور المرير ضد المسيحية التى اشتعلت خلال السنين التى سبقت الثورة الاولى مباشرة ، قتل يعقوب ، أخو عيسى [1] ، ورئيس الطائفة المسيحية ، فى اورشليم • ومن أكبر الاحتمالات ان غالبية المسيحيين فى اورشليم والمدن الكبيرة فى الجليل حيث اشتدت الروح الوطنية ، هربوا من بيوتهم قبل بداية الثورة الاولى • وتذكر الرواية المسيحية المتاخرة ان فلول المسيحيين قد هربوا من اورشليم الى بلاد بللا ، قلعة المدق ، قبل الغزو الرومانى الأخير ليهوذا • وتفرق المسيحيين اليهود كان سببا فى انقطاع التسلسل المستمر للرواية التى كانت قد ربطت بين عيسى (يسوع) ودوائر الحواريين بواسطة تقارير شهود

(١) يعقوب ليس فى الحقيقة اخ لسيدنا عيسى ، انما يمت له بصلة القرابة ، وهو احد الحواريين الاثنى عشر . المترجمان .

عيان لاعمال المعلم واقواله • وقد صيغت رواياتهم الشفوية فى صور أدبية مختلفة التى بوبها نقاد الشـــكل للمدرســـة التى طورها م • ديبليوس Dibelius ولوبولتمان R. Bultmann منذ ١٩١٩ • واختفت هذه الروايات بسرعة غالبا عندما وضعت فى ثوب اغريقى ، ولكن سرعان ما حل محلها مجموعات مدونة ، وخاصة الاناجيل الشــاملة التى جمعت حول نواة بطرسية وحول انجيل يوحنا ، الذى نقل الينا النظرة العميقة للمعلم التى وصلتنا عن الحوارى يوحنا • ويعتبر كل النقاد المحافظين تقريبا ان أقدم الاناجيل ، انجيل مرقس من المحتمل أنه جمع قبل ٧٠ ميلادية ، وحسب الرواية المسيحية المبكرة كان انجيل يوحنا يعتبر آخر الاناجيل ، وتاريخ يقع بين ١٨٠ م و ٩٠ ميلادية معقولا ، وربمـــا يرجـــع تاريخ انجيلى متى ولــوقا الى الفتــرة الوســـطى بينهما ٧٠ ــ ٨٠ م •

ونقاد ــ الشكل بلا شك محقون ف تأكيد الدور العملى الذى قامت به الاناجيل فى الكنيسة الاولى ، وهودور قد يكون مسئولا الى حد ما عن استمرار بعض الروايات على حساب البعض الاخـــر • وعلى العموم فهذا يبدو مختلفا اختلافا بينا عن الراى المتحيز البعيد عن الاحتمال الذى يعتقده عادة نقاد الشكل من ان معظم محتويات الاناجيل قد حورت او حتى اخترعت لتناسب مواقف ظهرت فى حياة الكنيسة • وبمعنى اخر يفرض معظم نقاد الشكل ان الاناجيل تعكس حياة كنيسة ما بعد الحواريين • وهذا الراى يخالف الراى التقليدى القائل بان الاناجيل هى وثائق اصلية تسبق كنيسة ما بعد ــ الحواريين • والحقائق الاثرية تتكلم بصوت مؤكد ضد اوهام نقد ــ الشكل المتطرف حسب راى ديبليوس Dibelius بل حتى أشد حزما ضد الاراء المتطرفـــة لبعض تلاميذه • اما انجيل يوحنا على الاخص فهو فى موقف غير امين • وقد حمل ضـــده بولتمان ، خاصـــة حملات لم تنقطع دهورا • ويوحنـــا حسب ما يفترض هؤلاء العلماء لا يحتوى فعلا على اية مادة تاريخية فى الاصل ، ولكنه يعكس نظرة فئة مسيحية من اوائل القرن الثانى مصبوغة صبغة قوية بالعارفين بالله •

وعلى هذا الموقف رد مؤرخ التاريخ القديم أولمستد Olmstead فى ١٩٤٢ بحزم بان قصص يوحنا (التى فصلهـــا فصـــلا جبريا عن الاحاديث) كانت قد كتبت بالارامية قبل ٤٠ ميلادية ثم ترجمت بعد

ذلك الى الاغريقية ، ومن ثم فهو يتمسك بان قصص يوحنا هى اقدمها جميعا وأصدق مصدر لتاريخ حياة عيسى عليه السلام • ورغم ان هذه النظرية تعارض بشدة كلا من الروايات المسيحية المبكرة والتحليل النقدى الحديث ، بالاضافة الى جبريتها فى معالجتها الادبية للموضوع ، الا ان المرء يمكنه ان يرى حكم المؤرخ المتمرن المبنى على أسس سليمة• فمن الطبيعى ان انجيل يوحنا ، يختلف فى اصله عن المجموعات العادية للرواية الشاملة فى عرضه لوجهة نظر حوارى واحد لا الرواية الموحدة لكنيسة الحواريين •• وقد أجبر يوحنا مثل بطرس على ترك فلسطين ثم استقر فى افسس حيث اشتهر انه عاش عمرا مديدا قبل نشر الانجيل التى سجلت فيه مذكراته ، وقد تكون الرواية الموحدة لكنيسة الحواريين بلا نزاع الافضـل من ناحية اخراج تسلسل أحسن لوقائع المعـلم والاحاديث أكثر دقـة له ، وان كان من الضرورى فى بعض الاحيـان التضحية بالحيوية واللون المحلى • وفى الفقرات التالية سنعطى بعض التوضيحات المختلفة عن دقة اللون المحلى فى يوحنا ، الذى يدل دلالة واضحة ان هذه الروايات قد وضعت اساسا فى شكلها الحالى قبل ٦٦ — ٧٠ ميلادية •

وفى كل من أناجيل كنيسة الحواريين ويوحنا ، بل أكثر انتشارا فى هذا الاخير ، نجد الاصطلاح الارامى « ربى » ترجم الى الاغريقية « سيد ، معلم » (مثلا يوحنا ١ : ٣٨ ، ٢٠ : ١٦) يطلق على عيسى عليه السلام • ويصر عدد من العلماء الربانيين على أن استعمال هذا التعبير فى الاناجيل هو تقليد للقديم استعير من استعمال القرن الثانى الميلادى ، عندما كان شائع الاستعمال فى مشنا [(١)] والمصـادر المدونة الاخرى • وعلى العموم ، فى ١٩٣٠ نقب أ• ل ســوكينيك E. Sukenik فى قبر تملكه الجامعة على جبل المكبر Scopus ، واكتشف فيه صندوق عظام (انظر الفصل الثامن) كان مكتوبا عليه الاسم الاغريقى ثيودوتيون Theodotion بحروف ارامية وكذلك الكلمة الاغريقية didaskalos كلقب للرجل الذى يحمل هذا الاسم • ومن ثم لا يمكن الادعاء فى امان بان انجيل يوحنا هو رواية متواترة من هذه الناحية الخاصة • وقد أكد بعض العلماء فى الماضى ان اسماء الاشخاص المستعملة فى الاناجيل،

---

(١) كتاب التقاليد اليهودية . المترجمان .

وخاصة فى يوحنا ، كانت مختلفة وانها اختيرت لاغراض خاصة بسبب معانيها • ولكن نقوش صناديق العظام تثبت عدم صحة هـذه المزاعم لاحتفاظها بكثير من هذه الاسماء نفسها (لوحة ٣٠) ولذا نجد عليها عادة ، ليس فقط اسم مريم (مارى) ، بل أيضا مرثا ، واليصابات ، وسالومة وحنانيا •• الخ • كما يتكرر ظهور اسم سفيرة ، أعمال الرسل ٥ : ١ ، عدة مرات • وعيسى (يشوع) ويوسف ، هى بالطبع من أكثر الاسماء شيوعا فى هـذه الفترة ، وصنـدوق عظـام يحتـوى على الاسم « عيسى بن يوسف » ، رغم انه قد اثار الدهشة فىبادىء الامر فهو يعكس اشيع تكوينات العصر • واسم لازاروس Lazarus فى نفس الصورة المختصر لعزار (لاسم اليعازار) الذى نجده فى الاناجيل شائع جدا على صناديق العظام •

وعندما نلتفت الى الاشارات الطبوغرافية سنقتصر على بعض أمثلة من يوحنا ، وسبب ذلك بالضبط انه قد نقد نقدا أشد مما وجه الى الاناجيل الاخرى بسبب الخطأ الموجود فى الطبوغرافيا • ولكن يجب علينا أولا أن نتذكر قولنا السابق من أن أنجيل يوحنا كان أقل اهتماما بالبيئة الخارجية وتسلسل الاحداث عن أناجيل الحواريين ، وهى حقيقة تزيد كثيرا من أهمية الاشارات الطبوغرافية التى ذكرت فعلا فى هذا الكتاب • فى يوحنا ١٩ — ١٣ قيل لنا ان بيلاطس أمر باحضار عيسى (يسوع) أمامه فى موضع يقال له البـلاط Lithostrolon وبالعبرية (أى بالارامية) جباثا (حرفيا الارض المرتفعة) ولم يقل لنا أن هذا البـلاط كان فى برايتوريوم Praetorium كما قبلته الرواية دوننقاش•ولعشرات السنين دارت مناقشات حول مكان برايتوريوم وكانت ، الادلة فى صالح مكان قريب من سراى هرودس وبوابة يافا • ولكن قد تمكن ل • هـ • فنست L. H. Vincent أن يحدد مكان البلاط بصـفة قاطعة بأبحاثه مستعينا بكل من نتوءات الصخر فى منطقة برج انطـونيا (فى الزاوية الشمالية الغربية لارباض الهيكل) والتنقيبات التى قامت بها فى هدوء سيدات سيون Dames de Sion والرهبـان الفرنسيسكان من دير فلاجيلاشون Flagellation • وقد حـدد الاب فنسنت مـدى اتساع البلاط الرومانى المبكر البـديع الموجـود تحت قـوس اكوهومو Ecco Homo على أنه لا يقل عن ٢٥٠٠ متر مربع • وقد أمكنه كذلك أن يثبت أن هذا البلاط هو بلاط برج انتونيا القائم على نتـوء

مرتفع صخرى يعلو عن الارض المحيطة به ، والذى اطلق عليه بكل دقة الكلمة الارامية جباثا • وبعد أن دفن البلاط تحت انقاض انتونيا بوقت طويل ، شيد فوقه الرومان الذين بنوا ايلياكابيتوليناAelia Capitolina قوس اكوهومو ، ولا يوجد ما يثبت صحة الزعم الذى يتردد دائما بأن القوس نفسه ينتمى الى البلاط • ومثل هذه الرواية الدامغة لابد أنها ترجع الى عصر يسبق اختفاء البـــلاط تحت اطلال الابنية المتهدمـــة خلال كارثة عام ٧٠ ميلادية ، وهذا التأييد الاثرى المثير من الاسماء الاغريقية والارامية الذى حفظ لنا فى يوحنا لا يمكن أن يــــــكون مصادفة •

وهذا صحيح أيضا عن الاشارات الطوبوغرافية — فى انجيل يوحنا ، ففى ٣ — ٢٣ نسمع أن يوحنا المعمدان كان يمارس عمله فى عين نون بقرب ساليم ، لانه كان هناك مياه كثيرة — فى الواقع أن هذه الاماكن لم تكن واقعة فى وادى الاردن الغنى بالمياه ، والا ما كان ثمة معنى لمثل هذا التعليق • ويسوع كان فى طريقه الى أرض اليهودية ، حسب ما جاء فى البيت السابق ، وعلى ما يظن بالطريق المباشر المعتاد متتبعا حافة حوض النهر من مرج بن عامر • وبغض النظر عن تحديدات المكان غير المحتملة فى الروايات المتأخرة ، لا يمكن فصل ساليم عن المدينة القديمة التى تحمل هذا الاسم جنوب شرقى نابلس كما لا يمكن انيكون وجود مدينة عين نونالى جوارها مباشرةمجرد صدفة •والمصادرالقريبة من وادى فرعة غنية جدا بالمياه • أضف الى ذلك ، انه فى تلك الجهات نفسها قابل يسوع المرأة الســـامرية من ســـوخار (يوحنا ٤ — ٥ وما بعدها) وهذه المدينة الاخيرة هى التى توحد عادة مع مدينة عسكر الجديدة • وطالما يعتقد ان المدينة القديمة شكيم كائنة تحت مدينة نابلس ، ميلين الى الشمال الغربى ، فان التعرف على سيخار بأنه هو نفس المكان القريب عسكر كان مغريا • وعلى العموم أثبتت تنقيبات سيلن بصورة قاطعة بان شكيم (سكمم) كانت تقع فى بلاطة ويبلغ بعدها أقل من ثلث المسافة بين عسكر وبئر يعقوب (ومكانه مؤكد) • أضف الى ذلك ان بلاطه كانت دائما عامرة حتى ٦٧ ميلادية عندما دمرها فسباســيان فى الغالب عند تدمــيره لمعبد السامرة علـــى تل جريزم المجاور ، وبعد خمس سنوات أسس فسباسيان مدينة جديدة نيابوليس Neapolis نابلس الجديدة (فى أعلى الوادى ، فلم يكن ثمة داع اذن

لاعادة بناء شكيم ، وهكذا يبدو من المؤكد المعقول ان الاناجيل السريانية القديمة صحيحة فى قراءة شكيم Shechem بدلا من القراءة الاغريقية الشائعة سوخار Sychar والشكل الاخير ماهو الا تحريف للاصل شكيم Sychem (كما هو فى أعمال الرسل ٧ — ١٦) ومن الواضح ان الحروف الاخيرة هى زلة كاتب سمح لعينيه أن تزوغ الى السطر السابق حيث يظهر اسم السامرة Samaria مرتين • وبعد تدمير شكيم وبناء نيابوليس ، فمن المحتمل أن أحد الرواة الذى لم يعتمد على الرواية القديمة ذكر نيابوليس على أنها أقرب المدن الى بئر يعقوب •

وعلى أية حال فهذه ليست الامثلة الوحيدة ذات الطابع الطوبوغرافى المبكر الصحيح الموجودة فى الاناجيل ، وهى بالاضافة الى الادلـــة القوية على وجود طبقة لغوية ارامية تشير دون شك الى تاريخ لتكوين رواية الانجيل يقع قبل كارثة ٦٦ — ٧٠ ميلادية •

واذا كانت الاناجيل قد دونت فى فلسطين لكان هناك دون شك تحديد ادق لاماكن كثير من تلك الحوادث التى ترويها ، ولكن لما كانت قد دونت كلها على مـــا يحتمل فى أنحـــاء مختلفـــة من الامـــبراطورية الرومانية (روما) افسس الخ ، فان الذين قاموا بجمعها كانوا دائما غامضين الى حد ما فيما يختص بالموقع الجغرافى العام • ولكن عندما اتبعوا رواية مباشرة امكنهم أن يعتنوا عناية فائقة بضبط مكان قصة بعينها • وفى رأى المؤلف انه لا يوجد بالاناجيل الا فيما ندر فقرة كان فيها لتاريخ الكنيسة التالى لعام ٧٠ ميلادية تأثير ملحوظ على شكلها • وان اختيار الروايات التىاستعملها جامعو النصوص كان خاضعا بصورة ما لاحتياجات المسيحيين فى تلك العهود ، يمكن أن يكون من جهـــة اخرى ، فرضا معقولا •

والاكتشافات الاثرية فى الاجيال الماضية فى كل من مصر وسوريا ، وفلسطين قد قطعت شوطا كبيرا فى أثبات انفراد المسيحية الاولى

كظاهرة تاريخية ، اذ كان يعتقد دائما فى العهود السابقة ان المسيحية ما هى الا احدى الطوائف المختلفة العديدة ذات طبيعة متماثلة التى تكاثرت فى المقاطعات الشرقية من الامبراطورية الرومانية عند نهاية عصرنا وبداية القرن الاول الميلادى • ولكن التنقيبات لم تكشف عن أية وثائق او مبان تنتمى الى مثل تلك الطوائف • وقد أمدتنا مصر بادلة كتابية مبكرة عن الديانات الوثنية واليهودية والمسيحية كما حفظت لنا مؤلفات مانى خايبوس ((Manikhios)) (مذهب المانوية) التى كشف عنها حديثا ، وغيرها من طوائف العارفين بالله وكلها متأخرة الى حد كبير عن ظهور المسيحية • وقد أمدتنا دورا التى تقع على الفرات بمعابد وثنية ومعبد لمثرا ، ومجمع يهودى ، وكنيسة مسيحية ، كما أمدتنا أيضا بأجزاء من كتابات يهودية ومسيحية ، ولكن لم يعثر على أى شىء لأى طائفة أخرى مماثلة • أما فلسطين وسوريا فقد كشفت عن العديد من المعابد الوثنية والمجامع اليهودية والكنائس ولكن لا يوجد أى مبان دينية أخرى • ومن ثم تبدو المسيحية على ضوء الاثار ظاهرة تاريخية فريدة ، مثل عقيدة اسرائيل التى سبقتها •

وقد أضافت ملفات البحر الميت من قمران دليلا حيويا جديدا على قدم انجيل يوحنا نسبيا • فكثير من الكتب والجذاذات من أدب الاسينيين المفقود فى القرن أو القرن والنصف السابقة للصلب تدل على وجود دوائر دينية كانت هى الطليعة المباشرة ليوحنا المعمدان وليسوع • ولم يكن الأسينيون « مسيحيين قبل المسيحية » كما اقترح البعض ، ولكنهم كانوا طلائع يهودية لمسيحية الحواريين ، ونقط الالتقاء فى التعبير ، والرمزية والتشبيه التمثيلى من أدب الاسينيين وانجيل يوحنا وثيقة فى الواقع ، وان كان يوجد أيضا أوجه تشابه بينها وبين كل أسفار العهد الجديد تقريبا ، ومن بينها : تعبيرات ـ ازدواجية مبسطة ، تقارن بين الخير والشر ، بين النور والظلام ، بين الحق والباطل والكفاح بين روح الحق وروح الضلال ، وتعبيرات مثل « اولاد الضوء • » نور الحياة » الذى يمشى فى الظلام ، « يعمل الحق » افعال الله

الخ •• ولكن ظل الاسينيون يهودا بكل معنى الكلمة وفلسفتهم الدينية كانت فى الواقع متجانسة مع الفلسفة الدينية لدى الفريسيين Pharisees [1] والحالات المفروض انها من تأثير مدرسة العارفين بالله على انجيل يوحنا لا تدخل فى الواقع فى الدائرة الحقيقية للعارفين بالله من القرن الثانى الميلادى على الاطلاق انما تثبت الصلة الوثيقة — فى الزمن بين الاسينيين ويسوع (عيسى) •

(١) فريس ، فريسيون (المنعزل) : فئة من فئات اليهود ظهرت فى أيام سيدنا عيسى ولا تزال موجودة الى ايامنا هذه . وكانوا زعماء الحزب الذى قاوم الرومانيين وشتتوا بسبب ذلك . وكان الفريسيون قادة الشعب فى أمر الديانة ، ولكنها صارت فى أيام السيد المسيح رياء وكثر اعتبارهم للامور الخارجية دون روح التقوى الحقيقية . واختلفت آراء الفريسيين فى اعتقادهم بخلود النفس والجزاء والعقاب وعناية الله المعارضة لارادة الانسان الحرة وقالوا بوجود تواتر سماعى عن موسى وزعموا أنه معادل لشريعته المكتوبة أو أهم منها ، وقد وبخهم السيد المسيح بنوع خاص على هذا التعبير الأخير . المترجم .

الفصل الثانى عشر

فلسطين القديمة فى تاريخ العالم

ما كان لفلسطين من تأثير عجيب على تاريخ العالم كان مصدر حيرة دائمة للمؤرخين الذين لديهم ما يكفى من الذرائع لتحيزهم • اذ كيف يمكن لتلك البلاد الصغيرة الفقيرة أن تخرج كلا من الديانتين : اليهودية (١) والمسيحية التى أثرت بواسطتهما تأثيرا لا مثيل له على مجرى النشاط الانسانى خلال الالفين سنة الاخيرة (٢) • ولذا يبدو هذا غير معقول للكثيرين الذين يزورنها لاول مرة • ولكنا نؤكد أن اليونان ، وهى مصدر الحياة الفكرية والجمال الفنى اللتان كيفا كل التاريخ الغربى التالى ، كانت أيضا صغيرة وفقيرة فى طبيعتها (٣) — ولكن

---

(١) من الثابت من القرآن ومن التوراة أن الديانة اليهودية نشأت فى مصر ولم تنشأ فى فلسطين فقد ولد موسى فى مصر وتربى فى بلاط الفرعون ، كما كان موسى رسولا الى الفرعون والى المصريين قبل أن يهرب هو وقبيلته الى فلسطين ، واليهود منذ دخولهم فلسطين وهم فى حروب طاحنة مع جيرانهم حتى قضى عليهم الاشوريون قضاء تاما . المترجمان .

(٢) ليس هذا غريبا ، فالجزيرة العربية وهى صحراء جرداء فقيرة كانت مصدر خير دين أخرج للناس ، وهو دين الاسلام الذى دعى العالم بأسره قديما وحديثا الى طاعة الله الواحد الأحد . وقد كانت دائما الجزيرة العربية الفقيرة مصدر الشعوب العربية السامية التى اندفعت منها وقوضت أركان الامبراطوريات القديمة الفارسية والرومانية والهندية والاوروبية وكان لها تأثير بالغ على تاريخ العالم فى جميع المجالات الدينية والادبية والعلمية والسياسية حتى اليوم . المترجمان •

(٣) مثل اليونان (الاغريق) ليس مثلا صحيحا كل الصحة . فباستثناء الاسكندر الذى نجح فى غزو جميع انحاء العالم القديم آنذاك بسبب اعتماده اعتمادا تاما على قوة الخيالة ، وقد ساعده فى ذلك الفراغ الفكرى والفلسفى الذى ساد العالم فى ذلك الوقت بعد انهيار المدنيات القديمة والتى لم تستطع الديانة اليهودية ، بسبب الانطوائية الانانية والمادية التى تملأ نفوس اهلها ، ان تسد هذا الفراغ ، فالعالم اليونانى قد استمد علومه وآدابه من علوم الشرق القديم وهى مصر وبلاد الرافين وبلاد الشام وكانت أزهى مدرسة للعلوم اليونانية هى مدرسة الاسكندرية حيث جمعت فيها =

بلاد الاغريق كانت قد اغتنت بسبب انتشار تجارتها انتشارا واسعا قبل ان تزدهر الروح الهيلينية ، وظلت غنية طيلة عصرها الذهبى ولـكن فلسطين ، على العكس ، بقيت دائما بلدا فقـيرا ، وحتى فـترات ازدهارها النسبى كانت قليلة وقصيرة . ورغم ان اى مؤرخ لا يستطيع ان يجد حلا كاملا لهذه المعضلة العويصة ، فعلى الاقل يستطيع ان يجمع حقائق تسهل فهم ملاءمة الارض المقدسة للقيام بدورها التاريخى . ومعالجة مشكلة مصير البلدان بالطريقة التقليدية عن طريق دراسة الجغرافية الطبيعية والاقتصادية أمر عديم الجدوى دون القيام بتحليل دقيق لقدراتها التاريخية التى لا يمكن فى الواقع فهمها دون توفـر الحقائق الجوهرية التى يمدنا بها علماء الاثار . ويمكن ببعض الامثلة ان نوضح وجهة نظرنا فى انه يستحيل فهم تاريخ فلسطين أو دورها كمهد التقاليد العبرية ـ المسيحية فهما كاملا دون مساعدة الاثار . وقد أوضـح السورث هنتنجتون (المتوفى) Ellsworth Huntington فى كتابه المشهور Palestine and Its Transformation (1912 معظم القدرات التاريخية لفلسطين حسب نظريته الافتراضية للتذبذب الدورى للمناخ وسقوط الامطار . فبجمعه معلومات من المصادر الادبية دون تمحيصهابالاضافة الىقيامهبدراسة سطحيةللاطلال الاثريةالتىلايستطيع حتى العلماء المشتغلون بالاثار من فهمها فهما صحيحا ، استنتج ان سلسلة الدورات الشديدة كانت تحدث فى مصادر مياه البلاد منذ الالف الثانية

= كل المخطوطات المصرية والشرقية اى مخطوطات الشعوب العربية ونقلت الى اللغة اليونانية مدعين انها من تاليفهم . كما ان الحضارة الاوروبية لم تزدهر مرة اخرى فى عصر النهضة الا بعد احتكاكها مرة اخرى بالدول العربية وتعلموا فى مدارسها التى كانت منتشرة فى اسبانيا وايطاليا بالاضافة الى دراستهم بمدارس الشرق الاوسط ونقلهم لهذه العلوم الحديثة الى لغاتهم . ومن المعلوم للجميع ان بعض الكتب العربية ظلت تدرس بالمدارس الاوروبية حتى القرن الثامن عشر ولا ادل على ذلك من أن الاسماء الاوروبية لعلوم الجبر والكيمياء وهى من احدث العلوم هى نفس الاسماء العربية ، فاسم كيمياء باليونانية Xnmta معناه « الفن المصرى » لانه مستمد من الاسـم المصرى كمـت ارض كم Khem أى الارض السـوداء (انظـر : The Shorter Oxford English Dictionary واسـم مهندس Architect باليونانية αρχιτεκτωN اى رئيس البنائين ما هـو الا ترجمة للكلمـة المصرية امى ـ ر ـ كات (امير ـ كات) اى رئيس العمل أو رئيس اعمال البناء فكلمة Arch باليونانيـة معنـاها الرئيس ، TEKTWN بناء : builder (المرجع السابق) . المترجمان .

قبل الميلاد • ولكن البحث الاثرى المنظم قد أثبت ان كل استنتاجاته كانت خاطئة[1] • مثال ذلك ، بعثة كولت Colt التى بينت ان المدن الرومانية البيزنطية فى النقب لم تزدهر فى وقت واحد كما افترض هنتنجتون ، ولكن فى فترات مختلفة ، وتبعا لذلك فان مجموع سكانها فى الوقت الواحد كان أقل كثيرا مما استنتجه هنتنجتون من مدى اتساع اطلالها • اضف الى ذلك ، ان مستوى المياه الباطنية كان تقريبا هو نفس المستوى الحالى اذ سرعان ما اثبت ذلك وولى ولورانس فيما بعد • أما مصدر مياه هذه البلاد فكان عن طريق مواسير عديدة ، ومن المياه التى كانت تجمع فى الخزانات الجافة من الشعاب المجاورة • ومن تلك الاستنتاجات الخاطئة العديدة بنى هنتنجتون هيكلا كبيرا من التفسير التاريخى فارجع انجازات بنى اسرائيل الى الزيادة المزعومة فى موارد المياه مما أدى الى ازدياد السكان وموارد البلاد ، اما جمود السكان تحت الحكم التركى فكان مصدره ، حسب رايه ، الى فترة طويلة من القحط ، والفقر المترتب عليه ، ولما كان عدد كبير من المؤرخين وعلماء الاجتماع قد قبلوا هذا الرأى فقد حدث تشويه خطير للحقائق التاريخية •

وعلى العموم ، لم يكن هنتنجتون الا واحدا من العلماء الممتازين الذين حاولوا تفسير الظواهر التاريخية على أساس معلومات أثرية وجغرافية خاطئة ، وفى عام ١٩٢٨ كتب أعظم مؤرخ للحضارات القديمة فى العصور الحديثة ، ادوارد ماير ، بعد سنتين من زيارته لوادى الاردن لاول مرة فى حياته ، وقد كان ذلك لسوء الحظ فى أوائل الخريف — ان وادى الاردن جنوبى بيسان (بيت شان) و « بللا » قاحل تماما يشتعل نارا بين جدرانه الجبلية ، وانه لم تحدث اى محاولة فى العصور القديمة السابقة للرومان لاستعمال الرى المنتظم فى زراعة الارض • ولا يسع المرء عند قراءة الوصف البديع لنفس هذه البقعة فى

---

(١) يعتمد العلماء الغربيون فى تفسيراتهم على نظرتهم المادية للامور ، ونسوا أو تناسوا ان جميع الاديان السماوية اليهودية والمسيحة والاسلامية قامت للحد من طغيان المادة على الروح . فموسى كان يعادى فرعون وعيسى كان يعادى الرومان وكلهم كانوا اغنياء وطغاة . وقامت الدعوة المحمدية لمحاربة طغاة قريش وزعمائها الاثرياء وواجهت اباطرة الفرس والرومان وهزمتهم رغم ضخامة جيوشهم وثراء بلادهم . المترجمان .

كتاب نلسون جلوك (نهر الاردن) ١٩٤٦ «The River Jordan»
الا يرى كيف ان البحث الاثرى قد دحض تماما الانطباعات غير المدروسة لهذا المؤرخ العظيم ، وكان الافضل له ان يتمسك بمصادره الادبية . ونتيجة لهـذه الانطباعات الخاطئة ، قلل ماير من أهميـة ما قامت به مملكة اسرائيل القديمة من أعمال ، وفشل فى ان يدرك بعض العوامل الحيوية فى حضارتهم المادية . ونوع آخر من الخطأ وقع فيه عالم الاقتصاد الالمانى المشهور فرنر سومبارت Warner Sombart فى كتابه : The Jews and Modern Captalism
مثلا ، جمع تقديرات (أعلى أرقام التقديرات) عن مصادر الذهب والفضـة فى اسرائيل ، وخاصـة فى عهـد سـليمان ، واعتبرها على انها من مميزات فلسطين القديمة ، وقرر فعلا ان الاسرائيليين كانوا يحتكرون المعادن الثمينة احتكارا جزئيا . ولما كان مجموع كميات الذهب والفضة الذى عثر عليه حتى الان فى الطبقات الاسرائيلية صغير نسبيا عندما يقارن بما عثر عليه فى الطبقات الكنعانية الاقدم او بسوريا ، أو مصر وبلاد الرافدين المعاصرة له ، فمن المؤكد ان نتائج سومبارت خاطئة كل الخطأ (١) ولا يوجد اى مختص غير متحيز فى حقل دراسات الشرق الادنى القديم لا يمكنه ان يستنتج من بعد دراسة منظمة لكل الادلة التى أمكن جمعها حتى الان الا ان اسرائيل كانت بلدا فقيرا طوال تاريخها كله . وعلى ذلك فاستنتاجات سومبارت فيما يختص بشدة تقدم الرأسمالية اليهودية المزعومة باطل من النـاحية الاثرية[٢] ورغم ذلك فقد لعبت دورا فى اقناع فئة قوية من المثقفين الالمان بان كراهية النازية لليهود[٣] لهـا ما يبررها تاريخيا .

ويمكننا تعداد الكثير من هذه الامثلة وبخاصة اذا ضممنا أمثلة من كتابات العلماء الاقل شأنا . وقد صار الان الدور الذى تقوم به الاثار فى توفير المعلومات لتقدير تاريخ فلسطين تقديرا بعيدا عن التحيز كبيرا

---

(١) ان محاولة المؤلف للدفاع عن النزعة المادية عند اليهود ليـس صحيحا ، وادلته مضللة ، فمصر وسوريا وبلاد الرافدين كلها بلاد ضخمة تبلغ فى حجمها وفى عدد سكانها اضعاف فلسطين . كما أن ما عثر عليـه من ذهب سواء فى اطلال فلسـطين أو مصر لا يعطى فكرة حقيقيـة عن الواقع . اذ لم يعثر فى مصر على قدر من الذهب يستحق الذكر الافى مقبرة توت عنخ امون فقط ، اما المعابد والمدن القديمة فلم يعثر بها على ذهب لأسباب كثيرة . وهذا ينطبق على فلسطين أيضا وخاصة أن مقابر بنى =

لدرجة لا يمكن معه لاى طالب أن يتجـاهله دون أن يصاب بـكارثة علمية • ورغم مرور عشرين عاما منذ أن بلغت دراسة الاثار الفلسطينية مرحلة من الاسـتقرار تكفل استعمال معلـوماتها بمعرفة المؤرخـين المتزنين ، فلا يزال من الصعب جـدا على غير المختص أن يتعرف على طريقة بين التواريخ والنتائج المتضاربة للاثريين • ومن ثم فلا عجب من أن عددا كبيرا من علماء فقه اللغة والمؤرخين مازالوا مترددين فى اقتحام حقل الاثار ولكن حرصهم فى غير موضعه ، وكتاب ميلر بارو What Mean These Stones ? : Millar Barrow قد حل بجدارة محـل كـتاب س • ر • فريفر S. R. Driver Modern Research as Illustrating The Bible (1909)، الذى كان يعد فى عصره مثـلا للتقـدير السـليم للمعـلومات الاثرية بمعـرفة عالم ممتـاز لم يسـبق له أى تدريب أو خبرة أثرية • وبفضـل هـذا التجميـع الجـديد للمعلـومات الجغـرافية والاثرية أصـبح فى امكاننـا الآن أن نعيـد تكوين البيئـة المـادية فى فلسطين القديمـة بقسط أكبر من النجاح عما كان يستطيع أن يعمله أحسن الجغرافيين المؤرخين من المدرسة التى أسسها ادوارد روبنصون ووصلت الذروة بما قام به جورج ادام سميث من مسح متقن للمنطقة :

G.A. Smith: Historical Geography of Palestine, 1896.

ونظرا لوقوع فلسطين بين المركزين الرئيسيين للحضارة الشرقية القديمة مصر والعراق ، فقد كانت دائما تستمد من كليهما • فتقريبا

= اسرائيل لم تحتو على آثار ذهبية أو غير ذهبية ، ولكن مما لا شك فيـه أن فلسطين كانت فى عصر سليمان ، الذى استطاع أن يسيطر على الممالك المجاورة وعلى طرق التجارة بين مصر وبقية بلاد الشرق الاوسط ، بلاد غنية . فالمؤلف الالمانى لم يكن مخطئا فى هذه الناحية ، ولايزال اليهـود حتى الان يسيطرون على تجارة العالم وخاصة فى انجلترا وامريكا ، بـل ويسيطرون على مناجم الماس فى جنوب افريقيا ولهم شركة ضخمة اسسها أوبنهيمر للسيطرة على جميع محلات الجواهر والذهب فى العالم . المترجم .

(٢) انظر الملحوظة السابقة •

(٣) حرفيا : الساميين ، فاليهود يدعون الان بانهم هم وحدهم الساميون دون بقية الشعوب العربية . والعكس هو الصحيح ، فليس هناك أدنى شك فى اصالة الشعوب العربية السامية ، أما اليهود فلم يعرف لهم من الاثار اصلا قبل دخولهم فلسطين واتخاذهم اللغة العربية السامية الموجودة هناك لسانا لهم . المترجم .

جميع العناصر الهامة للحضارة الشرقية القديمة قد نشأت فى أحد هذين الاقليمين ، ومنهما انتشرت حتما عن طريق سوريا وفلسطين • وحضارة فلسطين كانت تقريبا فى كل العصور خليطا مكونا من عناصر مصرية وعراقية وعناصر من مصادر ثانوية أخرى • وهذا صحيح أيضا عن الادب والعلم والدين فى كل من سوريا وفلسطين ، ومن ثم فقد ألم سكان فلسطين بكل التطورات الهامة لحضارة الشرق القديم • فحضارة الكنعانيين الاكثر رقيا التى عرفت على الاخص من (أوغاريت) وحضارة خلفائهم الفينيقيين قد تأثرت تأثيرا عميقا عن طريق الاقتراض والتطبيق من مصر وبلاد الرافدين • وهذا صحيح كل الصحة فيما يختص فى الفن والعمارة فى اسرائيل التى اقتفت بدقة نهضة فينيقية • وفى الادب والدين كان هذا أيضا فى بعض النواحى أكثر صحة ، منذ أن كان العبرانيون الاول أكثر تعرضا بنجاح لمؤثرات مباشرة من بلاد الرافدين ومصر • والطالب الحصيف يندهش دائما أن يرى كيف أن أدق الامور فى الادب البابلى والمصرى عادة تظهر مرة أخرى فى صورة محورة فى التوراة العبرية •

وتعرض البلاد الصغيرة للمؤثرات الاجنبية ليس فى حد ذاته مفيد ، وان كان معظمها فى مثل تلك الاحوال يتقبل راضيا تلك الاراء الدخيلة • وتلال فلسطين ليست بعيدة عن طرق القوافل الرئيسية التى تمر خلال أودية الانهار والسهول الساحلية المحيطة بالمنطقة الجبلية • ونظرا لان هذه التلال ، التى لا يمكن اعتبارها جبالا لقلة ارتفاعها ، يفصل بعضها عن بعض أودية عميقة ، وفى معظم الاحيان صخور شديدة الانحدار ، لذا لم تتعرض الى حد ما لمؤثرات أجنبية مباشرة •

وجفاف المنطقة الجبلية النسبى فى فلسطين بالاضافة الى ارتفاعها جعلها احدى الاقاليم الصحية جدا فى الشرق الاوسط والادنى ، كما جعلها أيضا من أفقر البقاع التى استقر بها سكان دائمون •

لا يوجد بين بلدان الشرق التى عمرت بسكان مستقرين بلد خلا من مصدر مياه ثابت غير فلسطين ، فمناخها الذى يتبع مناخ البحر الابيض يتركها بلا مطر تقريبا مدة نصف عام ، فى المتوسط • ولما كانت فلسطين تقع عند النهاية الجنوبية للرياح الغربية المطيرة ، فسقوط المطر يقل تدريجيا كلما توجهنا جنوبا ناحية النقب • والاشتية الكثيرة التى

لا ينزل بها مطر يكفي حاجة البلاد ولا يعرف مواعيدها • ولذلك حدثت مجاعات فظيعة فى فلسطين طوال تاريخها • بالاضافة الى أن من أسباب تلف المحاصيل غزوات الجراد وجرذان الحقل وغير ذلك من الاسباب • ولذا لا يستطيع الانسان التأكد من أنه سيظل محتفظا بأرضه مدى الحياة ، بل ان الحياة نفسها فى أحسن ظروفها لم تكن مضمونة • فليس من المستغرب اذن أن يؤكد الكنعانيون عبادة بعل — هدد وغيره من آلهة العواصف ، وكذلك كانت صفة يهوه هذه هى الغالبة فى اسرائيل القديمة • ومن ثم كانت الحياة فى الاقليم الجبلى من فلسطين العتيقة حافزا دائما على العمل الدينى الذى أثر تأثيرا كبيرا فى اقناع الناس على بلوغ مستويات روحية وأخلاقية رفيعة ، ولا يمكننا أن نفهم بنى اسرائيل وكاتبها الأول[1] ، عاموس ، فهما صحيحا الا على ضوءالاسس الجغرافية الاقتصادية • وبهذا التحفز المنبثق من الروح الذى رفع عقيدة اليهود فوق جميع الديانات الوثنية المنتشرة فى تلك الايام •

ورغم أن علم الاثار يستطيع بذلك أن يوضح تاريخ فلسطين القديمة وأحوالها الجغرافية فانه لا يمكنه أن يوضح معجزة عقيدة اليهود أو المسيحيين ، ولكن علم الاثار يمكنه أن يساعد مساعدة كبيرة فى جعل المعجزة مفهومة عقليا للشخص النابه الذى لم تغش بصره النظرة المادية الحالية • كما يبين أيضا سخافة مواقف الفئات المتطرفة من عقيدة الوحى الشفوى للاسفار المنزلة

---

(١) محاولة المؤلف تفسير تمسك بنى اسرائيل بدينهم مرجعه الى بعد تلال فلسطين عن العمران ليس صحيحا . فقبيلة بنى اسرائيل قد عاشت فى مصر فى شرق الدلتا وهى منطقة زراعية وهنا أمر موسى بالتوجه الى فرعون لدعوته لطاعة الله وحده وبعد خروجهم من مصر الى سيناء ماكاد يتركهم موسى لملاقاة ربه حتى فتنهم السامرى ، وعادوا وهم فى وسط الصحراء الجرداء الى عبادة المادة فى صورة بقرة من ذهب وعندما استقروا بفلسطين خرجوا مرارا عن طاعة الله كما ذكر ذلك مرارا بكل وضوح فى التوراة وفى القرآن الكريم . المترجمان .

فملازمة بنى اسرائيل لمخبئهم الجبلى كان اضطراريا فبعد خروجهم من مصر وضلالهم فى الصحراء فترة طويلة لم يكن يستطيعون مواجهة أى جيوش قوية سواء مصرية أو غيرها مما اضطرهم الى التزام العزلة حتى صلحت حالهم واستقرت أمورهم فأمكنهم مواجهة الامم الصغيرة المحيطة بهم ، وان كانت هذه الحال لم تدم طويلا فجيوش الامبراطوريتين المصرية والاشورية كانت دائما تهددهم حتى قضى الاشوريون عليهم قضاء تاما . المترجمان .

التى كان معترفا بها يوما ما ، الى الخزعبلات المستهجنة لهؤلاء الذين يعتقدون فيما للاعداد من خواص مقدسة ، وفى الشفرات المزعومة فى التوراة • ويشن علم الاثار على هذه الاراء وعلى غيرها من الاشكال الحديثة للسحر القديم حربا الا هوادة فيها • ومما يضايق عالم الاثار الرصين أشد المضايقة أن يرى العقيدة الدينية قد شابها السحر بواسطة مفسرى مذهب المادية الرخيصة ، أما بالنسبة لهؤلاء الذين يعتقدون فى رسالة فلسطين التاريخية فآثارها لها قيمة ترتفع كثيرا عن مستوى الاثار التى يتحتم عليه دائما العمل بها ، الى عالم يشترك فيه التاريخ والدين فى عقيدة عامة عن الحقائق الابدية للحياة •

قائمة بالاشكال التوضيحية

خريطة لآثار فلسطين :

شـــكل	صفحة
١٦ ـــ قلعة شاءول من تل الفول (حوالى ١٠٠٠ ق . م) . . .	١٢٢
١٧ ـــ منظر تطعيم على العاج ، مجدو ، أوائل القرن الثانى عشر ق . م وهو يبين تأثير الفن المصرى	١٢٥
١٨ ـــ زخرفة متحابكة على عاج من مجدو . وائل القرن الثانى عشر ق . م.	١٢٦
١٩ ـــ تمائم الالهة من تل بيب مرسيم معظمها من القرن السابع ق . م	١٣٣
٢٠ ـــ قصر فارسى فى لخيش (حوالى ٤٠٠ ق . م)	١٤١
٢١ ـــ فخار هللينستية فى متحف فلسطين	١٤٤
٢٢ ـــ تخطيط لبلدة مريسا الهللينستية (القرة الثانى ق . م) .	١٤٨
٢٣ ـــ المكان العالى العظيم فى البطراء	١٥٨
٢٤ ـــ قوس النصر فى جرش (الواجهة الجنوبية)	١٦٢
٢٥ ـــ معبـــد زيوس فى جرش	١٦٤
٢٦ ـــ مجمع من القرن الثالث الميلادى فى كفر ناحوم	١٦٦
٢٧ ـــ مجمع كفر برعيم (شكل تصورى)	١٦٦
٢٨ ـــ قائمة بالخطوط الفينيقية والعبرية	١٨٣
٢٩ ـــ قائمة بخط سيناء والخطوط الكنعانية والعربية الجنوبية .	١٨٤
٣٠ ـــ تصوير مجىء الآســيويين الى بنى حسن (حوالى ١٨٩٢ ق . م)	١٩٨

معجم أسماء الاعلام والمصطلحات

English	العربية
Aaron	هارون
Abana	نهر بردى
'Abdeh	عبده
Abel	هابيل
Abraham	ابراهيم
Abrham's Oak	بلوطة ابراهيم
Abssalom	ابشالوم
Açvin	أشون
Adonis	نهر ابراهيم
Aegean	ايجى
Aelia Capitolina	ايليا كابيتولينا
Aeneolithic	عصر بداية استعمال المعادن
Agglutinative tongue	لسان لصقى
Agrippan Wall	سور أغريباس
Ahab	أخاب
Ahiram	أحيرام
Ai	عاى
Alexander-Jannaeus	الكسندر يوحنا
Alexandrium	الكسندر يوم – قصر الكسندر
Allat	اللات
Amarna	تل العمارنة
'Amman	عمان
Ammon	عمون
Ammonite	العمونى
Amos	عاموس
Anastasis	انستاسيس
Anthedon	أنثيدون . لبنان الشرق
Antilibanns	أنتليبانوس
Antioch	أنطاكية
Antiochus Epiphanes	أنطيوخوس – أبيفانيس

English	العربية
Antiochus Eupator	أنطيوخوس - يوباتور
Apocrypha	أبو كريفا
Apollophanes	معهد أبوللو
Aghat	أكحات (أقحات)
Ardus	أرادوس . أرواد
Aramaic	أرامى
Araunah	أراونا
'Araq el-Emir	عرق الأمير
Aretas	أريتاس – الحارث – حارثه
Argos	أرجوس
Ariadne	أرياذنى
Armenian Garden	الحديقة الأرمينية
Arnon	أرنون
Arslan Tash	أرسلان طاش
Asclon	عسقلان
Asia Minor	آسية الصغرى
Assur	أشور
Atabyrion	اتابيريون– تابور– جبل الطور
Atargatis	أتر كاتتيس – أترجاتيس
'Athlit	عتليت
'Atlitian Culture	حضارة عتليت
Atrium	أتريوم
'Auja el-Hafir	عوجا الحفير
Augusteum	معبد أغسطس
Bab edh-Dhra'	باب الدراع
Babylon	بابل
Babylonia	بلاد بابل
Bacchides	باكيديس
Balatah	بلاطه
Balu 'ah	البالوعة
Bardaisan	يعقوب البردعانى

English	Arabic
Bar Kokhba	بركوخفاه
Beersheba	بئر سبع
Beitin	بيت الدين
Bene Hezir	بنى حيزير
Beth-anath	بيت عنات
Bethel	بيت أيل
Beth dagon	بيت داجون
Beth horon	بيت حورون
Bethlehem	بيت لحم
Beth-shan	بيسان ، بيت شان
Beth-shearim	بيت شاريم
Beth-shemesh	بيت شيمش — بيت شمس
Beth-yerah	بيت يراح — بيت القمر
Beth-zur	بيت زور
Bittir	بيتر — بيت العربة
Boghzkoy	بوغاز كوى
Bosa	بوسا
Byblos	بيبلوس — جبيل — جبلة ، كبنا
Caesarea phillippi	قيصرية فيليب ، بنياس
Canaanite	كنعانى
Capernaum	كفر ناحوم
Cappadocia	كبادوكيا — كبدوكية
Carchemish	كركيش قرقميش
Carian	الكارية
Carmel	الكرمل
Carmona	قرمونه
Carthage	قرطاجنة (فى شمال أفريقيا)
Chagar Bazar	جيكى بزار
Chalcolithic	العصر النحاسى — عصر بداية استعمال النحاس
Chedorlaomer	كدرلعومر
Chinnereth	شيزيت (تل العريمة)
Chorazin	كورازين
Chronicles	سفر أخبار الأيام
Cilicia	كيلكية
Crete	كريت
Cypriote	القبرصية
Damascene	داماسين
Damascus	دمشق
Dan	دان (تل القاضى)
The Dead Sea	البحر الميت
Debir	دبير
Deborah	دبورة
Decapolis	ديكابوليس
Delos	ديلوس
Deuteronomy	سفر التثنية
Dibon	ديبون
Domus	بيت
Doric stadium	الملعب الدورى
Dothan	دوثان
Dura	دورا
Dusares	دوسارس (ذو الشرى)
Ebenezer	حجر المعونة ، ابنازر
Eboda	عبودا
Edessa	ايدسا (الرها)
Eglon	عجلون
Ein es-Sultan	عين السلطان
Ein Feshkhah	عين فشخه
Ekron	عقرون
Elam	عيلام
Eleazar	إليعازر
Eleutherus	اليوثيروس . النهر الكبير
el-Khadhr	الخضر
Elizabeth	اليصابات ، اليزابيث
Elusa	الوسا
Enkomi	انكومى
Ephesus	افسس
Esdraelon	مرج بن عامر (عزدرليون)

Essene Sect الأسينيون
Eudocia يودوكيا
Eusebius يوسبيوس
Exodus سفر الخروج
Eynan عينان
Ezekiel حزقيال
Ezion-geber عصيون جابر
Ezra عزرا
Faiyum الفيوم
Feast of Tabernacles عيد المظال
Fertile Crescent الهلال الخصيب
Frank Mountain جبل فرنك
Gadara جدارا
Galilee الجليل
Gaza غزة
Genesis سفر التكوين
Gens Vettens عائلة فيتيني
Gerar جيرار
Gerasa, Jerash جراسا ، جرش
Gerizim جريزم ، جرزيم
Gerza جرزه
Gezer جازر
Gezer Calender تقويم جازر
Ghassul غسول
Ghassulian Art الفني الغسولي
Gibeah جبعة
Gibeah of Saul جبعة شاؤل
Gideon جدعون
Gilboa جلبوع
Gilead جلعاد
Gortin غورتين
Greece بلاد الإغريق ، اليونان
Greek أغريقي ، يوناني
Guadalquivir جوادالكويفير

Habakkuk حبقوق
Halafian Culture حضارة حلف
Hamath حماة
Hamitic الحامية
Haram Ramet el-Khalil حرم رامة الخليل
Harmony of the Gospels توافق الأناجيل الأربعة
Harbaj هارباج
Harran حاران
Hathor حتحور
Hauran حوران
Hazael حزائيل
Hazor حاصور
Hebron حبرون
Helena of Adiabene هيلينا ملكة أديابيني
Herod هرودس
Herod Agrippa هرودس اغريباس
Hezekiah حزقيا
Hiel the Bethelite حيئيل البيتئيلي
Hierapolis هيرابوليس منبج ، مابوج
High Place مرتفعة (المكان المرتفع)
Hippicus هيبيكوس
Horites الحوريون
Hosea هوشع
Huleh Lake بحيرة الحوله
Hums حمص
Hureidha حريضه
Hurrians الحوريون
Huyuk هويوك (تل)
Hyrcanus هركانوس
Iardanus ياردانوس (أردانوس)
Ibleam أبلعام
Idumaea أيدوم

Iliad	الأليادة
Isaiah	أشعياء
Isbeita	ايسبيتا
Jabbok	يبوق
Jacob	يعقوب
Jaffa	يافا
St.James	سانت جيمس ، القديس يعقوب
Jebusite	اليبوسى
Jeho	ياهو
Jehoshaphat	يهو شافاط
Jemdet Nasr	جمدة نصر
Jemmeh	جمــه
Jerash	جرش
Jeremiah	أرميا
Jericho	أريحا
Jeroboam	يربعام
Jerusalem	أورشليم ، بيت المقدس ، القدس
Job	أيوب
Johanna	حنانيا
John	يوحنا
John Hyrcanus	جون هكانوس
Jokneam	يوكنيعام
Joppa	يافا
Jordan	الأردن
Jordan Valley	وادى الأردن
Josephus	يوسيفوس
Joshua	يشوع
Josiah	يوشيا
Juda	يهوذا
Judea	اليهودية
Jupiter Capitolinus	جوبيتر كابيتولينوس
Kamares	كاماريس (فى كريت)

Kambe Stage	المرحلة الكامبية
Kebaran	كباران
Kedar	قيدار
Kefr Bir 'im	كفر برعيم
Keret	كرت
Khalasah	خلاصة
Khabiru	خابيرو
Khirbet Kerak	خربة كراك
Khirbet Qumran	خربة قمران
Khirokita	خيروكيتا
Khudh khuqheirah	الخضيرة
Kilwa	كلوة
Kiriath-sepher	قرية سفر
Koine	كوينى
Lachish	لخيش
Lagides	بنو لاغوس
Laish	لايش (تل القاضى)
Lakhamu	لاخمو (إله)
Lamech	لامك
Larsa	لارسا
Lebanon	لبنان
Lejjun	لجيون
Leontes	نهر الليطانى
Lihanite	اللحيانية
Lycus	نهر الكلب
Lydda	اللــد
Luke	لوقا
Maccabaean	مكابى
Maccabeen	المكابيون
Machaerus	ماخورس
Machpelah	مكفيلة
Madeba	مأدبا
Magarus	نهر بيروت ، ماغورث
Magharet Abu 'Usbah	مغارة أبو عصبة

Magharet el-Khiyam	مغارة الخيام
Magharet el-Wad	مغارة الواد
Maltese	ملطى
Mamilla Pool	بحيرة ماميلا
Mamre	ممرا
Mandaean	مندعية (لغة)
Manichaean	مانى خايوس
Mari	مارى ، تل الحريرى
Marisa	مريسة
Mark	مرقص
Marqa	مركة
Massada	مسده
Mathew	متى
Mayan	المايوية (حضارة)
Megillath Ta 'anith	مجلة ثعنيت
Mersin	مرسين
Mesha	ميشع
Mesolithic	العصر الحجرى الوسيط
Mesopotamia	بلاد الرافدين
Minaean	المعينية
Minet el-Beida	الميناء البيضاء
Miriam	مريم
Mishnah	مشنا
Mitra (Mithra)	مترا
Mizpah	مصفاة
Moab	موآب
Moloch	مولك (اله بنى عمون)
Mount of Olives	جبل الزيتون
Mount Casius	جبل كاسيوس (جبل الأقرع)
Mycenae	ميسينا
Nabatene	دولة الانباط
Nabatean	نبطى
Nablus	نابلس

Nahor	ناحور
Nash fragment	جذاذة ناش
Nebo	نبو (اسم جبل)
Negeb	صحراء النقب (نجف)
Nessana	نيسانا
Nora	نورا
Numbers	سفر العدد
Nuzi	نوزى
Obeidian Culture	حضارة العبيد
Odyssey	الأودسا
Omri	عمرى
Ophel	الأكة ، أوفيل
Oracles of Balaam	تنبؤات بلعام
Orontes	نهر العاصى
Osée	عزيا
Osorkon	أوسركون
Palestine	فلسطين
Parallelism	الازدواج (فى الشعر العبرى)
Parthian	الفرثية
Patriarchs	الأباء ، آل يعقوب
Pelasgians	الفلاسجيون
Pella	بــلا
Pentateuch	أسفار موسى الخمسة ، ناموس
Pentecost	عيد الخمسين
Perdiccas	برديكاس
Petra	البتراء ، بطره ، بترا
Pharisees	الفريسيون
Phasael	فزائيل
Philadelphia	فيلادلفيا
Philistines	الفلسطينيون
Philo	فيلو
Pilate	بيرطى
Plain of Sharon	سهل شارون
Plutarch	بولتارخ

Praetorium برايتوريوم
Provincia Arabia
بروفنسيا أرابيا ، مقاطعة العرب
Pylos بايلوس
Pyramid of Zacharias هرم زكريا
Qal 'at Jarmo قلعة جرمو (فى العراق)
Qarn Sartabeh قرن صرطبة
Qasr Far 'on قصر فرعون
Qatana قطنة
Qumran قران
Ras Shamra رأس الشمرا
Rhodes رودس
Rhodian رودسى
Rome روما
Rum Qaleh قلعة الروم
Salome سالومه
Samaria السامره
Samson شمشون
Sandahanna سندحنة
Sanskrit سكريت
Sapphira سفيرة
Sbeitah سبيته
Scopus جبل المكبر
Scythopolis سكيثوبوليس
Sea Peoples شعوب البحار
Sebaste سيباستى
Seleucids السلوقيين
Semechonitis الحولة
Semitic السامية
Serabit el-Khadim سرابة الخادم
Severus سيفيروس
Sharuhen شاروهين
Shechem شكيم
Sheikh Abreik
شيخ يبرق ، شيخ ابرايق

Shephelah شفا الله ، السهل الفلسطينى
Shihan شيحان
Shiloh شيلوه
Shishak شيشنق
Sidon صيدون ، صيدا
Siloam سلوام
Simon Maccabaeus سيمون المكابى
Sinai سيناء
Sinda سندا
Sirion لبنان الشرقى
Solomon سليمان
Square Hebrew الخط العبرى المربع
Subeta سوبيتا
Susa سوس
Sychar سوخار
Synagogue of Freedmen
مجمع العتقاء
Taanach تعنك ، طاناش (تاعاناكا)
Tabor تابور ، جبل الطور
Tabun تابون
Tanit تانيت
Teleilat el-Ghassul طليلات الغسول
Tell Abu-Hawam تل أبو هوام
Tell Beit Mirsim تل بيت مرسيم
Tell-el-Duweir تل الدوير
Tel el-'Ajjul تل العجول (غزة القديمة)
Tell el-Far 'ah تل الفرعة
Tell el-hesi تل الحسا
Tell el-Khaleifeh تل الخليفة
Tell el-Qedah تل القاضى
Tell en-Nasbeh تل النصبة
Tell Jemmeh تل جمه
Tell Keisan تل قيسان
Terah تارح
Tethys Sea بحر تثييس

Thessaly	تساليا
Tiberius	طبرية
Tjikal People	شعب الشكر
Tobiad Family	عائلة طوبيا
Tobiah	طوبيا
Tower of Antonia	برج أنطونا
Tower of David	برج داور
Trajan	تراجان
Transjordan	شرق الأردن
Tubias	طوبياس
Tushratta	توشراتا
Tyre	صور
Ugarit	أوغاريت (أوجاريت)
Umm el-Qatafah	أم القطافه
Uzziah	عزيا
Varuna	فارونا
Venus	فينوس
Vespasian	فسباسيان
Wadi Dhobai	وادى دوباى
Wadi Qelt	وادى الكلت (القلث)
Yucatan	يوكاتان
Yughlan Tepe	يورغان تبه
Zencirli	سنجرلى
Zeno Papyri	برديات زينو
Zerubbabel	زربابل
Zeus	زيوس
Zeus-Hadad	زيوس — هدد
Zibb 'Atuf	زيبب عطوف
Zimri-Lim	زيمرى ليم
Zion	صهيون

محتــويات الكتاب

مطابع الأهــرام التجارية

رقم الايداع بدار الكتب
١٩٧١/٣٨١٨

